Haithem Al Shwaly

هيثم الشويلي

البابُ الخلفي للجنّة

The Back Door Of Paradise

رواية

رواية • البابُ الخلفي للجنّة • هيثم الشويلي



الباب الخلفي للجنة

رواية

هيثم الشويلي

مع الزمن، يتحول الألم إلى حزن، ويتحول الحزن إلى صمت، ويتحول الصمت إلى وحدة ضخمة وشاسعة كالمحيطات المظلمة.

جلال الدين

الرومي

(إيسكولاس) مدينتي
ادخلوها بسلامٍ آمنين

(1)

يقولون أن زمن المعجزات انتهى مع الأنبياء والأولياء والأوصياء، لكني أشك بهذا الرجل الكبير الطاعن بالسن الذي يلقنني على الدوام ما يجود بقلبي، حين كنتُ أصارحه بذلك يبتسم ويقول "إنَّ الله يصطفي من يشاء، فكن صافياً نقياً ولا تخف من أهوال الدنيا"، لقد كان العم عباس شاه يبثُ الحياة بي عبر كلماته البيضاء دائمًا.

- **(أسعد.. أسعد)..**

كان محمود يلوح بيده لي وهو يراني بالقرب من العم عباس شاه، هو لا يفعل هذا إلا حين يطرق الرزق بابنا. فسوق الشورجة من المراكز الحيوية التي يعتمد عليها العراق في كل شيء، ربما عدم حصولي على وظيفةٍ حكوميةٍ تتناسب مع شهادة الفلسفة هو ما أهلني لأكون حمَّالا في السوق، وما يجعلني أكثر قرباً من الناس الموجودين في بداية الصباح، والذين يضمحلون تدريجياً بعد انتصاف النهار واعتلاء الشمس ربوع السماء.

بعد مشقة وعناء أفرِغُ حمولة السيارات التي تنقل أطناناً من بضائعها المستوردة من دول شتى مع مجموعة من أصدقائي الحمّالين محمود، وعلاء، وسمير، وصالح، وسامي، ولكل واحد من هؤلاء سِمة خاصة وعلامة مميزة تميزه عن الآخر.

فمحمود كان ثرثاراً لا يطاق أبداً..

- **محمود، أتوسل إليك أن تكف عن الثرثرة، فالحمولة تحتاج وقتاً منّا، وثرثرتك تشغلنا عن ذلك..**

قالها صالح وهو يحاول التقاط أنفاسه الهاربة وعلامات الغضب تزين محياه، وأردف:

- **بتُ أشعر بالإحباط كلما رأيتُك معنا..**

كان صالح لا يقول هذا لوجه الله، بل عن قصدٍ، ليبين للآخرين أنه لا ينفع بالعمل ومن ثم إيصال رسالة لنا جميعاً، أن علينا طرده في المرة القادمة، صمت محمود ولم يتكلم.

- **اسكت يا شارب الخمر وإلا قطعتُ لسانك..**

استشاط صالح بوجه سامي غاضباً وهو يحاول رفع قضيب السيارة الحديدي؛ ليتصارعا، بينما يحاول سمير التدخل ليفض النزاع بينهما، لكنه في نهاية المطاف يأخذ حصتهُ منهما من لكمٍ وضرب وشتم ليكون الضحية.

- **ابتعد عنا أيها الشاذ..**

قالاها بصوتٍ واحد، ثم أردفا عبارة يرددانها كلما ثارا بوجه سمير..

- **اذهب أيها اللقيط إلى جهنم، واتركنا لوحدنا، وإياك أن تتدخل بعد الآن.**

يشعر علاء بالضجر وهو يجعل من رقبته وظهره مسرحاً لبضائع التجار، يلتفتُ نحوهما برقبته المعقوفة؛ لينثر سخريته المعهودة فوقهما وضحكاته الفضفاضة، يقفُ بالقرب منهما وهو يتجادل مع أنفاسه المتصارعة التي تضج برئتيه قائلاً:

- **هل تودون أن أسمعكم نكتة؟..**

نبتسمُ سواهما، فهما ينظران لبعضهما كمصارعين، ويكررها مرة أخرى، بينما يندلق لسانه من فمه لاهثاً من ثقلِ الحمل الذي يجهدهُ مستقراً فوق رقبته وكتفه، (اسمعوا.. اسمعوا.. أگو فد واحد)، وقبل أن يكمل نكتته الساخرة الزاخرة بالضحك، نبتسمُ كلنا حتى سامي وصالح، وهما يمسكان برقبةِ بعضهما بعضاً، يبتسمان ويخران إلى الأرض ضاحِكَين، فعلاء يحمل بوجههِ علامات لا يمكن أن توصف أبداً، فعيناهُ البارزتان إلى الأمام كحبتي التوت، ووجنتاه المجعدتان، وأنفهُ الطويل المدبب، أشبهُ بمهرج يصطنع لنفسه السخرية والتمثيل. وبمجرد أن يطوي وجهه المطاطي ننفلت ضحكاً من حيث لا نشعر ولا نعلم.

- **هيا اصمتوا، ودعونا نعمل بصمت..**

قالها وهو يمط وجههُ وشفتيه، بعد أن انفصلت يدا سامي وصالح المشتبكتان مع بعضهما.

صاح سائق السيارة من بعيد، وهو يرتشف رشفةً من كوبه الساخن، أمام بائع الشاي في نهاية الطريق المؤدي إلى أحد المخازن الكبيرة:

- **ألا تكفون عن الشجار؟ سأتأخر وبعد ساعات قليلة ستمتلئ الشوارع بالمركبات، وسألعن حظي يا أولاد الكلاب..**

قالها بعد أن برزت على وجهه ملامح الغضب، وبعد أن تطاير الشرر من عينيه.

وحدي كنتُ غائباً عن الشعور، لست بينهم في شيء.. مذ صفعني بريقها من نافذة حاسوبي فجأة، هكذا بالمصادفة التقينا تحت منشور، ربما فلسفياً أو ثقافياً أو مزيجاً من الاثنين، من المنشورات التي يتقاذفها هذا العالم الافتراضي في صفحةٍ ما، ساقني قدري نحوها من حيث لا أعلم.

عينها الخضراء، ووجهها البريء، وابتسامتها الشفافة، وخدّها الأزهري يشع نوراً جذاباً، وشفتاها تلمعان وتبرقان كبرقٍ يخطف الأبصار، فمذ رأيتها قبل ليالٍ، وأنا مشغولٌ بها كثيراً، فصورتها لا تفارق فكري ولا مخيلتي، أية امرأة تسرق لبّ القلب كهذه؟ كنتُ أنتظر زوال النهار بفارغ الصبر، وما إن أصل بيتي المتواضع حتى أصعد لغرفتي التي تكمنُ في الطابق العلوي منه، أفتح حاسوبي وأذهبُ لصفحتها، أتفحصها أنظر لها بعينين محدقتين وبحسرة وألم، وأتوجه لربي سائلاً إياه، رافعاً

بصري إلى السماء مخاطباً: يا ربّ لماذا لا تكتب لنا نحن البسطاء الفقراء من الناس نساءً كهذه؟ لماذا لا تتصدق علينا وتوفي لنا الكيل؟ وأرددُ كمخبولٍ.. إن منحتني إياها سأعبدك ما حييت، بل سأعبدك عبادة لا يعرفها حتى الملائكة، وباتت الأسئلة تتقافز فوق رأسي، أين تسكن؟ في أيّ بقعة من بقاع الأرض؟ يا ربي خلقتها فأحسنتَ خلقها، وقادني الفضول في التفتيش بصفحتها عن اسمها الحقيقي، من أي البلدان هي؟

كلما نظرتُ لصورتها أدققُ في تفاصيلها، وجهها يبرق، آه.. إنها سارقة وببراعة، لا يعقل أن أقع بفخاخها بهذه السرعة، قبل ساعةٍ نشرت بصفحتها.. (تبارك الذي بيده الجمال، وهو على رسم الشفاه لقدير)، وساقني الفضول كثيراً في معرفةِ متى تدخل هذه الأنثى إلى هذا العالم الافتراضي، الذي سيحيلني إلى مجنون باحتراف كبير.

توقفتُ قليلاً عن التفكير وبتُّ أضع أسئلة جديدة لنفسي، وأبحث عن إجابة لها، ربما أيها الشقي أنها ليست هي نفسها من تبحث عنها، وربما ليست هي صاحبة الصورة، وربما لا تمتلك كما تقول عينين خضراوين، ولا خداً زهرياً، ولا شفتين متوردتين مليئتين بالحيوية والجمال، ولا وجهاً ينافس القمر، ربما هي مجرد خيال فقط.

تضعُ صورة لغلاف صفحتها للسيدة العذراء وهي تحمل بيديها المسيح، وكأنهما محلقان في فضاء سماوي أزرق وتنظر إليه بكل رحمة وهما يشعان نورا، وخلفهما صليب كبير مشع كالشمس، وقد كُتِبَتْ عبارة على الصورة (ابن الله وروحه)، وازداد فضولي في معرفة هذه الأنثى والسر الذي وراءها، أحقاً هي نفسها من أقصدها أم غيرها؟ ربما أنا متوهم منذ البداية وبتُ أضع لنفسي احتمالات أخر، قد تكون هذه الصفحة تحمل اسماً مستعاراً للتمويه أو التسلية أو لأي غرض آخر، لا يهم. سأعرف مَنْ وراء هذه الصفحة عاجلاً أم آجلاً.

(2)

(Maria) هذا الاسم الوحيد الذين يزين صفحتها فقط، وبتُّ أكثر من ثلاث ساعات أنتظر، لكن من دون جدوى، إلا أني تقمصتُ دور البطولة وتشجعتُ بإرسال طلب صداقة لها وانتظرت، وانتصف الليل، ومر الوقتُ ثقيلاً كئيباً جداً، كان صمتاً مطبقاً مملاً.

الواحدةُ صباحاً والثانية وتمرُ الثالثة وأبقى أشد كآبةً، وعلى مضضٍ أغلق نافذة حاسوبي مرتمياً في أحضان فراشي مستسلماً تماماً للقدر، وأغفو قابضاً على أحزاني كمن يمسك بين يديه جمرة وينام، وأصحو صباحاً منهكاً جداً، أتثاءب محاولاً ارتداء بنطالي وقميصي؛ لأسرع ذاهباً للسوق، وكعادتي أستأنس برؤية العم عباس شاه وهو يفتتح يومه بدعاءٍ صباحي تطرب له النفوس (يا من دلّ على ذاته بذاته، وتنزّه عن مجانسة مخلوقاته...وكفّ أكُف السوء عني بيده وسلطانه) كان يطلقها من فمه وكأنهُ يرتلها بصوت قارئ شجي، الله كم رائع أنت يا عم، أنك تبثُ الحياة فينا، ضارباً كل المآسي التي اعتدنا عليها على الرغم من الموت الذي يجتاحنا في كل يوم، فغربان الشر توزعه على الفقراء والمساكين من الناس، ومن يدري؟ فما زلتُ احتفظ برأسي.

- **أراك متعباً! فعلامات الذبول تعتلي وجهك؛ وعيناك الحمراوان تُدَلِلُ على أنك لم تنم جيداً ليلة البارحة..**

قالها العم عباس شاه وهو يراني أجر نفسي جراً من شدة التعب.

- **فعلاً لم أنم ليلة البارحة فقد كنتُ أناجي القمر، وأنتظر بزوغه لينير لي عتمة هذا الكون.**
- **لكن النجوم تنتشر بالسماء لتزينها وتنشر الضياء.**
- **وما حاجتي بالنجوم يا عم إن كنت أبحثُ عن القمر بعينه؟**
- **أتريد أن أقول لك عمن كنتَ تبحثُ عنه في ليلتك السابقة؟**

شعور غريب انتابني وإحساس مريب يقلقني، وكأنه يدري سبب تعبي ويعرفه لدرجة الاكتئاب ومن كنتُ غارقاً بالسهر من أجلها، وقلتُ:

- **أكيد عن القمر.**

وقهقه بهدوء.

- **أعرف يا أسعد، لكن قمرك يختلف تماماً عن قمر السماء.**
- **ماذا تقصد يا عم؟**
- **أقصد الذي تعرفه أنت.**
- **وماذا أعرف؟!!**
- **حتماً تعرف أشياء وأنا أعرف الأشياء نفسها التي تعرفها أنت.**

وقهقه مرة أخرى، وشعرتُ أنه يعرف كل شيء عن ليلتي السابقة، التي كنت فيها كروميو ينتظر جوليت عند نافذتها المغلقة، واستغربتُ من وخزاتهِ تجاهي، وهو يخاطبني بلغة الترميز، وكأنه يريدُ أن يقول لي إني أعرف كل شيء، لاحظت هذا بعينيهِ، ومن خلال حديثه.

هو يثير فضولي دوماً بطبيعة عمله البسيطة التي لا تساوي أيّ شيء مقارنة مع التجار الكبار الموجودين في السوق، السِلال البسيطة وأطباق الخوص لا تساوي ثمناً باهضاً يعود بالنفع على صاحبها، فكيف له العيش من هذه التجارة البسيطة؟؟، هو الآخر لغزٌ مثير فضلاً عن لغز (Maria) !!.

- **السلام عليكم..**

قالها علاء بعد أن تَبِعَهُ الجميع حين كنتُ واقفاً بالقرب من دكان العم عباس شاه.

- **أراكم اليوم بلا عملٍ، ما السبب لتجمعكم معاً؟**

سأل العم عباس وهو يرى البقية يتجمعون من أصدقائي الحمّالين صوب دكانه المتواضع.

- **لقد أغْلَقَتْ قوات الأمن المنافذ المؤدية إلى السوق؛ حفاظاً منها على أرواح الناس..**

أجاب صالح وهو يطلق زفرات ثكلى من صدره، وأردف قائلاً:

- **لا ندري ما السبب؟ لكن هي أعلم بالحال منّا، إنّهم يعلمون كيف يحافظون على أرواح الناس.**
- **كفّ عن هذا أيها المنافق.. الحكومة من تقتل الناس في الأزقة والطرقات، فهي تحمي نفسها فقط بكتلها الإسمنتية الكبرى، وتترك المساكين يضيعون بين عبواتها الناسفة وسياراتها المفخخة..**

قالها علاء وهو يستشيط غضباً مما يجري.

تذمر الجميع من الإجراءات التعسفية بقطع الطريق أمام الشاحنات الوافدة إلى السوق الكبير، كان سمير جالساً على الأرض، ماداً قدميه متكئاً على حائط الدكان.

- **سأذهب إلى سردار وبولص لأقضي يومي هناك..**

قالها بعد أن لملم أشلاءه المبعثرة فوق الأرض ناهضاً بقوة، واقفاً باتزان على قدميه.

- **اذهب وأشبعْ شذوذك منهما، فبشرتك البيضاء تساعدك على ذلك..**

بغضبٍ أجابه صالح وهو ينظر إليه بعينين جاحظتين، وبوجهٍ عبوس حاسداً إياهُ على شذوذه.

- **وما يغيظك إن كنتُ راغباً بذلك؟ لعلك تريد أن تصبح شاذاً لتسد نقص الرزق الحاصل لهذا اليوم؟..**

رد عليه سمير منتشياً بما يمنحه للآخرين من لذة جسدية، وأردف:

- **لا بدَّ لك من بديلٍ مناسب لمهنة الحمالة المرتبطة بقطع الطريق، فبشرتك السمراء وشكلك اللامميز لن يؤهلاك لذلك.**

قالها بسخرية وتبعها بقهقهة عالية وضحك الجميع، واستشاط صالح غضباً، ثم تمالك نفسه لئلا يبين للآخرين أن كلام سمير زجّ بداخله الألم.

تشظى الجميع، كلّهم ذهبوا سواي ، بقيتُ منشغلاً بسيدةٍ لا أعلم مدى صدقها من كذبها، لا أدري أحقيقة هي أم أنها أوهمتني بصورةٍ مزيفة لها، متى تتلطف عليّ وتقبل صداقتي؟ لم أكن أتصور أنها ستتحدث معي يوماً، ربما ستكون أعجوبة ثامنة تزيد عجائب الدنيا السبع، مَنْ يدري قد تكشف لي الأيام عن لحظات ثمينة وأوقات جميلة .

أبتسمُ كمجنونٍ وأقول في نفسي أيّ غبي مثلي تبتسمُ له الأيام، وهو يعملُ حمالاً لينقل أثقال الناس كالحمار..

لاحظتُ أن يداً تمتد إلى ظهري برفقٍ وحنان، لتقطع سلسلة التفكير المتشظية لفكري

- **ما بكَ يا أسعد؟ أراكَ تحدثُ نفسكَ وتغرقُ في عالم آخر.**
- **لا يا عم، ولكن شيئاً ما يشغل مخيلتي ويربكني كثيراً.**
- **هل ثمة امرأة خلف هذا الإرباك؟**
- **ربما يا عم، وربما لا. وربما هذا الرزق الذي يصعب علينا الإمساك به، وحتى الالتحاق به أو الدنو منه، فالبلاد مربكة حد الجنون وأوضاعها الأمنية قلقة جداً، والحكومة لا تستطيع توفير الحماية لنا، فحين يقطع هذا الشارع، هي بذلك تجني علينا نحن الفقراء من الناس.**
- **لا تخف كن واثقاً كل الثقة بالله، يأتِك بالأرزاق من حيث لا تدري.**

كان النهار يسير ببطءٍ شديد، وأنا أحاول عدّ الدقائق والثواني لمعانقة حاسوبي، النهار يقترب من نهايته، تاركاً الظلام ليعانق هذا الفضاء الواسع الشاسع، كان قلبي معلقاً بعالم افتراضي أزرق، وبسيدة الحسن والجمال (Maria)، آه لو كانت هي نفسها من أبحث عنها، لكنتُ المحظوظ الأول في العالم.

أصل لبيتي، أستحم، وأنقل طعامي حيث غرفتي، لقمة بيدي وبالأخرى أفتح حاسوبي، أفتح صفحتي الغارقة بأحلام الفتيات والنساء الجميلات فمنشوراتي الغزلية الممزوجة بالفلسفةِ تستميلُ كل النساء وتستهويهن لدرجة الجنون، إلا أن هذه الأنثى استمالتني جداً، وما أن فتحتُ صفحتي حتى وجدتها

مقفرةً، لم يرد منها شيء، إنها أنثى غريبة لا تنفك عن استفزازي وإثارة فضولي، وكعادتي أبدأ نهاري صباحاً بالسوق الكبير الذي يبتلع آلاف المتسوقين والذين يختفون في زحمةَ الدكاكين التي تملأ هذه البقعة من الأرض.

(3)

عند المساء، كالمعتاد أنتظر أميرتي الصامتة التي لا ترد عليّ، فتشغلني الأخريات منتشياً بين عذب الكلمات وأنا أتنقل بينهن كفراشةٍ تحلق من زهرة لأخرى، وحين أشعر بالملل منهن واليأس من الجديدة أنهي كل شيء وأنام، لكني تفاجأتُ حين رأيتُ رسائل واردة لي في صفحتي (وافقت Maria على طلب الصداقة)، وقتها لم يسعني الكون كله للفرحة التي اجتاحتني وغمرتني، وحين أصبحتْ بقائمة أصدقائي ذهلتُ وأنا أتنقل بصفحتها، ياااااا لجسدك الرشيقِ يا (Maria)، ثوبك الأسود يليق بك فعلاً، وأنت تنثرين شعركِ المخملي فوق كتفيكِ الذي يشع نوراً، وجهكِ المنير يضيء المكان ويبددُ ظلامية أيامي المبعثرة وسوداويتها، يا لكِ من حسناء فاتنة ، أية أنثى أنتِ!!.

كمجنونٍ أخاطب الصورة وأنا أتنقل بشغفٍ ودهشةٍ بين أحضان صفحتها المميزة، وها هي فتحت أخيراً وقبلتني ضيفاً لديها، وأنا الآن أنتظر فقط أن أطرق باب محادثتها؛ لأحلق وإياها بأجنحة ملائكية فوق هذا الكون الكبير.

لا بأس كخطوة أولى أن تقبل طلبي هذا، لكني حتماً سأواصل الضغط والتودد؛ لكي أجلبها إلى ساحة حديثي، وغرقتُ بزحمة منشوراتها وحرفها الجذاب، ونمتُ تلك الليلة متوسداً حاسوبي، ولم أفقْ من منامي حتى أجهش ديك الجيران بالصياح مزعجاً إياي، وقافزاً فوق مخيلتي التي باتت تملؤها سيدة الحسن والجمال (Maria)، يبددُ هذا الديك الملعون كل صورها المتجمعة فوق مخيلتي، كنتُ قد تركتُ لها رسالة مفادها (مساء الخيرات).. لكني لم أكن أعلم أن مساءاتي معتمة لهذا الحدّ، فهي لم تردَّ عليها، ثم أردفتُ رسالة أخرى بعد الأولى، وبفارق ثلاث ساعات وكتبتُ فيها:

ـ يا لهذه المساءات المعتمات

حين أطرق باب العرافات

وتفصلني عنكِ آهاتي والمسافات

وكنتُ أفكر بأم فاضل العرّافة ورائحة بخورها التي تصل حتى نهاية الزقاق المظلم، وهي تستقطب بنات الحي وأغلب النساء اللائي يترددن عليها؛ لتعقد لهن ألسنة أزواجهن بطلاسم سحرية تكتبُ بلغة غير مفهومة وخطوط متعرجة، تدفن في عين جارية من عيون النمل، أو في مقبرة قديمة أو قبر حديث العهد، إذ يوضع هذا الطلسم مع الكفن الجديد؛ ليموت قلب الرجل كما يعتقدن، ولا يقصد بعدها أنثى أو يفكر بأخرى أجمل وأعذب وأحلى، لكني قلت في نفسي، كلا لن تنفعني أم فاضل بأي شيء، إلا بعد أن أعرف حقيقة (Maria) هذه الجنية التي ما زلتُ أجهلها حتى الآن.

وانتصف الليل وبلا ردٍ أبداً، أردفتُ ما قلته بالمساءات المعتمة برسالة أخرى عند الواحدة والنصف ليلاً بشيءٍ من الحرف علّه يداعب ذائقتها الجمالية، أو يقضي على وهمي الذي مزقني وقتلني وشغلني كثيراً عن راحتي ورزقي اللذين باتا يرهقانني كثيراً بفضلها:

أخاف أن أبقي

سنينَ فوق سنيّي

بلا ردٍ يأتيني

أحبكَ يا وهمي

لأنكَ تجعلُني أصدق

حتى حلمي

لم أتمالك نفسي بعد كل ما كتبتهُ لها، وشعرتُ بالغضب الشديد، وقلت في داخلي مثل هذه لا تساوي التعب الذي بات يأكل رأسي ويقضّ مضجعي، ونمتُ تلك الليلة معانقاً حاسوبي، لاعناً حظي العاثر.

بَرَدَ فضولي تجاهها، وتيقنتُ أن تجاهلها أفضل بالنسبة لي؛ لأنها لم تجلب لي سوى الألم والقهر والسهر.

في الصباح أترك كلّ شيء وأهرع صوب السوق الكبير، الذي يبتلع الملايين من الناس القادمة من محافظات العراق كافة، ففي اليوم الذي لا نسمع فيه أي صوت للانفجارات هو يومُ مميز، وكالعادة أفتتح صباحي بوجه العم عباس شاه، وهو يغدق علينا بوجههِ المشرق وابتسامته المعهودة شيئاً من التفاؤل.

لا شيء يشبه شيئاً، شتان ما بين العم عباس شاه والشيخ حكمت ذي اللحية الكثة الطويلة، الذي كان يعد بمسبحته ألف تسبيحة أو أكثر من ذلك، لكنه حين يرى امرأة تسير متوجهة إلى السوق حتى يرمقها من أخمص قدميها حتى رأسها، وكأنه يريد التهامها، ويضرب برمقته المقيتة الشهوانية كل تسبيحاته التي أحصاها منذ الصباح الباكر وحتى اللحظة، لا نور في وجهه قط، فما أن يبدأ الصباح حتى يجلس واضعاً كرسيه بباب دكانه، ويغرقُ عماله بترتيب دكانه الكبير.

نعم لا يوجد أي شبه بينهما، فكلاهما مختلفٌ.

(4)

أم فاضل كانت تقطع عليّ الطريق أحياناً في الصباح لتوصيني بوصايا عديدة، أولاها أن أجلب لها البخور الهندي والزعفران الأصفهاني، وأمر في طريقي على صاغة الخواتم الفضية؛ لأجلب لها ما تبقى من بقايا الفضة الزائدة عن حاجتهم لاستعمالاتها الخاصة، لكنها لم تسلم مني أبداً، فقد كانت مرمى لسخريتي وعفويتي، وأنا أقهقهُ بوجهها ضاحكاً منتفضاً على بساطتها وتصديقها لنفسها بأنها ساحرة الحي، التي تملك مصباح علاء الدين السحري لجلب الحبيب البعيد، أو العاشق الولهان المتواري عن الأنظار والذي يسكن خلف المحيطات والبحار، فتقاطعني على الفور:

- **ما يضحكك؟**
- **كلا يا خالتي، أنا ابتسمت فقط ليس إلا.**
- **وقهقهاتك الساخرة العالية، بماذا تفسرها؟..** سألتْ بعد أن تهدلتْ شفتاها وأغمضتْ عينيها لفترة امتعاض وجيزة.

وأردفتْ:

- **كأنكَ تشكّ بقدراتي..**

وقهقهتُ عالياً بلا شعور مني.

- **تتحدثين وكأنك تملكين عصا موسى..**

قلتها باستغراب ودهشة بينما هي فضلتْ عدم الحديث، وأصبحتْ كالخشبة اليابسة بلا ملامح ولا حركات، لم يميزها أي شيء يذكر، سوى أنها كانت مندهشة من سخريتي، شعرتُ وقتها بالخجل والحرج وهي تنظرُ لضحكاتي وقهقهاتي العالية بوجهها، أودعها وأرحل ممتطياً شوارع بغداد السالكة للموت، قاصداً السوق الكبير، في كل صباح أمرُ بطريقي على دكان العم عباس شاه، لكني في هذا الصباح لم أشاهدهُ بوجهه المنير الذي يعطيني دافعاً للتفاؤل، لذا كان سيئاً للغاية لي؛ لعدم رؤيته.

العجوز الهرِم أبو شامخ كان يشعرُ بالاشمئزاز مني كلما مررتُ عليه، ينظر لي بعينيه الحاقدتين وحاجبه المتدلي فوقهما ووجهه المائل وجبهته العريضة المقسمة إلى خطوط عديدة.

- **تفضل. ماذا تريد؟..**

قالها بلا مبالاةٍ قاتلة، وأخاطبه على الفور ممتعضاً من تصرفاته الغريبة تجاهي، قاطباً حاجبي، بارزاً شفتي للأمام..

- **أريد بخوراً هندياً، وزعفراناً أصفهانياً.**
- **بكم تريد؟**
- **مثل كل مرة.**
- **قل بكم تريد، فلا وقت لديّ!!**
- **واضح جداً، المشترون يتكدسون ببابك كبضاعة فاسدة، لا أعتقد أن شخصاً سيشتري منك بعد التطور الحاصل بصناعة الأدوية، فلا أحد يرغب بشراء بضاعتك البائسة.**
- **إذن.. ما السبب الذي دعاك للوقوف بباب دكاني، باحثاً عن البخور والزعفران؟**
- **لولا هذه العجوز التي تظن نفسها أنها بارعة في السحر، لما وقفتُ بباب دكانك البائس.**
- **خذ حاجاتك واذهب، لا تعد بعد الآن، عجوز ساحرة، ومن تظن نفسك وإياها، سادة السحر، تضحكون على عقول البسطاء من الناس سيعاقبكم الله حتماً، تذكر كلامي جيداً سيحاسبكم الله على ما اقترفتموه بحق المساكين.**

قالها بعصبية ومزاج حاد، وكأنه كان يضمر لي كل هذه الكراهية والحقد، وجاء الوقت المناسب ليفرغ جام غضبه عليّ، كنتُ أنفذ بقدميَّ النحيفتين، مخلفاً خلفي رائحة التوابل وأعواد النباتات المتخشبة.

عدم مجيء العم عباس يقلقني كثيراً. فرجلٌ بعمره تجاوز الثمانين عاماً يجعلُ وساوس الشك تساورني، فالموتُ يحلُ ضيفاً بأي وقت يشاء، وربما يكون طعماً سهلاً ويسيراً بيد عزرائيل، فقد بتنا

في هذه البقعة من الكون لا نخشى الموت أبداً. حتى أصبحنا وإياه أصدقاء، متى ما اشتاق ينزل إلينا ليأخذ ما يشاء، وبات لا يستطيبُ طعماً إلا بأرواحنا.

أحمل لأنثى هلامية في جوفي حزناً كبيراً وفي قلبي لوعةً واشتياقاً، وبين يدي المتعبتين أحمل أغراض أم فاضل بعد أن يمتص التجار جهدي وقوتي، وبعد أن يستنشق المتبضعون عطري ويتنفسُ الغرباء حرارة أنفاسي، أجني ثمار رزقي وأعود لزقاقي المظلم وصوت الصبية الصغار وأحلام النساء المتواريات خلف الأبواب الخشبية القديمة المليئة بالأسرار.

أهمّ بطرقِ بابها وأنا مأخوذٌ بصمت الحارة بعد الظهيرة، أجد نفسي منزوعاً بين موت الزقاق الوقتي وصمتها الحالي، كأني أسيرٌ بمقبرة فجة لا شيء فيها سوى حبات الرمل التي تبعثرها الريح، أتنفس هذا الصمت المريب، وكأنه الموت الكبير الذي ينتظرنا جميعاً نحو الفناء، أحتسي هذا الهدوء بكوبٍ من الوجع، وأنا أضم بين يديّ أكياسها السحرية، أطرق بابها السحري طرقاً قوياً علها تسمع أنين قبضاتي المتتابعة على الباب الخشبي المتهرئ، ها أنا أحمل إليكِ سر الأسرار وخفايا النفوس، أحمل لك كبت المحبين وآهاتهم، علها تصل مسامعك أيتها العجوز الساحرة، أطرق الباب بقوة، وبطرقات متلاحقة أنبش ماضي النسوة المتخفيات في بيوتهن، بحثاً عن النهايات السعيدة، واضعاً بصمات طرقاتي الشديدة على بابها، لكنها بالكاد لا تسمعني؛ لأن وقت الظهيرة الحار يجعل الجميع متخفياً في منزلهِ من لهب الشمس، وهذا ما يتيح للنسوة المجيء إليها؛ لئلا تقع أعين الناس عليهن واتهامهن بعمل السحر، تأتي النساء متخفيات كالخفافيش بالعباءة السوداء، تبحث بين يدي ساحرتها عن آمال وسبل لإعاقة الأزواج والوصول إلى الأحباب أو إعادة الأحبة إلى أحضانهن الرحيمة الفواحة مسكاً وعنبراً ولذة ونشوة، وهو يستنشق صدرها بلهفة واشتياق وعذوبة وكأنه طفل صغير، أو ربما لعودة غائب وانتظار حبيب، أو للاستحواذ على الزوج بدكتاتورية أنثوية تعيق شهوات الرجال إلى غيرهن، كل هذا يجري في بيت السحر من دون علم الرجال، فالزوج إن علم بزوجته ترتاد هذا البيت في الظهيرات القائضة؛ لنشبت المشاكل، إلا أن النسوة يأتينها سراً وخلسة من دون علم ذكورهن، وأنا ما بين أحلامهن وخلاصهن على يد المنقذة الماكرة، أقف مبهوتاً أمام الباب متقطع الأنفاس، واهن القبضة متعباً عائداً من أسفاري وغزواتي الضاجة بصدري، منتشياً بنصري لكنني مهزوم أمام لغز بابها المعاند، وكأنه أصم لا يسمع آثار ضربات يدي، أقف أمامه لاهثاً بعد الطرقات المتكررة والنغمة الموسيقية التي تبتكرها يدي على الباب لكن من دون جدوى وبلا أملٍ أبدا، أجد نفسي منزوعاً ما بين سحرها وتعبي المضني، كالريشة التي تبحث عن ملاذها الآمن بعد أن تتقاذفها الريح في مسارات عديدة من هذا الكون، أترك بابها وأستدير نحو باب دارنا الذي هو الآخر لا يفتح لي بسهولة ويسر، بل بمشقة وعناء كبيرين، فأمي العجوز لا تكاد تسمع طرقاتي إلا بعد تراتيل وأدعية أقرأها مواصلاً الطرق حتى تتجشم عناء السمع، وتفتح لي، أستحم وعلى الفور ألقي بجسدي النحيف على فراشي، وأغط بنوم ثقيل بعد أن تتزاحم برأسي أشياء ضبابية لا هي كوابيس مخيفة، ولا أحلام جميلة، لكن بين هذا وذَاك مجرد أشياء مبهمة لا أكاد أميزها سوى أني أسترخي وأطلق العنان لروحي، وهي تحلق في فضاءات ومديات أكاد أجهلها تماماً .

ثمة امرأة في المنام تراودني لا تشبه (Maria)، لا تشبه أم فاضل، لا تشبه حتى تلك الأنثى التي حملتُ أغراضها إلى سيارتها الفارهة في المرآب الخلفي للسوق، لا تشبه أية أنثى قط، لا أدري فشيء ما يقلق مخيلتي ويربكها وأصحو بعد ساعات من الصراع الخفي في عوالم أكاد أجهلها، عوالم خفية تماماً ، إلا أني أحتاج لمن يفسر لي كل هذه الأشياء الضبابية التي تشذُ بفكري وعقلي، أحاول لملمة جسدي المتعب المبعثر على فراشي، أنتفضُ وأنا أتثاءب ماداً يديّ للأعلى لأبدد التعب المفرط المتجمع فوقي، أرتدي ملابسي وأذهب لبيت أم فاضل فعند اقتراب المساء تتبخر النسوة وتبقى لوحدها في بيتها، وما أن أطرق الباب حتى تهرع مسرعةً نحوي بينما أردف طرقاتي لبابها الملطخ بالحناء

والتعاويذ والنذور، فثمة نسوة أنصفهن القدر والحظ معاً، وجاء سِحْرُها ليلبي لها رغبتها بكبح جماح زوجها، وصدقن أن السحر العجيب والتعاويذ الخاصة والطلاسم التي تمنحها لهن قادرة على كل شيء، للبحث عن الحبيب المفقود أو الزوج المنتظر، وبجلب الرزق لمن لا رزق له.

- **نعم، نعم جئتك، احذر لئلا يقع الباب على رؤوسنا أيها الطارق.**
- **افتحي فلقد تعبتُ كثيراً وأنا أتتبع أثرك في الوصول إليك.**
- **أهلا بأسعد..**

قالتها بعد أن فتحت بابها المتهالك.

- **لقد تجشمتُ عناء طرق هذا الباب الموشوم بالحناء والطلاسم، خفتُ عليه من الكسر، وأنا أطرق بقوة عند الظهيرة، بينما أنت لم تهتمي بالطارق مطلقاً.**
- **أنت تعلم أن وقت الظهيرة يجلب لي الحظ والنسوة، فكيف لي أن أتركهن وأجيء إليك، بينما أنشغل تماماً برسم الطلاسم ومزاوجة الحروف وقراءة الطالع والنبش في المحظور،** ثم أردفتْ بلهفة: **هيا حدثني جلبت معك ما أوصيتك به.**
- **جلبتُ لك كل ما طلبتهِ مني.**
- **ناولني ما جلبت لي في هذا الكيس الأسود.**

قالتها بعد أن مدّت يدها النحيفة المتيبسة المزينة بوشم أزرق يسبغ عليها رونقاً خاصاً وشكلاً مميزاً.

- **هو بخور وزعفران وبقايا الفضة، لكن ثمة فضول يقودني للسؤال!!..** قلتها وبي رغبة لمعرفة شيء ما.
- **عن أي فضول تتحدث؟**
- **البخور والزعفران أشياء قد تستخدمينها بطقوسك السحرية، لكن ما الغرض من الفضة؟!**
- **وكيف تريدني أن أبوح لك بسر المهنة؟!**
- **عن أية مهنة تتحدثين؟! هل تظنين أنني سأمارس السحر مثلاً؟ أو تتصورين بأن أكون ساحراً عملاقاً تقصدهُ نسوة الحي، ومن يقبل بهذا؟ فإن عَلِمَ أهل الزقاق حتماً سيقيمون عليّ الحد. لكنني أحببت السؤال فحسب؟!**
- **سأخبرك، لكن ليس الآن، لا يجوز الإفصاح بالشيء قبل البدء والشروع به، لا بد من اكتمال العمل، والسحر لا يقبل هذا مطلقاً.**
- **لا تهتمي لن أسألك بعد اليوم عن أي شيء، الآن أترككِ مع أغراضكِ، وداعاً.**

عدتُ لمنزلي بعد أن استسلمتْ الشمس لسوادِ المساء وتخلت عن ضيائها الوهاج لعتمة الليل المظلم الذي يشتدُ سواداً كلما تعمق الحزنُ بداخلي، حاسوبي هو نافذتي التي ألجأ إليها كلما اشتد بي الحنين لمعانقة سيدة الجمال (Maria)، وما أن تصفحتُ صفحتي الشخصية حتى وجدتُ بحقيبتي الإلكترونية رسائل عديدة من التي كنت أتمنى أن أرى لها هذه الرسائل، أسرعتُ لفتحها؛ لرؤية ما كتبته.

- **عزيزي أسعد.**

مساؤك الورد كله.

شكراً للكلمات التي داعبت مشاعري وأثارت فيّ الرغبة للحديث، الكلمة الطيبة يقولون إنها صدقة بعد تفشي الخراب في هذه الدنيا، أي ألم يجتاحني أيها القادمُ من بعيد، ليس مهماً أن أعلم من تكون؟ لكني متيقنة بأنك مميز جداً، وإلا لا يطلق هذه المفردات إلا من يحمل في قلبه مخزوناً من الروعة والحب وطاقة أزلية من العشق. ممتنة لهذه الحروف التي جعلتني أستعيد أنفاسي التي فقدتها في وطني، على الرغم من مرارة الغربة التي اعتدت عليها، مرة أخرى أكرر شكري وتقديري لك، وأتمنى أن نتواصل على المودة.

إلى اللقاء.

كنتُ أقرأ وأصمتْ، وأعيدُ القراءة مرةً أخرى، لم أكن أصدق ما قالته لي وهي تحاول بهذه الكلمات أن تفتح باب الحديث معي، كنتُ أرتعش خجلاً، من أين سأبدأ الحديث معها وبأية قافية سأنتهي؟ أية كلمات ممكن أن تصل لها وبسرعة الضوء، ربما سأبدأ بأنشودة المطر، نعم سأبدأ بها لأنني أتفاعل بالسياب والمطر، لا أدري لماذا يشوبني هذا الإرباك العشوائي، حتى يداي لا تقويان على الكتابة، أحاول استجماع قواي لكن من دون جدوى، وتشجعتُ وبعثتُ لها ما كان يخطه السياب عندما أجهشتْ السماء بالبكاء وهي تبلل الأرض وتغرقها بماءٍ منهمر، وهو يكتبُ من خلف نافذة غرفتهِ، أنشودته الخالدة التي تتغنى بها الملايين من العشاق حين ألهمه وحي السماء النازل مع قطرات المطر مساراً خاصاً، وبات يسرج من عينيها أشجار غاباته المبعثرة، وينثرُ السحر الأخاذ، يا لك من ناسج للحرف غريب، تتفنن أيها السياب بلغتك المتماسكة لتُشبه طرفي عينيها المدببتين بالشرفتين حين يحط عليهما ضوء القمر، وينأى رويداً رويداً، تاركاً خلفه ضياءً خافتاً، كليلةٍ رومانسيةٍ هانئةٍ هادئةٍ، تزينها الأضواء الخافتة، ليراقص عينيها الباسمتين الرامشتين بدلع وغنج، ويغطُ وإياها بصمتٍ كبير.

أسرعتُ وعلى الفور وأنا أرسل لها ما ابتدأ به السياب في (أنشودة المطر)

عين ــاكِ غابتــا نخيلٍ س ــاعةَ الس ــحَرْ

أو شُرفتان راح ين ــأى عنهم ــا القم ــر

عين ــاك حين تبس ــمان تورق الك ــرومْ

وترقص الأضواء... كالأقمار في نهر

يرجّه المجذاف وهْناً س ـاعة السَّ ـــحَر

ووضعتُ يدي على خدي وانتظرتُ كنسوةِ الحي اللائي ينتظرنَ ببالغ الشوق حلماً صعب المنال، وأمنية لحبيبٍ من نسج الخيال، وكنتُ ما بين شوق الحديث إليها وشبق معرفتها، ألوذ بصمتي سارحاً لخيالي المتهالك ما خطتهُ يداها، وهي تحاول إعطائي الضوء الأخضر باقتحام عوالمها، وهذا ما كنتُ أبحثُ عنه منذ مدة، وأنا أتنقل ما بين لغزها ولغز العم عباس شاه، ولم أشغل نفسي به بقدر اقتناص اللحظة للظفر بمن سرقت قلبي واتعبتني مدة انتظاري، وبينما أعيد قراءة ما كتبته لي، بزغت من بين

أناملها رسالة جديدة كانت أشبهَ بنجمةٍ وضّاءة تداعب ظلام روحي.

- **وهل يخفى القمر، إنّه السياب المعظم، هو أنيسي في وحشتي، فحين يشتدُّ بي الحنين أخرج ديوانه الكبير، وأقرأ على أنغام العود ومعزوفات بتهوفن أزهارهُ الذابلة التي يُحييها ببراعة وحرفة كبيرة، ثم أنتقل إلى شناشيل ابنة الجلبي، وهي ترسمُ بعباءتها الخجولة لوحة فنية بصرِيةً مطلة على شط العرب، تتمايل بها غامزةً لابن الحي بلطافتها المعهودة؛ ليسير وراءها كمسحورٍ لا يأبه بالطرقات ومن حوله، وتنتابني مأساةُ وحزن كبير حين أقرأ ما وصل إليه حفار القبور وهو يتجول باحثاً عن رزقه وسط جثث الأموات التي تعصف بها رياح الصمت وأتربة الذكريات البالية القديمة، وأتأسى بالمومس العمياء المسكينةُ التي أرقدها الدهر وفقدت حتى صنعتها ورمى بها الزمن بعيداً لتعتاش على صدقات الناس بعد أن كانت مومساً تهوي أفئدة العشاق إليها، وأغرق بأساطيره التي يحلقُ بها صوب الخيال بعيداً عن هذا العالم. إنّها أساطير وحكايات لا تنتهي أبداً.**

كان النعاس يباغتني بهدوء كبير وكأن القدر تدخل ليضيع فرصة اللقاء بها والحديث معها، كانت عيناي تنغلقان لبرهة ثم تنفتحان لأواصل قراءة ما كانت تبعثه لي من رسائل، انفتاحها بهذا الشكل يدلُّ على الكبْتِ الذي تعانيه، ما كنتُ أصدق انها تغرقني بهذه الدردشة الفضفاضة وهي تتحدث عن السياب ودواوينه بحرفية لغوية عالية لتواصل حديثها بينما أنا أتذبذبُ بين الصحو والنعاس، قائلةً:

- **الله.. يا إقبال كم كان يحبك السياب أمن أجلك سرح الخيال لحرفه، وبات يكتب بلا كلل أو ملل، كم محظوظة أنتِ. لا أحسدكِ قط لكني أغبطكِ على هذا الرجل الذي يجعل من حروفهِ أجنحةً كبيرةً تحملكِ كالبساطِ السحري، وتحلّق بك في السماء الزرقاء الواسعة، آه يا صديقي لقد ذكرتني رسالتكَ بأنشودة المطر، كم كنت أقرأها وأغرق بصمتي وأنا أتذكر كيف كان الماء يغسلُ وجه مدينتي، ويعمدها بماء الحب النازل من الله، هو ماء الطهر الذي يمنحنا الله إياه، وأمر على المعبد الغريق وأتذكر معبدي كيف حوّله الظلاميون إلى كومة حجارة ودخان متصاعد صوب السماء وجثث وأشلاء ودماء، ياااااااا.. يا له من منظر مريب ومخيف، أشعر بالخوف كلما تذكرتُ تلك الحادثة، وأحاول أن أنسى لكن من دون جدوى، المأساة تعشعشُ بأم رأسي، ثم أمر على منزل الأقنان وأبكي هو منزلي الذي تربيت فيه، لي ذكريات لا توصف أيام طفولتي، أمي، أبي، الله كم أشتاق الآن لرؤية كل هذا.**

كنتُ كلما فززتُ أجدها تغرقني بهذه الرسائل الواحدة تلو الأخرى شيئاً منها أقرأه، وآخر لا أكاد أميزه، وأنا أغلق عيني غير منتبهٍ لكل حديثها، أدرك تماماً أنَّ القدر كان سخيفاً معي جداً، كان يفترض بي أن أتحرك، أن أفعل أي شيء المهم أن أبقى على قيدِ الدردشة، أبادلها شهد الحديث، ثم تكملُ حديثها بعد أن شعرت باليأس من التواصل معي، قائلةً:

- **ياااااااا.. لا أريد أن أصدع رأسك بكل هذه الأشياء، أعتذر عن ثرثرتي الزائدة، يبدو أني نسيت نفسي، لكني أعاني الكبت وحرقة تسري إلى بدني، أشعرُ بلوعة وحزن قاتمين، أسودَين، كأنهما سكاكين مغروسة في قلبي، إنني أعاني كثيراً ها هنا، لا عليك لا تهتم لكنما أنشودة المطر استفزتني كثيراً وأنا أتنقل ما بين حروفها..**

أسعد.. أسعد هل تسمعني؟ هل تصل رسائلي إليك أم لا يصلك أي شيء منها!!!!!!!!!!!!!!!!

لم أكن أدركُ أن النومَ قبيحٌ جداً وهو يباغتني على حين غرة، وهي ما زالتْ تقص عليّ ما كان يدور في مخيلتها من قهر وألم وحرمان، يا لها من مسكينة! لم أستوعب أن خلف هذا الجمال ثمة امرأة تصارع الحزن والوجع، يا لحظي العاثر هذا. حتى الحسناوات يملكنَ كمًّا هائلاً من القهر، نشترك كلانا بالوجع والألم والصراع والحروب، تتحدثُ عن جثث وأشلاء ودمار وخراب وذكريات طفولتها

وعن مدينتها وزقاقها الذي يفضي إلى أشياء تودّ أن تذكرها، كنتُ ألملمُ نظراتي المبعثرة وأزيح ستار النعاس عن جفني، كانتْ رسائلها المرسلة قبل ساعات من نومي، أغلقتُ حاسوبي على أمل الحديث معها في الليلة القادمة، وتمددتُ على فراشي، وأطلقت العنان لأحلامي فرحاً بما حققته من حديث معها، وأفصح ديك الجيران عن سذاجته الصباحية المعتادة، وهو يرنّ مسامعي الغافية على أحلام (Maria) بصوته المدوي.

الصباحاتُ تشرعُ أبوابها بوجهي وها أنا كالمعتاد أرتدي ملابسي، وأنطلق صوب السوق، وأولى محطاتي الدكان الصغير للعم عباس شاه الذي يتلقانا ككفٍ رحيمة، ويكون موضع استراحتنا بعد التعب الشديد الذي نلاقيه من تحميل وتفريغ للشاحنات الكبيرة.

توافد الشاحنات بكثرة يدللُ على أن الطُرق مؤمنة للوصول إلى السوق، وتزاحمها يعوضنا عن ركود اليومين السابقين اللذين أغلق بهما الطريق، وبتنا أنا وعلاء وسامي وصلاح ومحمود وسمير نتنقل ما بين الشاحنات، لثانية وثالثة ورابعة حتى سرقنا الوقت من غير أن نعلم بتأخره للحد الذي أغلقتْ فيه الدكاكين أبوابها، حتى أصحاب المحال الكبيرة هم الآخرون غادروا محلاتهم، فعند الرابعة عصراً يبدأ الناس بالتسرب من هذا السوق الكبير والذهاب لمنازلهم خوفاً من السيارات المركونة التي تنفجر لتمحو كل الذكريات المزروعة على أرصفة الطرقات ومن الوضع الأمني القلق الذي يتأرجحُ على كف عفريت، فالجميع يحمل روحه بين يديه ولا أحد يعلم كيف يفرّ من الموت المنتشر في شوارع بغداد وأزقتها، حتى العم عباس شاه هو الآخر أغلق باب دكانه المتواضع الخجول وغادر، ولم يتوفر لي الوقت المناسب للسؤال عن سر غيابه والاطمئنان عليه، عمال الشيخ حكمت ينهون إدخال بضائعهم وهو يصرخ بصوته هيا لقد تأخرنا، أسرعوا، أغلقوا، لا تتأخروا، أسرعوا قبل أن تفرغ الشوارع من المارة، كل شيء مخيف للغاية، لستُ مبالغاً بذلك لكنها الحقيقة المرة التي مررنا بها.

كان الوضع الأمني ما بين مدٍ وجزر فتارة يصبح جيداً وأخرى يَسودّ وعلى حين غرة تجد مافيات ظلامية تقتل وتسرق وتذبح بلا رادع ولا هوية ولا أي شيء، بلا عقيدة، ولا مذهب، أو حتى إجازة من دين بذلك، هي عملية لإثارة الرعب ليس إلا، وربما هي مخططات من جهات خارجية تحاول زرع الفوضى فينا.

(6)

عقارب الساعة تسابق الزمن والمساء يستعجل القدوم وعما قريب أصل زقاقي الضيق في مدينة الكاظمية ماراً من (باب الدروازة) السوق الذي يزدحم فيه الكثير من الناس، وهم يتبضعون من الباعة المتراصين فيما بينهم بعد أداء طقوس الزيارة، زقاق حارتنا الضيق المظلم يربط ما بين السوق وشارع المفيد وصولاً حتى ساحة العروبة، الساحة التي تتنفس الصعداء بعد أن تشهد المنطقة الرابطة بما فيها شارعنا حركة غير مسبوقة للناس، فأغلب الوافدين والزائرين يسلكون هذا الطريق هرباً من زحمة المتبضعين الذين يحملون معهم أمانيهم وحوائجهم المقضية، ضجيج السالكين وهمسات أقدامهم تداعب الإسفلت المتشقق المنقوع ببرك المياه الآسنة الطافحة من مجاري البيوت القديمة، وأصوات صبية يلعبون بالكرة يقرعون بها الجدران الرثة المتشققة

العتيقة، أصوات لعربات شتى فبائع الغاز يدق بقضيبه الحديدي على القنينة لتصدر صوتاً مزعجاً يرعبُ مسامع النائمين، وبائع الحلوى يهرب من جمهرة الناس الذين يغلقون بكثرتهم الطريق إلى السوق وصارخاً بصوتٍ عال (دهينة يا ولد)..، سائق عربة الملابس المهترئة المستعملة (البالة) الوافدة من دول أوربية هو الآخر يمرُّ محملاً بقمصان "الكلاسيك" و"التيشيرتات" الأجنبية التي تحمل عبارات إنكليزية يجهل الأغلب ترجمة ما تحمله من إساءة كبرى وعبارات مخلّة بالآداب والأعراف والتقاليد، بائع السكائر هو الآخر يهرب من تزاحم الناس صارخاً بصوته الجهوري (جگاير... جگاير يا ولد)، أما مؤذن الحضرة الكاظمية فقد اعتدتُ على صوته الذي لم يفارقني منذ أن كنتُ بالمهد صبياً، فقبيل الفجر بدقائق يعتلي صوته معانقاً الفضاء الرحب ناشراً آيات الله في هذا الكون الواسع، وهو يداعب مسامعي كنغمة هادئة اعتدت أن أسمعها قبيل النهوض من نومي، لكنما صوته هذا يعطي إشارة لديك أم محمد بأن يقلب الدنيا على رؤوس المساكين النيام الذين لا يكترثون لصلاة الفجر، والذين ينتظرون المؤذن بأن ينهي مراسيم تراتيله الصباحية بفارغ الصبر.

أم فاضل هي الأخرى تراقب الطريق بين الحين والآخر تنتظر قدومي؛ لأنها تعرف ميعاد مجيئي، وحين يتعبها الانتظار توصي الصبية الصغار بأن يبلغوها بقدومي عندما أضع أولى خطواتي البطيئة المتثاقلة المتعبة عند بداية الزقاق.

الرطوبة المتصاعدة من الجص والطابوق الفرشي وأعمدة الخشب النخرة تمنحهُ عطراً قدسياً غريباً ورهبة تدبّ في النفوس ليبقى السوق والزقاق القديم محافظاً على نكهته التراثية مكتسباً رونقاً جذاباً وشكلاً مميزاً، أما أبي وأمي وحتى أم فاضل وكبار السن فما زالوا يتذكرون حكايات بغداد القديمة، يتذكرون الولاة العثمانيين الذي حكموا بغداد، الوالي مدحت باشا، وحكاية العصملي والجندرمة وحتى السقا الذي كان ينقل لهم الماء من نهر دجلة وهو يحمل بيديه صفيحتين معدنيتين من الماء يوازن بهما يديه، مربوطتين بخيطين قويين وبخشبة أفقية مستقرة على كتفيه لتعينه على طريقه الطويل من دجلة حتى المدينة.

للمساء نكهة المحبين وطعم العاشقين الذائبين، لا أدري لِمَ كلما حان وقت المساء نَبَضَ قلبي نبض عاشق ولهان وأشعر كأني طفل صغير ينتظر قدوم أمه بفارغ الصبر ليعانق نهدها، تلك اللحظات تذكرني باللحظات ذاتها وأنا أنتظر (Maria)، لم أكن أدرك أن الليل محزن إلى هذا الحد من دونها، أيّ ليل وأي مساء يمر من دون أن أحدثها، كم كنتُ مغفلاً لأنني لم أستطع أن أبقى معها ليلة البارحة، تباً لك أيها النعاس وتعساً لأنك سرقتني منها رغماً عني.

الليل في بدايته وأنا على أمل انتظارها ومعانقة أخبارها فقد كنتُ أقلبُ صفحتها ذات اليمين وذات الشمال، لم تنشر أي شيء، فصفحتها خاملة سوى من منشورين قديمين كانا قبل الحديث معها لأنني أنا من شغلتها في ليلتها الفائتة وأنطقتُ مكامن اللوعة في قلبها حينما بعثتُ لها بأنشودة المطر، ربما سأكرر هذه الأنشودة مرات عديدة؛ لتخرجها من مكان اختبائها وتَخَفِيها عني، وانتصف الليل ومر سريعاً كالبرق، بينما هواء السطح البارد بات يلسع جسدي المتعري، وأنا متمددٌ على فراشي الذي لا يكاد يفارق مكانه في الليل أو النهار، وأطلق المؤذن أول صرخة صوب السماء مفتتحاً حديثه السماوي بـ (بسم الله الرحمن الرحيم) ليكمل ما تبقى من أدعيته وقراءته للقرآن وهو يوزع ألحانه الإيمانية في الفضاء الرحب، ينتبهُ ديك أم محمد مع الصرخة المدوية الأولى للمؤذن ليرهق مسامع النائمين بصياحه الذي لا ينتهي حتى انشقاق عمود الفجر، وأبقى أنا أتلوى مع صمتي وحيرتي من عدم دخولها والحديث معي، أغلق حاسوبي وأستنشق كمية من الهواء الداخل إلى صدري وأتنهد بحسرة وألم، أنفخ بما في جوفي من غضب يتملكني، أخشى عليّ منها، وأخشى على قلبي، كيف لي أن أقع بحب أنثى لا أعرفها، من تكون؟ من أي

البلدان؟ لكني أخشى أن تكون متوسدةً ذراع من تحب مغمضة العينين بينما أعاني أنا سهر الليالي وأتجشم البقاء حتى الصباح، يقلبُ ديك أم محمد الزقاق بالصياح، وتسرقني إغفاءة صباحية ولا أكترث لهذا الديك فقوة النعاس تجعلني أذوب باسترخاءٍ عميق وأستسلم تماماً لسباتي القاتل لأصحو على مضض بعد سهر بغيظ مجبر عليه، ربما قلبي من يجبرني على كل هذه الأشياء، يا ربي من أين حلت عليّ هذه اللعنة؟ لست أدري سأستمر معها أم أستطيع التخلص منها؟ أحاول النهوض مسرعاً للذهاب لعملي لكن قواي الجسدية خائرة تماماً، أستجمعها محركاً عضلاتي المتعبة، يصمت ديك أم محمد بعد اعتلاء الشمس رويداً رويداً، ويقفز من سطح إلى آخر مداعباً بوقاحته دجاجات الحي اللائي يستأنسن بفحولته، وهو يستعرض قواه الجنسية عليهن بينما يخشى أن يقفز لبيت (سلمان الفيتر) لأنه يملك ديكاً ورثه من صديق كان يعمل معه في منطقة الشيخ عمر، كان (أبو نمر) هو الأوحد والأقوى بزقاقنا والذي يحبه (سلمان الفيتر) كفردٍ من أفراد عائلته بل أكثر حتى من أمه وأبيه، بينما يخشى ديك أم محمد القفز على السطح الذي يأوي (أبو نمر) لأنه إذا تلاقى معه حتما سيعود بلا ريش يغطي جسده؛ ليكون المغرور الوحيد فوق السطوح الأخرى.

الشمس تقتاتُ على جسدي، أحاول الوقوف مرة أُخرى لكن قواي لا تسعفني على النهوض واثباً بقوة مقاتل، إلا أن الشمس ترغمني على ذلك، أتركُ فراشي مستسلماً للشمس تاركاً إياه وهارباً من حرارتها كجندي حرب يهزمُ بأرض المعركة يلقي بسلاحه ومعداته ويفرُّ بنفسه باحثاً عن النجاة والخلاص، أبللُ وجهي الذي أحرقته خيوط الشمس الذهبية وأسرع بالذهاب إلى عملي ممتطياً زقاقنا الذي تدبُّ فيه بواكير الحياة منذ بداية الصباح.

كان العم عباس شاه يبيع بعضاً من أطباق الخوص لنسوةٍ جئن من أطراف بغداد لشرائها منه وبيعها في المناطق الريفية التي ما زالت تعشق هذه الأطباق لنشر الخبز الحار الخارج من التنور الطيني عليها، كان منغمساً بالحديث معهن وهو يعرض عليهن السلال وبقية المنتجات البسيطة المصنوعة من خوص النخيل اليابس. فكل هذه البضاعة يستوردها من جنوب العراق بعد جلبها له وبيعها عليه، فهو يعشق هذه المهنة البسيطة، تركتهُ وذهبتُ أتتبعُ خطى أصدقائي الآخرين، علاء يجلس منتشياً ساخراً أمام محلات بيع الأواني المعدنية زاهداً بكل شيء غير آبهٍ وإن انقلبت الدنيا رأساً على عقب، الشيء الذي لا يفارقه ابتسامته وهو يردّد باستمرار (أگو فد واحد..) لينطلق نحو نكتةٍ ساخرة منتقداً بها الدولة والحكومة ورجال الدين الذين يفتون بغير علمٍ، اتركه غارقاً بسخريته المعهودة مشيحاً عنه..

- **قف سأسمعك شيئاً جميلاً ..**

قالها لي وهو يمارس نشوتَهُ الساخرة وضحكته الفارهة التي تمط شفتيه، ألتفتُ له قائلاً:

- **كفَّ عن توزيع ابتساماتك الساذجة ودعني ألحق رزقي..**

(7)

كنتُ أدرك عند ابتداء الصباح وشروق الشمس أنَّ السيارات الداخلة إلى السوق تضمحل لأنها تأتي

مع بداية الفجر، لكني أبقى أتنقل بين المحلات، فبعضهم يود نقل بعض بضائعه إلى المخازن أو أماكن أخرى، وبعد السير والتنقل على قدمي ماراً بالكثير من الأمكنة والمحلات لا أجد أي شيء، لكني أشاهد بعيني كل شيء، وكأني أستعرض شريطاً سينمائياً، فثمة حكايات جمة في هذا السوق، الشيخ حكمت ينهض من كرسيه الجاثم أمام باب دكانه مستقبلاً الحسناوات اللائي يبحثن عن أجهزة كهربائية لحاجاتهن المنزلية، وأبقى شاخصاً بصري مستغرباً من تصرفات هذا الرجل الغريب الذي تجده تارة قمة في الزهد والإيمان والإخلاص، وتارة أخرى مراهقاً وغريباً يتصرف بسذاجة واستهتار، وهو يتوددُ لهن مبتسماً مغازلاً إياهن بكلمات رومانسية، أما الأخريات فيقعن طعماً لعينيه المفتوحتين على طول الطريق، وعند انتصاف النهار يُكبرُ المؤذن للصلاة فتراه أول الداخلين للجامع الصغير المنزوي بين البضائع المخيمة عليه حاملاً بيده مسبحته الطويلة التي لم يزل يحصي عددها مكرراً إحصاءه لها بعد الانتهاء منها متمتماً بين شفتيه مستغفراً ربه مكثراً من الهمس بينه وبين مسبحته، لا أدري لِمَ يثير فضولي هذا الشخص الغريب فهو يمتلك شخصية مزدوجة مختلفة تماماً عمن عرفتهم طوال عملي في هذا السوق، فما أن يشتد الحر بعد الظهيرة ويبدأ السوق بتقيؤ متسوقيه الذين يتسربون عبر ثقوبه المتعددة من جهاته المختلفة يهرع سمير بشكله المتميع إلى دكان سردار وبولص اللذين يحبان مواصلتَهُ لهما، لا أدري ما سرّ حبهما له لكنهما يحبانه كثيراً، أما أنا فأستقر بالقرب من دكان العم عباس شاه ليقص عليّ قصصاً غريبة وأشياء لا أكاد أفهمها، فهو حاذق وكأنه يقرأ الطالع أو يملك شيئاً من الغيب أو يعرف ما يضمره الإنسان في قلبه، هو ليس قارئاً للفنجان قط، لكنه رجلٌ غريبٌ جداً؛ لأنه حين ينظر لي يستفز ما يضمره داخلي وينبئني أحياناً به.

- **السوق من دونك مظلم، لقد افتقدتك، كنتُ أتمنى أن أفضي لك بما يدور في قلبي، فأنت بالنسبة لي محطة استراحة، أفشي لها كلّ أسراري..** قلتها للعم عباس

- **لا شيء يدعو للقلق فقط انشغالات منزلية منعتني من المجيء، لكن قل لي.. رأيتكَ اليوم متأخراً وأنا منشغل مع بعض زبائني، يبدو أنك لا تنام جيداً منذ مدة؟..** رَدَ عليّ بهدوء

- **أنا مشغول منذ ليالٍ عديدة، فقد أضربتْ كل حواسي عن النوم وبتُّ حبيس امرأة لا أعرف عنها أي شيء، لا أدري من الجن أم الأنس، غريبة الأطوار فتارة أشعر بأنها قريبة مني وأخرى أكاد أفقدها، لكني لا أدري ما سرّ انجذابي لها، وكأنها أنثى تبث السحر من عينيها، كل شيء في وجهها أتقن الله صنعه بدقة تفوق الوصف والخيال، عيناها، وجنتاها، شفتاها، إلا أني أتحدث من منطلق أجزمُ أنه غاية الغباء، فلو سألتني هل رأيتها؟ سأقول لك لا، لكن ثمة صورة نفذت إلى قلبي وأسرتني منذ اللحظة الأولى وتسمرتُ أمام حاسوبي وأنا أنظر لها بشغف وحب، أحسستُ أن قلبي تعلق بها وشعرتُ وكأنني التقيت بها من ذي قبل، لم يكن حلماً أبداً لكني فعلاً شعرتُ بهذا الشعور، أين؟ متى؟ كيف؟ لا أعلم، ربما في الحلم، لكني لم أرها في حلمي، ربما في عالم آخر، لكني لم أسافر خارج العراق مذ ولدتني أمي وأبصرتُ العتمة ونورها الخافت في زقاقنا الضيق المليء بحشرجة أصوات الباعة المتجولين، فلمْ أسلك في هذا العالم سوى طرق معدودة.**

ورحتُ أسردُ له ما كان مخبوءاً بداخلي تجاهها وأنا أعاني في كل ليلة من انتظارها متوسلاً بحظي عله يسعفني لأكون على تواصل معها، وبدأت أسرد بدايتي وطفولتي مبيناً عدم خروجي خارج مدينة الكاظمية، فكيف لي بالسفر إليها، متواصلاً بالحديث، قائلاً:

- **حينما كنتُ صغيراً أرهقت هذا الزقاق بصراخي وشعوذتي وأنا أطرق باب الجيران وأهرب كطفلٍ يلعب بلا كلل أو ملل، وحينما بدأت أتعلم كنت أحد الطلاب الصغار الذين يتجولون بالأزقة الأخرى، فـ(عگد السادة) حين أجد نفسي مجبراً على المرور به وأنا أراه كزقاقنا**

الضيق وشناشيلنا الهرمة القديمة التي ما زالت تعيش بعنفوان على الرغم من شيخوخة الزمن وتقدم العمر بها، يا لها من أزقة وشوارع غريبة فهي متشابكة فيما بينها، فزقاقٌ يفضي إلى زقاقٍ آخر، وكأن هذه المدينة كالكف التي تحوي أصابعها الخمسة، ومذ تخرجتُ من مدارسها حتى تعلمتُ الفلسفة في جامعتها، وحين تخرجت بعد سنواتها الأربع ما وجدتُ غير هذا السوق الكبير يفتحُ ذراعيه لي وهو يقول هيتَ لك، لأعمل بعد هذا العناء الدراسي والتحصيل العلمي حمالاً يجعل من ظهره ويديه مسرحاً لبضائع التجار ينقلها من السيارات الكبيرة حيث المخازن والمحال الضخمة، برأيك أين شاهدتها؟!!

- **أجلس وسأحكي لك..**

رد عليّ وهو يرفعُ يده عن خده بعد أن كان منصتاً لي والابتسامة لا تفارق وجهه وكأنه واثق جداً مما سيقوله لي وبات يسرد لي فلسفة جديدة غير التي تعلمتها وكأنه أستاذ فلسفة بليغ يعي ما يقوله، لم تكن شطحات فكرية أو شذوذاً عقلياً، بل كان يبث الحكمة من فمه واقتنعت بما قاله لي على الفور وكأنني بتُ أصدق كل ما يقوله حتى وإن كانت أشياء غريبة لا تصدق.. ثم أردف قائلاً:

- **قبل أن يخلق الله تعالى الأجساد خلق الأرواح، وعاشت في عالم الذر، فتشعر وكأنك تعرف هذا الشخص أو متيقن من رؤيته على الرغم من عدم معرفتك له، فبهذا العالم تُهيأ الأرواح وتبقى إلى أن يأذن الله لها بالولوج في أصلاب آبائنا ويزرعها في رحم أمهاتنا لنمرَ بنفقٍ مظلم طوال الأشهر التسعة وبعدها نبصر النورِ لنعانق هذه الدنيا ومرارة الحياة ومشاكلها، الحديث بهذا يطول وعلى العموم.. تذكر جيداً ما سأقوله لك.. سأجعلك تلتقي بها إنْ أحببت.**

ثم سكتْ بعد أن أطبق شفتيه وفرش منخريه وبرزت تجاعيد جبهته، وكأن الحديث خرج لا إرادياً ولا شعورياً وحاول تغيير مسارات الحديث إلى حديث آخر، وأحسست أن خلف هذا التغيير حقيقة غريبة لكني لم أنتبه أو ربما لم أكترث، أو لم أستسغ فكرة اللقاء وتقبلها، لم أتأكد بعد من مشاعر امرأة لا أعرف من تكون؟ أو من أي البلدان؟ أسئلة كثيرة ما زالت تبحث عن أجوبةٍ لها، ولن يستطيع أي شخص حلّ لغزها أو معرفتها سوى القادم من الأيام التي ستكشف كل هذا، لم أنتبه لما قاله لي بخصوص الالتقاء بها لأنني متيقن بأنه لا يملك البساط السحري ولا يملك مصباح علاء الدين، أو عفاريت سليمان التي تنقل مدناً بأكملها وبأقل من لمح البصر، بل بأقل من ارتداد الطرف، ولم يكن جنياً من جن أساطير ألف ليلة وليلة يجوب هذا العالم الكبير ويحلق بأي جزء من أجزائه الواسعة، مرت كل هذه الأسئلة أمام ناظريّ وتقافزت بصورة عشوائية وبتُ مقتنعاً بأن الذي أفكر فيه محض وهم وشذوذ عقلي، أما العم عباس فكأنه لم يقل شيئاً قط، وابتلع لسانه لفترة وجيزة لكنه عاد مسرعاً ليقول:

- **عليك أن لا تتأخر مرة أخرى ونم جيداً واترك السهر فالسهر يضر بك، ولا تُقْلِقْ مخيلتك بعد الآن فمن تبحث عنها قد ترهقك كثيراً، فأنا أعلم أن حبها سيتسرب إلى قلبك كالسم الذي يستقرُ في الكبد ووقتها لن تستطيع الإفلات منها وستبقى عالقاً بها إلى أبد الآبدين ولن تتخلص من لعنتها..**

يخيفني كثيراً هذا الرجل، لكني قلت في قرارة نفسي من أين له معرفتها أو حتى شخصيتها ليطلق عليها هذا الوصف الغريب؟ وتفارقنا، اتجه هو لمنزله وتوجهت أنا صوب بيتي ومدينتي، وساقتني قدماي بعد ازدحام الطرق واختناقها لساحة الميدان القريبة من الباب المعظم.

(8)

ثمة بائع يفترش الأرض ويوزع عليها كتبهُ القديمة بعد أن أحرقت أشعة الشمس أغلفتها البراقة، وبالمصادفة وأنا أتفحص الكتب انساب إلى ناظري عنوان لطالما كان صديقي عادل يسرق منه بعض العبارات والكلمات حين كنا في الجامعة معاً ليهديها إلى حبيبته التي كان يقضي معها كل وقته، فقد كان يقتطع أجزاءً منها ليُعَبِرَ لها عن حبه ويوهمها بحروفٍ من الشهد، لم أكن أعلم بذلك إلا حين قلتُ له:

- **أنتَ تكتب مقطوعات ساحرة يا صديقي..**

فرد قائلاً:

- **كلا، بل قل أسرقها..**

وضحك ضحكة كبيرة مزق بها مسامعي، وأنا أرددُ مستغرباً..

- **كيف سرقتها يا عادل؟..**

رد مفصحاً عن سر ذلك:

- **إني أقتطع هذه العبارات من رواية قديمة وجدتها بمكتبة خالي المتهالكة.. أخلطها مع بعض لتكون مزيجاً نثرياً رائعاً..**

ثم بات يرهقني بسرد قصة خاله ومكتبته، وقاطعته محاولاً معرفة اسم الرواية، لكنه أصرَّ على الحكاية، فكلما كنتُ أقول له:

- **يمعود انطيني الزبدة وخلصني شلي بهالدوخة..**

يقول:

- **اصبر خويه خليني أسولف لك..**

يردُ عليّ ببرود كبير ليسرد لي القصة كلَّها رغماً عني.. متواصلاً مع حديثه، قائلاً:

كان خالي يغلق المكتبة بقفلٍ كبير ويخبئها بجدار المنزل الذي بنى عليه حائطاً عازلاً آخر غير القديم وطلاه بنفس الطلاء الدهني ليخفيها عن أعين رجال الأمن، فالثقافة في زمن السلطة الحاكمة كانت الطريق إلى سجونهم المظلمة، لتبقى كل كتبه حبيسة قبو مظلم، معزولة عن أيدي أصدقائه وأحبته الذين اعتادوا اقتناء كتبه النادرة السياسية والدينية والأدبية بمختلف كُتابِها دستويفسكي، أرنست همنغواي، أجاثا كريستي، ماركيز، السياب، الجواهري، طه حسين، المنفلوطي، محمد باقر الصدر، وكتبٍ قديمة تشد القارئين.

خالي مصطفى كان ضحية كتبه التي لم يجنِ منها سوى رصاصة واحدة استقرت في قمة رأسه تدعى رصاصة الرحمة، بعد أن أخذه رجال الأمن ليعدم تاركاً خلفه كل شيء حتى مكتبتهُ التي كان يعشقها.

وفي ليلة مظلمة شديدة البرودة طرقوا الباب محذرين إياهم بعدم إقامة مجلس عزاء على روحه لئلا ينتبه الناس لذلك. ومن يخالف هذه التعليمات الحزبية يساق هو الآخر إلى الطريق نفسه، مطالبين إياهم بدفع فاتورة تكاليف الرصاصة التي سرقت منهما روح ابنهما البكر، وتبقى الأسرة بمن فيها وممن ينتمون لها مراقبين إلى أبد الآبدين، كان كل هذا في عام 1987 حينما كانت الحرب العراقية

الإيرانية تسرق الأرواح بلا رحمة ولا شفقة ولا رادع، تمر السنون تلو السنين وصوت الفقيد يرن بأذن أخيه الصغير وهو يلعب بكرة بلاستيكية صغيرة هامساً بأذنه مداعباً إياه.. (دير بالك على المكتبة، إذا عدمني البعث حتصير مكتبتك وبكيفك) كان يقولها ويضحك..

أنتفض أنا غاضباً مقاطعاً صديقي عادل وهو يقصُّ عليّ قصة مصطفى خاله المعدوم ومكتبتهُ التي ورثها أخوه الأصغر مرتضى، قائلاً:

- **شبيك يابه خلصني، يعني إلا ترويلي قصة خالك، انطيني اسم الرواية وخلصني..**

كان الشغف يملأ خيالي محاولاً الوصول إلى اسم الرواية.. ليرد ببروده المعهود

- **اصبر يا خويه.. خليني أكملك القصة مال خوالي..**

ليكمل رغم أنفي وتذمري من ذلك..

كان خالي مرتضى طفلاً صغيراً لا يفقه ما يقولون، يغمض عينيه ويبتسم يحلم بآخر ضحكة لأخيه الذي غادرهم عنوة رغماً عن أنف القدر، وحينما جاؤوا بنعشه الخشبي يحملون جثمانه على سيارة بيضاء ليلاً.. يسمع بكاء جدّي بهدوء، وهو يكفكف دموعه بكمه وجدتي تبكي وتخنقها العبرة لا تستطيع الصياح خوفاً من بطش السلطة، وهما يمددان مصطفى على فراش أبيض مغمض العينين، كان فرحاً لرؤيته، يحسبهُ غافياً لكنه لم يكن يدرك أن هذا آخر العهد به، أنه غادر منذ اللحظة ولم يعد بعد ذلك إليهم أبدا.

وحين نهض مبكراً من منامه ولم يجد أمه التي اعتاد على أن تطعمه عند كل صباح الخبز المهروس بالشاي بكى بشدة، حتى الأقارب بكوا خلسة من أن يسمعهم الجيران في مشهدٍ دراميٍ بكائي فج وهم يخفون الخبر عن الجميع.

مرت الأيام تتبعها السنون وكَبُرَ خالي مرتضى وتخرج من الكلية نفسها التي كان يرتادها أخوه الفقيد مصطفى وأصبح مدرساً للغة العربية في مدرسة من مدارس البصرة النائية البعيدة عن مركز المدينة في أبعد نقطة في مدينة الزبير ومرت الألفية الثانية، حتى جاء عام الفتح الحافل بالخراب والتغيير، بالموت والدمار، فالله استخلف ملوكاً، وأهلك آخرين وتبدلت القوانين والنظم وابتلع الاحتلال الرئيس وزمرته وآن الأوان لخالي مرتضى أن يجدد ذكرياته القديمة وهو يمرح بكرتهِ البلاستيكية الصغيرة في الغرفة محافظاً على الجدار مطبقاً وصية أخيه الأكبر.

انتهى كل شيء وآن للمكتبة أن ترى النور بعد أن رحل جدي وجدتي يتبعان ابنهما البكر الذي سُرِقَ منهما برصاصة طائشة صغيرة في بلدٍ لا يرعى حقوق مواطنيه، فكّ خالي مرتضى الجدار بعد أن رآها ملفوفة بالنايلون؛ لئلا تأكلها الرطوبة الصاعدة من الأرض، كانتْ كعروسٍ في ليلة زفافها حين يرفع عنها البرقع، وبدل أن يُقبلها لعنها ألف مرة لأنها سرقت منه أعزّ ما يملك، وبات يكلم الكُتب الصامتة ويبكي بحرقة، أعاد المكتبة ووضعها بأخرى جميلة وجديدة، وحين بتُّ أفتش عن مواطن الحب والجمال وبات العشق يضرب مضارب قلبي بحثتُ كثيراً بين رفوف هذه المكتبة عن مائدة دسمة تغنيني عما أكتبه بنفسي، كلماتٌ ساحرة أحاول أن أخدع بها هيلين التي سرقت قلبي، وبالمصادفة وجدتُ كتيباً صغيراً ل- ...

ثم صمت ولم يكمل حديثه.. وهو ينظر بوجهي نظرة خبيثة..

- **اي شبيك متكمل حچيك.. شسمها الرواية؟.. خلصني يا معود!!**

ليرد هذه المرة بخبثٍ كبير

- **إنت شبيك متصبر شوي..**

ولم يعِرْ لهفتي وشغفي أي اهتمام.. مواصلاً حديثه ببرود وخبث..

كنتُ أسرقُ منها مقطوعات جميلة وأهديها إلى الفتاة المشعة بياضاً كالثلج والتي كلّما نظرتُ لوجهها، تذكرتُ بزوغ القمر في الليلة الظلماء، أتذكرها حين قرأتْ ما كتبتهُ لها على ظهر محاضراتي وقت أن قالت لي:

- **هل لك أن تعطيني محاضراتك لأكتب ما فاتني من دروس!!**

ولم تكن تقصد المحاضرات بل لأنها أصرت على أن ما أكتبه هو لها حصراً دون غيرها من الفتيات الأخر، فكنتُ أدونُ بظهر الأوراق بعض المقطوعات الجميلة التي أتقنها الروائي ساهراً الأيام والليالي وهو يمزج الحرف بماء السحرِ وعذوبة الكلمات مبحراً بعالم الغزل الأخاذ لحبيبة مجوسية رمقتها عيناه ذات يوم، وأجد أنا كل شيء جاهزاً بلا مشقة ولا عناء ولا تعب ولا سهر، وأكتب الإهداء لها، بينما تُقبلُ هي في صباح جامعي مشمس تتلقاني بابتسامتها المعهودة، لتزين صباحي بغمزةٍ من عينيها الزرقاوين لأنتشي حتى نهاية يومي مغمضاً عيني على غمزاتها التي تداعبني بها كل يوم، وهي تقول لي:

- **يا لك من ناسج للكلمات غريب، كل هذا لأجلي!!..**

وأبادرها بكل صلافة ووقاحة.

- **نعم كل هذه الحروف لكِ وحدكِ، فلا توجد أيّ امرأة في هذا الكون تستحق هذه الكلمات غيرك يا هيلين..**

بعد أن تصاعد الغضب في داخلي قلت له:

- **مع السلامة..**

مودعاً إياه، راحلاً غير راغبٍ في معرفة اسم الرواية، حتى أمسكني من يدي قائلاً:

- **أوكَف.. رواية (قصة حب مجوسية)..**

أفصح لي عن اسمها بعد أن أشبعني مرارة.

بمرور الأيام يصبحُ كل شيء مجرد حكاية عابرة تُكْتب على جدران الزمن، ما كنتُ أدرك أن هناك سنوات سوداء ستمر على البلاد وأنا في مرحلتي الأخيرة من العام 2006، فثمة ملثمون بزي أسود وآخرون بيشاميغ حمراء يقطعون الطرقات في الكفاح والشورجة وساحة الميدان وعلى مداخل بغداد الشمالية والجنوبية، جثثٌ يرصعها الرصاص وتزينها الدماء وأخرى تلقى على الأرصفة وفي الحدائق العامة وفي كل مكان، وأخرى تفننوا بطريقة موتها، فللقتلِ أوجهٌ عديدة لكنها في نهاية المطاف لا تسلك كل هذه الأرواح سوى طريق واحد هو الموت لا محال، سيطرات وهمية يفتشون على الهوية ويقتلون الناس على الألقاب فكنا نحمل هويتين بلقبين لمذهبين، فحين ندخل منطقة لمذهب نبرز الهويات التي نأمن بها على رقابنا، وحين نذهب للأخرى نبرز الهوية الأخرى لنحافظ على أرواحنا من الهلاك والضياع، لم نكن نتصور أن نبقى أحياء لعشوائية الموت التي تجوب الشوارع، وما كنتُ أتصور كيف سيكون طعم الحياة لصديقي عادل بلا هيلين، أي سيارة لعينة صادفتها ذات صباح مشؤوم، لتحول جسدها الغض الأبيض الترف إلى شظايا تملأ شوارع اليرموك، لتنثرَ عبيرها ورائحتها المميزة التي كانت تشغل بها أنفه عن رائحة الفتيات الأخريات لتكون المميزة وحدها بلا منازع، لم يمهلهُ القدر الوقت الكافي ليفصح عن حقيقة كلماته التي كان يبعثها لها، ليقولَ لها يا جميلتي يا عشيقتي يا حبيبتي، كنتُ أسرق فقط لتكوني بالقرب مني مدى الحياة، ياااااااه إنّهم يسرقون الأرواح منا عنوة، يا لوقاحتهم! أية وقاحةٍ يمتلك أولئك، تباً لهم وتعساً على ما يقترفونه بحق الناس.

أي مآسٍ مرت على العراق، أتذكرك أيها الصديق عادل، أتذكر كل شيء..

مرَّ هذا كالسراب فوق مخيلتي لسبع سنين عجاف قاتلات أحرقن كل الذكريات بمآسيها، وأتذكر أية صدمة خلفتها لك قطعة القماش السوداء التي ألصقها الحارس الأمني على واجهة كليتنا (انتقلت إلى رحمة الله تعالى الطالبة هيلين يوسف سامح- المرحلة الرابعة- قسم الفلسفة، إنا لله وإنا إليه راجعون) رحلتْ وهي تحمل في قلبها كل الكلمات التي كتبها منيف لحبيبة مجوسية تظهر بالمصادفة له وفي زحمة الأشياء؛ لتغيب عنه مرات أخر، أتذكرُ كم بكيتَ، كيف كان بكاؤكَ ساخناً حدَّ الوجع، كان دمعكَ لزجاً رطباً على وجنتيك وأنت تبكي كطفل صغير فارق للتو أمه التي كانت تحبه وتضمه إلى صدرها، يا لبشاعة المنظر! كان يوماً مقرفاً مشؤوماً.

(9)

تباً لكل تلك الذكريات القاتلة المؤلمة التي تمر كالطيف في نفسي لتنغص عليّ فرحتي ولقائي المسائي بـ (Maria)، كأن ناياً شجياً يعزف لحناً حزيناً تطربُ له مخيلتي الحمقاء، بائع الكتب يلملم كتبَهُ وأغراضَهُ ليرحل هو الآخر قبل حلول المساء، وقصة الحب المجوسية ملقاة في زحمة كتبهِ وهو يكدسها في صندوق بلاستيكي عتيق ليرصفها في دكان لبيع المواد الكهربائية القديمة والمستعملة، هو الآخر يهرب قبل اندلاق الليل في كوب الظلام، وأصحو بعد كل هذا على صرخاتِ بائع الكتب وهو يغمض عينيه عن الدخان المتصاعد كسحابةٍ ممتدةٍ من بئر نفط يحترق ممسكاً سيكارته المتمركزة في طرف فمه قائلاً:

- **هيييييي شبيك وين سرحان انريد انعزل يابه..**

فالحق معه بعد قليل لا يجوب هذه الشوارع سوى الغربان من المارة التي تقتل الناس بدم بارد، فالشمس ترخي سدولها فوق القبة الخضراء للإمام عثمان بن سعيد العمري فمرقده يغفو تماماً على نهر دجلة، والناس تتهيأ لمغادرة ساحة الميدان باتجاه المرآب الموحد في الباب المعظم.

- **خلصنا يابه، اشبيك مو انريد انعزل.**

قالها وهو يصفف كتبه.

- **أعتذر منك لكن سرقتني الذكريات وحلقتْ بي بعيدا لأعوامٍ خلتَ من القهر والخوف.**

قهقه عالياً وهو يرددُ:

- **وما زلنا نعيش أعوام الخوف نفسها لم يتغير أي شيء بعد التغيير، بل زاد الطين بلة، الوضع الآن يسير من سيِّئٍ إلى أسوأ، لا شيء في العراق يسير بانتظام، بل بقهر وعذاب**

ودمار.

ومن بعيد صاح صاحب دكان الأجهزة الكهربائية بصوت مرتفع وهو يمسكُ بباب دكانه ليغلقه ويرحل مع الراحلين الفارين إلى منازلهم قبل اختفاء الشمس الحارقة.

- **خلصنا يمعود شنو أنت ناوي تبات اليوم..**
- **إجيتك.. إجيتك دقائق يا يابه..**

رد بائع الكتب وهو يرمي عقب سيكارته النافدة بعد النفخة الأخيرة من الدخان الخارج كفوهة بركان متناثر من فمه وأنفه.

- **تامرني بشي أخويه العزيز..**

قالها وهو يراني أنظر للكتب متفحصاً إياها بعينين حمراوين متعبتين مجهدتين من السهر والحر الشديد.

- **نعم، (قصة حب مجوسية) بكم تبيعها؟..**

قلتها له وأنا أتشوق لقراءتها فلم أعرف عن هذه القصة أي شيء سوى ما قاله عادل سابقاً عنها، وكيفية تملكه لقلب هيلين من خلال ما جاء فيها من براعة للحرف..

- **بخمسة آلاف دينار.. فهي قصة عشق أزلية لرجل ظلمه القدر، وهو يتحرى في دهاليز الحظ باحثاً عنها.**
- **سأعطيك أربعة والألف الباقي سيكون أجرة نقلي لمدينتي.**
- **ولا يهمك.. بس خلصني خلي أعزل وافلتْ..**

قالها وهو يشعر بنشوة البيع المصحوبة بالخوف القاتم. وبدل أن يلملم كُتُبِه صار يتحدث لي عن مطبوعات منيف محاولاً ترغيبي في شرائها منه؛ علّه يتخلص من هذه الكُتب التي اشتراها من شخص فرّ من العراق هارباً، قائلاً:

- **لدي أغلب كتب عبد الرحمن منيف لو أحببتَ ذلك سأتساهل ببيعها لك، فمنذ مدة بعيدة وأنا أحتفظ بكل هذه الكتب التي اشتريتها من صديق هاجر لبلاد الغرب، فاراً من مملكة الجحيم بعد الأحداث التي أرهقت العراق وجلبت له الويلات، بعد تفشي الطائفية والقتل الجماعي والسيطرات الوهمية، باعني كل كتبه التي كان يحتفظ بها، كان عازماً على السفر خارج العراق راحلاً للسويد، زاهداً بكل ما يملك من كتب نادرة وطبعات قديمة لمطابع أصبحت في طي النسيان، بل أصبحت شيئاً من تراث قديم، وقد اغتنمت هذه الفرصة لآخذ المكتبة وحتى الثريات القديمة والشمعدانات التي كان يرثها عن جدته التي ما فارقت كنيسة مار يوسف بالكرادة في كل أحد من كل أسبوع تقام به صلاة للقداس، تماثيل للعذراء وأخرى للسيد المسيح وأحجار نادرة وقديمة، أخذت منه الجمل بما حمل، وها هي الآن كل هذه الكتب بين يديك تارة أبيعها بسعر ثمين وأخرى بثمن بخس، فأنا أقدر الثمن من المظهر الخارجي للشخص، إن كان نظيفاً وسيماً أزيد السعر وإنْ كان كهيئتك لا أزيد له الثمن، فالثمن الذي بعتك به هو أبخس الأثمان.**

أيُّ جرح يخترقُ خاصرة العراق ويشجُ هامته، لماذا يسودُ الموت والقتل عوضاً عن الحب والثقافة؟ لماذا يهاجر الناس؟ يتركون كل ذكرياتهم الجميلة وماضيهم ليهربوا خارج البلاد، في كل قطعة من هذه الثريات الجميلة والشمعدانات حكاية وذكرى لا يمكن أن تنضب، ثم راح يتحدثُ لي عن الروايات التي تتوافر عنده غير مكترث لصديقه الذي يريد أن يغلق محله..

- **لديّ كل روايات عبد الرحمن منيف باستثناء الأخيرة (أم النذور)، هل أنت من عشاقه؟!، كذلك عندي روايات لكتاب عالميين كثر، كل ما تريده ستجده عندي، كتبي قديمة ولا يوجد جديد بها، فما صدر بعد الألفية الثانية لم أستطع اقتناءه بسبب ثمنه الباهض لجودة طباعته وفخامته، فما زالت الكتب التي اشتريتها من يعقوب بطرس أعيش عليها حتى اليوم، إنها مكتبة ضخمة لا تقدر بثمن.**

قالها وهو يحمل بين يديه صندوق كتبه ليخبئها في محل صديقه للكهربائيات، وأردُ عليه مكتفياً بالرواية محاولاً الفرار أنا الآخر قبل أن تبدأ الكلاب بالظهور وبنهش أرواح البشر.

- **لا ترهق نفسك.. فصديقكَ ما زال ممسكاً بعروة باب دكانه ينتظركَ، سأكتفي بقصة الحب هذه علّ ما فيها من كلمات تسعفني بل تستدرج صديقتي المختفية في بطون الحواسيب.**

(10)

أدس الكتيب الصغير في جيب بنطالي وأواصل المسير مجتازاً ساحة الميدان حتى أصل لمرآب باب المعظم ومنه أدفع ما تبقى من نقود في جيبي ليحلو لسائق الباص سلك طرق مختلفة باحثاً عن طريق لا تزدحم فيه المركبات ماراً بالأعظمية ليعبر بنا جسر الأئمة أو يستبدل الطريق بآخر عابراً جسر الصرافية لنبقى ساعات طويلة أمام زحام جامع براثا، وحين يصل إلى ساحة عدن يلتفتُ لنا بشواربه الكثّة قائلاً:

- **هذا حدي بعد ماكو طريق.. انزلوا..**

نترجل عن المركبة متخذين من أقدامنا وسيلة للوصول إلى منازلنا، أجتاز منطقة الشوصة بقدميّ المتعبتين وصولاً لساحة العروبة، ومن هناك أتخذ من أزقة الكاظمية الملتوية ومن شارع المفيد طريقاً لأعانق عتمة زقاقنا المظلم المغطى بالشناشيل القديمة، أذان المغرب يعانق الأفق، وصبية صغار ما زالوا يقضمون نهاية النهار بكرتهم البلاستيكية يلعبون بها بمرح كبير، ومن بعيد أرى أم فاضل وهي تودعُ آخر النساء القادمات لها، الباحثات عن حظوظهن المتعثرة، فالعنوسة أوشكت أن تطرق أبوابهن، وأخريات يعملن السحر، وأمهات يفككن السحر عن أبنائهن المتزوجين بزوجة حديثة تعتقد أن أهلها عملوا له عملاً لئلا يقترب من بنتهم الصغيرة ويفتض بكارتها بوحشية وهستيرية، فهم يعتقدون أنها تفك الزوج المعقود الذي لا يستطيع إتيان زوجته الصغيرة عند الخلو بها ويبقى حائراً من أين يبتدئ وماذا يفعل لها، عالمها عالم غريبٌ جداً ومعقد.

بهيئتها المتواضعة وشالها الأبيض الفضفاض ودشداشتها الزرقاء تقفُ مودعة آخر زبائنها مساءً، وهي تنظر لي وتضحك بعينيها الزرقاوين ووجهها الذي يزينه وشمٌ أخضر اللون على حاجبيها وأسفل ذقنها وأعلى شفتيها وخط منقط متقطع ينزل من صدغيها ليصل حتى منتصف أذنيها وتقول: أنا آخر من تبقى من السلالة العثمانية التي قدمت للعراق، ولجدي الفضل في بناء سوق الأستربادي في الكاظمية، بينما أبتسم ماطاً شفتي إلى الأعلى مرافقاً إياها بضحكة ساخرة ممزوجة بتعب النهار والعمل الشاق، وهي تنظر لي بعينٍ يتطاير منهما الشرر، قائلةً:

- **والكاظم أبو الجوادين أصولي عثمانية وجدي اسماعيل باشا أستاذ العلوم الدينية في الآستانة مركز الخلافة..**

أقهقه عالياً قائلاً:

- **بس لا تطلع جدتج السلطانة هيام..**

في حين يودعُ مؤذن الحضرة الكاظمية آخر ما تبقى من الآذان (لا إله إلا الله)...

- **روح صلي وأذكر الله، أوليدي ما يصير تضحك بهالمسية..**

وأعود لخجلي المفرط من كلماتها التي تحسسني في نهاية المطاف أنني مذنب لا محال.

- **حبيت أسألج خالة محتاجة بخور، زعفران، هندي، أصفهاني.. شي من الشورجة..**

- **أصلا ماكو شغل من فترة، الأوضاع مو زينه، قطعوا رزقنا الله لايوفقهم، والله يا ابن أختي أنا مرة وحيدة وما عندي أحد بهالدنيا، وأنا عايشه على هذي الشغلة، من دونها أموت وما عندي واحد يصرف عليه، والحكومة منشغلة بالكراسي والمناصب، والفقراء إلهم الله يا أوليدي..**

كانت تقولها بعد أن تأجج الدمع بمقلتيها، وسال على وجنتيها خيط رفيع من دموع شفافة لتمتزج مع وشمها الذي يزين وجهها، شعرتُ وقتها بحاجة للبكاء. كم مسكينة هذه المرأة الوحيدة التي تقبع بين أحضان الجدران الرطبة والنوافذ الخشبية المطلة على الزقاق الضيق، ورائحة العفن التي تنبعث من المياه الآسنة والمجاري الطافحة، لا أم أو أب ولا أخ أو أخت أو حتى أقرباء يطرقون بابها ولا فاضل الذي تكنى به سوى أنها تفضلت وتكرمت على الناس بسحرها الذي دوماً ما يحالفها الحظ به..

لا يعرف عنها أهل الزقاق شيئاً سوى أنها قدمت مع زوجها الحاج معلى صاحب أكبر مخزن للفحم في المدينة عندما ذهب ذات يوم للموصل لشراء الفحم تاركاً الصانع عطيه يصول ويجول لوحده في المخزن، لكنه ما عاد إلا بعد عشّرين يوماً ممسكاً بين يديه حسناء جميلة للغاية أبهرت بعينيها وبياض وجهها ورشاقتها سكان المنطقة وهي تتحدث بلهجة متكسرة متعسرة للعربية، فكل نساء الحي كنّ يمررْنَ عليها لرؤيتها عندما ذاع صيتها ونبأ قدومها، فمنهم من قال إن (معلى) اشتراها بحفنة فحم أسود، وآخر قال هي جارية قديمة توارثها بنو عثمان وجاءوا بأمها للعراق في أثناء الوجود العثماني فنمت وترعرعت هنا، وأقاويل أخر كانت الشغل الشاغل للجميع في تلك الفترة من زمان ولى وتغير مع الوقت، لكنها ما زالت تتشبثُ بأصولها العثمانية السحيقة فهم قدموا مع السلاطين والتيجان والجندرمة والعصملي ليصبحوا فيما بعد من سكنة العراق ويتأقلموا مع الناس والعادات والتقاليد ويدخلوا في مذاهب لم تكن يوماً من الأيام مذاهبهم بل تأقلموا مع البيئة المحيطة بهم والكثرة السكانية ليصبحوا فيما بعد من أتباع مذهب معين، إلا أنهم لم ينسوا أصولهم التي حكمتْ العراق وفق قواعد وأنظمة الاحتلال السائدة وحكم القوي على الضعيف.

- **شبيك ابني.. روح صلي وأذكر الله حتى أيرحمك ويكفيك شر بني آدم.**

كانت تقولها بعد أن اتشح الزقاق بالسواد سوى من نور أبيض خافت يخرج من غرفتها الداخلية التي تتخذ منها معبداً للعبادة ومصنعاً لترويج السحر والشعوذة وللحِيلِ التي تغري بها النسوة، فصيتها ذاع ليس فقط في المدينة فحسب بل تعدى كل هذا ليصل محافظات العراق كافة.

أتركها تغلق بابها وأرحل متجهاً صوب منزلي، أمي الأخرى هي من تنتظرني فهي تخشى على ولدها الوحيد من هفوات النهار والانفجارات التي تظهر تارة بيوم واحد لتمزق أغلب شوارع بغداد في وقت معين وباللحظة نفسها، وكأن الجميع متفقون على الموعدً، بل تارة يساورني الشك بكل ما

يحصل، الوقت المنتظم للانفجارات المتعددة بشوارع بغداد لا يستطيع أحد أن يجعلها منتظمة سوى رجالات الحكومة فقط.

تستقبلني أمي هاتفة بصوتها الملائكي: **(هلا بيك يمه)**، فلا أحد يؤنس وحشتها غيري، بعد رحيل إخوتي الثلاثة في الحرب العراقية الإيرانية وإعدام حسن آخر ما تبقى لي من إخوة، أما أنا فقد كنت صغيراً وقتها، عندما جاء المخبر ليلاً ليخبر أبي أن (حسن) بمديرية الأمن للتحقيق فقط ودام هذا التحقيق سنين ليوهمونا بأنه ما زال حياً يتنفسُ هواء الخوف، لكننا لم نكن ندرك أنه سِيقَ إلى مقبرة جماعية من مقابر العراق الذي كان يأكل أبناءه بكل شراهة ووقاحة، كان أبي ينتظر قدومه عند كل مساء، وكان لا يتوانى عن ذكره في كل صلاة يصليها بالحضرة الكاظمية متوسلاً به رابطاً خيطاً أخضرَ حول شباكه الفضي وبفطرته المعهودة **(يبو طلبه أريد حسن منك)**، لم تمهلهُ الجلطة الدماغية عمراً إضافياً ليرى نظام الحكم يتهاوى ويتساقط، لم يسعفهُ العمر أن يرى ابنه الذي استنزف من أجلِهِ كل الأدعية والدموع؛ جاء بكيسٍ أبيض صغير، غاب رسمه وانطمست معالم وجهه الجميل، عاد إلينا بعظام نخرها الزمان، مات أبيٍ حسرةً عليه وألماً وقهرا، لكني لا أشكّ قط أنهما التقيا هناك في السماء بعيداً ًعنا.

أمي تشمني شم عاشق ولهان، فبمجرد أن تراني تعود إليها روحها وهي تقول: **(ابني دير بالك على روحك)**، وما أن تُحضر عشائي حتى تتمدد لتغط بسباتها وتنام، وأبقى أنا حبيس حاسوبي والصفحة الشخصية لمن أحب وأهوى.

(11)

وجدت منشوراً بصفحتها قبل التوغل والتنقيب بجدران هذا العالم الافتراضي الأزرق..

رغم الجراح رغم الأسى

أكتبُ وأعبرُ جدران المدى

أحسستُ بجرحٍ عميق يتملك هذه الأنثى ومأساة كبيرة تعيشها لذا لن تجد أفضل من صفحتها لتُنَفِسَ عن نفسها وتكّتب وترتاح، وشعرتُ أن بداخلها أشياء كثيرة ربما ستفصحُ لي عنها إن توددتُ لها وتقربتُ منها.

ودونتُ خلف منشورها تعليقاً، بأقل من خمس دقائق من نشره..

- أهبُ السكاكين للجزارين

  علهم يمنحوني

  رقبتي

  بلا دم يراق

  كلما أٍقول لها أحبكِ

  تقول حاليا لا أحبكَ

سأفكر في الأمرِ

إن اجتزت الامتحان

تصمتُ لبرهةٍ، ثم تردف خلف تعليقي تعليقاً آخر باسمها:

- الجزارون كُثُر

والذباحون في كل مكان

ودمٌ بلا حسابٍ يراقُ في العراق

لا تخشَ فالحبُ يأتي

إن اجتزتَ أم لم تجتزِ الامتحان

كان تعليقها بالنسبة لي صادماً جداً ومفردة العراق تدلّل على أنها امرأة احتست كوب القهر والمرارة والحرمان منه، وهو الكوب الذي نشرب منه جميعاً والكأس الذي يحوي نخب هزائمنا بلا منافس أو منازع.

كنتُ أحب أن تبدأني الحديث لكنها لم تفعل وخفت منها الانصراف والرحيل فعمدتُ وعلى الفور إلى وصفتي السحرية واقتطعتُ من (قصة الحب المجوسية) عبارات جميلة كانت جزءاً من الخلطة التي أهداني إياها عادل أيام الكلية والجامعة عندما كان يروضُ بها حبيبتهُ هيلين..

وعلى الخاص بعثتُ لها سطراً غزلياً لعبد الرحمن منيف ووضعتُ قليلاً مما أملكه من مشاعر فوق كلماته لأغوص بعالم آخر.. وأردفُ بعد عبارة منيف ما تيسر لي من حرفٍ.. قائلاً:

- **كنتِ كراهبةٍ حسناء ممشوقة الجسد بيضاء كقطعة ثلج، جاءت للدير تتعبد ذات يوم، وأنا كراهبٍ يباركُ لكِ على مذبح الصلاة ولوجكِ بعالم الطهرِ، لم يكن بياض ملابسكِ بأنصع من وجهكِ..**

الله.. لو لم تكوني راهبةً لكنتِ ملكاً لي أفتش بين نهديك عن صليب مستباح، أو أشرب من شفتيكِ نبيذاً أحمرَ كدم سال من جسد المسيح وهو معلقٌ على جذع نخلة هزته مريم العذراء بيدها وهي تلفظ من رحمها نوراً وشمساً لا تغيب، أناملكِ الرقيقة البيضاء كأطراف خبز مجفف تُقدم للمتضرعين والمصلين؛ كقربان للإله، أظفاركِ الماسية هي القطع الدائرية الصغيرة التي ألقمها أفواه المحبين، وأصرخُ أمام الجمعِ وأنتِ بهيئتكِ التي خلقك الله عليها وهذا الخمرُ المندلقُ من بين شفتيك على صدركِ ونهدكِ وأنت تلفين قطعةً بيضاء شفافة أسفل سرتكِ لتستري عورتكِ، تمتلئ القطعة البيضاء بالنبيذ لتتحول إلى دمٍ أحمر قاتم، يا لكِ من نقيةٍ طاهرةٍ صافيةٍ، أنتِ رمزٌ للحبِ والتسامحِ والصومِ والصلاة.

أيعقل أن يتلهف إنسانٌ ذات يومٍ لامرأة وينتظرها، وهو يملك في قلبهِ لهفةً لا يملكها إلا المحب الولهان..

كل هذه الكلمات انتقلتُ بها إلى الدردشة الخاصة لأفتتح معها حديث المساء... فبعثتْ لي وهي تقرأ عباراتي التي أرسلتها لها..

- **مساؤكَ ورد ومحبة، كنتُ سابقاً أتصوركَ السياب لكني اليوم اكتشفتُ بأنك غير هذا، أنتَ تذكرني برواية فرنسية شهيرة كُتِبتْ على شكلِ رسائلَ من حبيبةٍ إلى حبيبها مجهولة الكاتب تحت اسم مستعار (بولين رياج)، حرفكَ ووصفكَ مدهشٌ حد اللذة، كنتُ أنتشي وأنا أقرأ ما بعثته لي.**

- **أنا السياب! لا بل هذا كثيرٌ عليّ، والأكثر من هذا أن أكون روائياً وشهيراً وأنافس الفرنسيين في صناعة أحداثٍ مشوقة تلهب حماس القراء، هذا جزءٌ من حلم مستعصٍ تماماً، لا أتصور أن أكون يوماً كفكتور هيجو وأمسك بيدي قلماً وأعطي ملابسي لخادمي لأكون عارياً تماماً، لئلا أفارق لذة الكتابة وأغمض عيني وأكتبُ بلا كللٍ أو مللٍ، لا.. لا.. هذا غريبٌ لدرجةٍ لا تطاق بتاتاً، وأما حروفي التي ألقيتها بدلوٍ ورميتها ببحر رسائلكِ، ما هي إلا مشاعر تخرجُ مني من حيث لا أشعر.**
- **بل ما زالت كلمات السياب ترنّ بأذني، وأنا كلّما أمر على رسائلك القصيرة أشعر بنشوة تسري إلى قلبي لأنها تذكرني بأهلي.**
- **إذن أنتِ من العراق؟**
- **نعم.**
- **أنا أيضاً من نفس الألم.**
- **نعم هو الألم بعينه.**
- **الصورُ التي رأيتها لا تدلّل على أنكِ تعيشين بالعراق، ربما بعالمٍ آخر، بعيدٍ جداً عن رقعة أصابها الله بالويل والثبور، وما لمسته من شجن الحديث الذي تلفظتِ به إلا نتاج للقهر والألم اللذين يتملكانكِ.**
- **نعم، كنتُ بالرقعة نفسها التي تعيشها أنت، لكن لم يشأ القدر، بقدر ما شاءت الغربان السود أن تقلع جذورنا وترحلنا عن أعز بقعة كُنا لا نفارقها أبداً.**
- **أين تعيشين الآن!!**
- **في مدينة ليون بفرنسا.**
- **منذ متى؟**
- **بعد مأساة 31 تشرين الأول من عام 2010.**
- **دعيني أتذكر جيداً فالمآسي كثيرة التي مرت على العراق والعراقيين، تفجيرات، قتل، دمار، خراب، أشياء كثيرة تدور بمخيلتي وتحيلها إلى سوادٍ معتم.**

ورحتُ أستعيد ذاكرتي محاولاً التعرف على مأساة هذا التاريخ أتذكر أشياءَ كثيرة جداً، نعم أتذكر شخصاً كان قادماً من المحافظات الجنوبية، التعب بادٍ على محياه، وقد اقتاتت الشمسُ على وجهه لتحيله إلى قطعة سوداء، وهو يسير بخوفٍ وحذر شديدين، كان هذا قبيل المساء بساعات، ارتطم بي كأنه لم يرَني، وحين طلب مني العفو، توجه لي سائلاً عن الطب العدلي، كان فضولي كبيراً بمعرفة الإجابة على سؤاله، فقال: لي ثلاثة إخوة يعملون ببغداد إلا أنهم وقعوا بقبضة مجموعة من رجال لا نعرف عنهم أي شيء، اتصلوا بنا، أبلغونا عن دفع عشرة آلاف دولار كفديةٍ لكل واحد منهم، أبي حين سمع بهذا ارتفع السكري لديه وأصابه الشلل ليتوقف عن الحركة تماماً، وأمي العجوز المسكينة مزقت ثيابها ولطمت وجهها وانتحبتْ باكيةً مولولةً، حاولنا الاتصال بأرقامهم بعد هذا لكن ما استطعنا، باتت هواتفهم مغلقة، ومنذ مدة فتشنا كثيراً لكن من دون جدوى وأبلغنا أحد الأصدقاء بالبحث عنهم بهذه الثلاجات التي تتكدس بها أرواح الفقراء حصراً دون غيرهم، طمعاً بالحصول على جثثهم إن قضوا حتفهم على يد هؤلاء القتلة الذين يجوبون الشوارع كلها.. كان يقولها بمرارة وألم والعَبْرَةُ تكادُ تخنقه كطفلٍ يهدلُ شفتيه وتبدأ مراسيم البكاء لتفيض مدامعه سائلةً على خديه، كانت الثلاجات تمتلئ بجثث مجهولة الهوية، بلا هوايات أو رؤوس، وتبقى الفائضة منها في ساحة

المستشفى لتنقل فيما بعد إلى قبورٍ دونت لمجهولين تنقصهم أعضاؤهم، وقبور أخرى تضم رفات أكثر من شخص لأنها نتاج تجميع أعضاء متناثرة على الإسفلت الحار لتوضع بقبر واحد ينسب إلى مجهول، يا ربي أما آن الأوان لتصرخ هذه الأشلاء المتناثرة طالبةً الخلاص من هذا الجحيم القاتل..
وأردفتُ لها قائلاً:

- **الجرح كبير والأسى أكبر، فنحن في كل يوم نتألم.**
- **أوووف.. يا صديقي كم من قيامةٍ مرت على العراق وأتعبته، لا بل في التاريخ المذكور ثمة مأساة كبرى مرت على العراق ويشهد لها التاريخ.. حاول أن تتذكر.**

حاولتُ أن أستعيد ذاكرتي الموجوعة وهي تتأوه بحزنٍ شجي وتذكرتُ ثمة انتحارياً، كان يلف خصره بحزام ناسف، وهو يقتربُ من مجموعة من الناس ليفجر نفسه بوسطهم، كان هذا صبيحة يوم من أيام 2010، وحين أدركتْ أنني بعيدٌ عما تقصده حاولت أن تقرب الحدث، قائلةً:

- **بل هناك حدث آخر، مأساة اختصت بالمسيح!!**
- **وكأنك تريدين أن تقولي المأساة للمسيح حصراً، أليس كذلك؟؟**
- **نعم كذلك.**
- **في عام 2010 حدثت مأساة كبرى بإحدى الكنائس في الكرادة، لا أتذكر اسمها تماماً، بل هي على طرف لساني، نعم إنها مأساة تضاف إلى سلسلة المآسي الممتدة على طول العراق، لكن ما دخلكِ أنت بهذه المأساة!!**
- **أنا امرأة مسيحية ساقها جنون الأيام وأرغمتها الليالي السوداء وغراب ينعق كان يحط ذاك المساء على الصليب المعلق فوق الكنيسة، في مجزرة سيدة النجاة، الكنيسة القابعة في أحضان الكرادة ببغداد، كان هذا بمساء يوم 31 تشرين الأول من عام 2010.**

لم ينجُ من هذا الوجع أي فرد عراقي هم يريدون أن يحولوه إلى رماد وتراب، لا يفرقون بين الأديان كلّها، تباً وتعساً لهم.. ثم تواصلتْ بحديثها وهي تقصُّ عليّ مجزرة سيدة النجاة، قائلةً:

- **كان الجو هادئاً جداً، مثل كل مساء ندعو فيه للصلاة والتضرع إلى الله، كانت بغداد لا تصحو إلا على صوت انفجارات أو جثث تختبئ بين الأزقة تخجل أن يراها المارة وهي موشومة برصاصة صغيرة أعلى الجبهة أو أخرى تخترق الجهة اليسرى منِ الصدر لتستقر في القلب، أو تصحو على صوت سيارة ملغومة تنفجر أسفل البناية مهشمةً وجهها لتسقط ومن فيها بعد أن كان يلوذ بها الآمنون من الناس، كانت أجراس الكنائس تلتزم الصمت والجميعُ يهرع صوب سيدة النجاة، كان أبي يرقص على أنغام القداس، وكانت أمي ترتل بصلاتها، ترنو بعينيها تطلب من العذراء النجاة، الجميع يجتمع تحت سقف الرحمة، والكل يستمعُ لسيمفونية سماوية يرتلها ويرددها أبونا القس، الكل يردد خلفه، كان الصدى يداعب أجراس الكنائس بخجلٍ، يلفُ المكان ويعود مرة أخرى يداعب مسامع الحضور، حمامات بيضاء تجلس على حافة النوافذ المطلة على الإيوان الخارجي تتطلع بعينيها الصغيرتين صوب الجمع الكثيف الذي يستمع لصوت القس بهيبة ووقار، حمامةٌ أخرى تداعبها إحداهن، وأخرى ترفرف بأجنحتها، وأخريات يحلقن في الصحن الخارجي، شعاعُ الشمس يخترق النوافذ العليا، يميل تدريجياً نحو الانزواء والأفول.**

كنتُ أقرأ وقلبي يعتصر وجعاً، بينما ثمة مغص شديد أمسك بخاصرتي واقشعر جلدي وأنا أرى هذه الصور في مخيلتي التي تنكمش لها الروح ألماً، وهي تردفُ بهذه السوداوية الكبيرة للتواصل مع حديثها:

- **الليل يقترب مع اقتراب القدر، وقتها أطلقت تساؤلات عدة، هل كان قدراً محتوماً علينا؟، أو قدراً حاكه رعاة التخلف والجاهلية؟، لم أدرك حجم التساؤلات التي ألقيتها على عاتقي، لماذا كل هذه الفوضوية والعشوائية في الفهم؟، من سيفسر لي كل هذا... لا أعلم، سمعتُ عويلاً وصراخاً ورصاصاً يملأ المكان ويقتل أرواحاً جميلة يحيلها إلى جثث خاوية تكتظ هنا، تنتظر لحظة صلاة وغفران بينها وبين الله، أبونا القس الذي كان طريقنا نحو الله وأجتمع لأجلنا؛ صُلِبَ على الخشبة ذاتها التي صُلِبَ عليها المسيح، تمتزجُ دماؤه بدماء المسيح، يعتلي صوت الفجيعة، وتهرب الحمامات البيضاء تودع المكان عنوة، تحاول الهروب من عُتاةٍ لا يفقهون من جمال الحياة شيئاً.**

هل يدرك الله حجم المأساة؟ ويقبل ذبح أبنائه؟!

هم يسحقون بأقدامهم الجثث الهامدة التي لا تحرك ساكناً؟

أما ما تبقى من الصغيرات الجميلات وكن يرددن خلف أبينا؛ ألقوا عليهن قنابل عمياء صهرتهن جميعاً تحت حرارتها اللاهبة التي تسلبُ الأرواح سِرَّ نضارتها وجمالها، الخراب والدمار يعم المكان يحيله إلى لُهُبٍ صاعدة وكومة أحجار وبقايا دخان ورائحة جثث ودماء تَصْبَغُ جدران الكنيسة.

أحياناً أتساءل لماذا نحن دون الجميع، يسعون بكل جهدٍ إلى قتلنا، وبعد أن كان المساءُ جميلاً حولته ماريا إلى فضاء موحش وهي تنقل مأساتها ووجعها في هذه الكنيسة المنكوبة بالقهر، لتكمل:

- **كنتُ أنا مع أمي وأبي، هو حلَّق بأجنحةٍ ملائكيةٍ صوب السماء.. العذراء تذرفُ ما تبقى من دموعها، ترفع يديها إلى الله تطلب الرحمة والعفو والمغفرة، رأيت أبانا القس يحلقُ بأجنحةٍ شتى يطير كحمامة بيضاء، يرفرف بأجنحتهِ الملونة صوب السماء، كان يداعب الأرواح الصاعدة معه تارة، وتارة أخرى يصعدون على أجنحته الجميلة فرحين مهللين، بكل تأكيد هم ينتظرون الصلاة وقرع أجراس الكنائس بعالم سماوي بعيد لا وجود فيه للأرواح الشريرة، لا قتل، لا دمار، لا خراب، لا شيء من هذا القبيل قط، بل بعالم تسوده الرحمة والرأفة والعدل والأمن والأمان.**

أمي أصيبتْ بجروح بليغة فقدتْ على أثرها إحدى ساقيها وما تبقى من جسدها فقد تشوه بحروق وجروح بليِّغة، وأما أنا فقد فقدتُ الخنصر والبنصر من يدي اليسرى، وثمة تشوه آخر جعلني أعزل نفسي.. وأبي مزقته الشظايا ليتحول إلى جثة لا تحرك ساكناً، حولتهُ إلى روحٍ تسكنُ السماء تشكو إلى الرب ظلم الإنسان ..

- **آآآآه.. يا ربي كم هي من مأساة قاتلة، أعتذر منكِ يا صديقتي، على ما يبدو أنني حركتُ فيكِ جرحاً بليغاً وذكرى سوداء لا تمحى أبداً..** قلتها وأنا أشعر بالضيق يملأ صدري.

- **لا تهتم فخلف كلّ عراقي مأساة وقصة تبدأ ولا تنتهي أبداً، فحين نولدُ تولدُ معنا الحكايات، ونصبح أبطالاً لروايات، فخلف كل واحدٍ منا مشروع لراويةٍ جاهزةٍ للكتابة، هكذا نحن مذ سقطنا من رحم أمهاتنا كُتِبَ علينا الشقاء، نحن لسنا جزءاً من رواية (البؤساء) لكن (البؤساء) جزءٌ من روايتنا التي بدأت في العراق ولا نعلم بأي البلدان ستنتهي بنا، إنهم يستأصلون جدائل بغداد، ويلوثون أحمرِ شفاهها، ويذرون الرماد بخضرة عينيها، ويسرقون الكُحلَ من جفنيها، إنَهم يحفرون أخدوداً لها على وجنتيها من دمعٍ ودم.**

كان الوقتُ يمرّ كالبرق وأنا أقرأ ما تكتبه لي، وهي تزج بحروفها الرمادية في بطن حاسوبي، ففي بداية حديثها كانتْ قمة الرومانسية والمرح وكنتُ أنتشي وأنا أبادلها الحديث إلا أنه تشظى واتخذ

منحى آخر، وحاولتُ أن أغير مسار كلامنا، فبادرتها وعلى الفور لأقتطع الحديث قائلاً:

- **أتعرفين يا صديقتي أننا لم نتعرف ببعضنا وسرقنا الحديث عنوة؟، أنا اسمي كما موجود في صفحتي، أسعد الكاظمي، أسكن الكاظمية، تخرجتُ من قسم الفلسفة منذ عام 2007، لكني لم أجد وظيفةً تتناسب مع شهادتي الدراسية، فهذا القسم لا توجد له وظائف في دوائر الدولة إلا ما ندر، وعليه لم أفلح بأي عمل غير أن أعمل حمالاً في سوق الشورجة الكبير، وتأقلمت مع السوق وأصبحَ لدي معارف وأصدقاء وصار شغلي الشاغل ورزقي اليومي الذي لا يمكن الاستغناء عنه.**

- **أنا ماريا كوركيس يوحنا من الكرادة، تخرجتُ عام 2009 من كلية التربية للبنات في الجادرية، فقد كانتْ لي ذكريات حلوة هناك، كنتُ أمر صباحاً بالأزقة المنسابة الملتوية المتشحة بالهدوء، وهي تعانق خيوط الشمس الصباحية، وثمة صوتٌ لفيروز يخرج من مذياع قديم لنجارٍ يُعيد ترتيب الكراسي القديمة والأرائك الممزقة، وصوتٌ آخر لقرآن يرتل لبائع الفواكه الذي يتخذ من طاولة حديدية مكاناً لعرض فواكهه وهو يلمع تفاحهُ الأحمر، وصوتٌ مزعج لبائع الغاز وهو يملأ المكانَ بضجيج مزمار عربته التي تتنقل ما بينَ الأزقة، أصِلُ حيث (بانزين خانة أبو أقلام) عابرةً إلى الجهة الأخرى من الشارع لأستقلَ الحافلة الذاهبة إلى أعماق الكرادة لتسير بشوارعها الصباحية الهادئة، وهي تستقبل الراكبين وتودع النازلين منها، نصل إلى فندق بابل ومن هناك نمرُ عرضاً للوصول إلى منطقة (كرادة خارج) نجتاز السفارة اليونانية وهي تغلق أبوابها بكتلها الكونكريتية المسلحة، ومسلحين يرقبون الطريق خوفاً من أيّ انتهاك أمني لها، وعند الإشارة الضوئية يقف صاحب الحافلة ليودع الركاب بجمعهم وأتوكأ على قدمي سائرةً إلى جامعتي.**

حين نتذكر ذكرياتنا القديمة نشعر برغبة كبيرة للبكاء، لأيام جميلة نستذكرها، فنحن شعب يفتخر بماضيه أكثر من حاضره، فلنا ماضٍ لم تصل له شعوب العالم كلها، لكن الذكريات وحدها لا تكفي؛ لأنها أصبحتْ جزءاً من التاريخ، أصبحنا بلا مستقبل فقد حكمتنا ثلة تتصارع على منابع الأموال، لا يهم إن احترق العراق برمته، المهم لديهم أن تمتلئ جيوبهم بأموال الفقراء والشعب المحروم، وأضافتْ في حديثها:

- **انتهى كل شيء وأصبحتْ مجرد ذكريات ليس إلا، لا أظن أنها ستعود ذات يوم، لا حلم بالعودة بعد الآن، أتعلم أني كنتُ حاضرةً في يوم شتائي ممطر بسوق الشورجة، مررتُ فيها على كنيسة مريم العذراء - كنيسة اللاتين- وهي تلوذ بصمتها أمام الباعة والمتسوقين، أسيرُ مع المارة وأنا أمرُّ بالقرب منها بينما تتعالى أصوات السالكين من الناس، توقفتُ طويلاً، وأغمضتُ عينيّ ومارستُ الصلاة روحياً من غير أن يعلم المارة بذلك، تمنيتُ وقتها أن أزور قبر الأب انستانس الكرملي، ومن طريف المصادفة أن هذه الكنيسة تقابل جامع الخلفاء أيضاً فهو لا يبعد عنها أكثر من عشرين متراً.... هل رأيت كيف يعيش العراق سابقاً بلا طوائف أو فرق ومذاهب، كانت قلوبهم تنبض بحبّ العراق، لا يفرقون بين هذا وذاك، لأنهم تعمدوا واغتسلوا بماء دجلة والفرات...**

أراكَ توقفتَ عن الحديث؟!!

أسعد، أسعد...

(وين رحت)؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

لم أكن أدرك أن الكهرباء اللعينة ستقتصُ مني وتقطع عليّ الحديث، ومرَّ ما تبقى من الليل موحشاً

جداً، انتظرتُ طويلاً علّ وعسى أن تأتي ليعمل الإنترنت لكن من دون جدوى، وانتصف الليل وباتَ الوقت يأكل نفسه ساعة بعد أخرى وأوشك الصباح على الدنوّ والاقتراب، وصعدتُ سطح الدار قبل أن يفتتحَ المؤذن تراتيلهُ الصباحية، وقبل أن ينعق غراب أم محمد – ديكها- الذي يغرقُ المحلة وزقاقها الضيق بصياحه، وقتها يكون الجو هادئاً جداً سوى من صوته الذي يرتطم بالجدران الخاوية ويعود مرة أخرى، فحين أغفو يأخذني التعب بعيداً، وأستسلم للنوم وأصحو عند السادسة صباحاً على منبّه هاتفي الذي يضجر منّي وأنا لم أنتبه له مطلقاً إلا بعد أن يصمت بنصف ساعة.

(12)

كالعادة لا شيء يأوي صباحاتي سوى سوق الشورجة الذي يفتح ذراعيه لطالبي الرزق، فمنذ الصباح الباكر يزدحم بالناس والمتسوقين من جهات شتى، فالجميع يأتونه من مداخل كثيرة، منهم من يأتي من سوق الغزل المزدحم بالحيوانات الغريبة والطيور الملونة بمختلف أنواعها والسلاحف والحمام وأسماك الزينة والأفاعي، وآخر يتزاحم مع الناس بعگد النصارى وهو يمرُّ عبر السلع الكهربائية التي تتخذ من الرصيف معرضاً لها، وآخر يأتي قادماً من الصدرية ماراً بشارع الرشيد وهو يلوذ بظل الشناشيل المطلة عليه، ومنهم من يتخذ من شارع النهر ممراً له وهو يشمّ رائحة الجلود المدبوغة والمصبوغة بالسواد، وآخر يأتي عابراً على جسر الشهداء معانقاً عيون المها بين الرصافة والكرخ ليدخل عن طريق ساحة حافظ القاضي، وآخر من سوق الصفافير، فكل الطرق والممرات الضيقة تؤدي لهذا السوق الذي يزدحم بالمارة والمتسوقين، وأما أنا فطريقي يبدأ من ساحة الميدان وصولاً إلى السوق، وما أن أصل حتى أرى الناس مجتمعين بالقرب من بائع الأواني البلاستيكية وهو يعرض بضاعته المتنوعة بعد أن يتفق معهم على البضاعة القادمة له من مدينة أربيل المستوردة من إيران ونبقى ننتظر الشاحنة لتفريغ حمولتها؛ إلا أن السيطرات العسكرية تمنع دخول الشاحنات الكبرى إلى الأماكن الضيقة إلا عند بداية الصباح أو بعد الرابعة عصراً بسبب الزحام الشديد الذي تشهده بغداد، ثمة أيام تختلف عن أيام أخر، فحيناً تشعر بها بالأمان وأخرى تراها تنهار وكأننا بلا دولة ولا حماية، أيام تشعر أن العراق يحترق، سحابات دخان ترتفع في يوم ما، في أماكن شتى، انفجارات منظمة في كل مكان، سحابةُ دخان تعتلي فوق الشورجة والفاعل تماس كهربائي، أو انفجار في سوق العطور ليتبين فيما بعد أن الفاعل مجهول، سادة الدمار يجوبون العراق في كل مكان، وسُحُبٌ أخرى تعتلي شارع السعدون ومناطق السيدية والدورة والبياع ومدينة الصدر، أيّ إرهاب منظم إلى هذا الحدّ الذي يجعل كل بغداد تحترق باللحظة والدقيقة نفسها، وكأنها تعلن عن ساعة الصفر وإعلان ساعة الخراب.

كان سامي يتذمر من العمل والانقطاعات المستمرة للرزق اليومي في السوق، لكنه أفصح عن عمل مقدم له بنادٍ ليلي كان يرتادهُ لشرب قناني البيرة الرخيصة مع مجموعة من أبناء منطقتهِ، فقد انخرط بهذا منذ أن كان طالباً صغيراً في إحدى المدارس الثانوية ليرى طلبة الصف الإعدادي وهم يدخنون بأماكن منزوية في المدرسة، خوفاً من معاقبة أساتذتهم، فكان يرممُ بفمهِ ما يرمونه من أعقاب السكائر

على الأرض وهي تعانق الأفق بدخانها المنساب وجمرتها الحمراء الملتهبة لتستقر بين سبابته والوسطى، يستنشق رائحتها إلا أن دخانها يحرق عينيه فيغمضهما لوهلة ثم يفتحهما بعد أن يضعها بفمه مستنشقاً نفساً عميقاً لتتغلغل إلى صدره، يشعر بخدر ينساب إلى جسده الصغير ودوار وصداع ولذة تتملكه بعد هذا ويشعر بحاجة إلى النوم، يسأله أستاذ الكيمياء عن سبب الشحوب الذي يعتلي وجهه، فيجيبه على الفور أني مريض يا أستاذ، وحين يصل إلى بيته ينام نوماً عميقاً جداً، وعندما يصحو يشعر برغبة لاستنشاقها، كان هذا بداية انخراطه معلناً استهتاره ودخوله في عالم الضياع، كان يشرب أكثر من قنينة بيرة رخيصة المنشأ وهو يدخل إحدى الحانات التي كُتِبَ على باب دخولها (منتدى الصحفيين والمثقفين)، كان هذا العنوان للإيهام بأن المكان خاص لرواد الثقافة وأصحاب الأقلام الحرة خوفاً وتحسباً من عناصر مسلحة تحارب مظاهر الفساد وترفع شعار "رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه"، لكن الداخل إليه يلمسُ غير هذا، ثمة فتيات بملابس مغرية جداً يوزعن الطلبات على الطاولات وهن يرتدين الجينز وقمصان ضيقة مفتوحة الأزرار من الأعلى لتكشف عن ظلٍ ضرير يقسم صدرها إلى قسمين، وشعرٍ منثور وأخريات ببنطلونات مقصوصة من الأسفل لتكشف عن ساقيها العاريتين وهنّ يستقطبنَ الذكور بوجودهنّ في هذا النادي.

الطابق الأعلى للفقراء وهو يرتفعُ قليلاً عن البوابة الداخلية، وثمة سرداب أسفل البناء لا يدخله إلا أصحاب الجيوب الممتلئة فيه مراقص ومغنون وأموال تسرق من قوتِ الشعب لتنثر على أجساد المومسات العاريات اللائي يحركْنَ مفاتنهنّ مداعبات بذلك شهوات الرجال ورغباتهم وغرائزهم الحيوانية وما أن تلامس بمؤخرتها كتف مسؤول في الدولة أو مدير عام أو عامل مرتشٍ في هيئة الضرائب حتى ينقض عليها من غير أن يعلم وهو في حالة سكر شديد ليزرع قبلاته على وجهها وشفتيها، في السرداب الكبير أيضاً غرف أخرى للكبار حصراً، لأصحاب الجيوب الفارهة، لا يقربها الضعفاء والذين لا يملكون أموالاً بحجم السماء، كان يراقب كل هذا وهنّ ينزلن من السلم الجانبي بأشكال أنثوية براقة جداً تسرّ الناظرين، أمّا الكبار من المتسيدين في الدولة فلهم بابٌ خاص لا يعرفه إلا هم وحدهم وأصحاب النادي فقط، كان سامي يتحدثُ متذمراً يائساً من هذا السوق الذي لم يجنِ منه حتى سعر زجاجات البيرة الرخيصة التي يشربها، كاشفاً عن العرض المقدم له من أصحاب النادي كونه الزائر الأقدم الذي يرتاد المكان، وقتها أصبحَ على قناعةٍ تامة بالعمل بعد أن عُرِضَ عليه عمل يعتبرهُ أنيقاً وسط أجساد المومسات ورائحة العرق والويسكي الذي لم يذقه طوال حياته باستثناء زجاجات البيرة، العمل الجديد سيقربهُ زلفى من الأجساد الممتلئة بالنشوة وسيغرقُ وقتها باللذة والشبق المباح للعمال حصراً قبل امتلاء الصالات والقاعات بالزبائن الهاربين من مرارة الوضع المأساوي الذي يحيط بهم في بلد الجحيم.

كان محمود لا يكفّ عن ثرثرته المعتادة متحدثاً مع سمير، بينما علاء كان لا يملّ من المزاح وإطلاق نكاته الفضفاضة التي تغرقُ الجميع بالضحك، ومن لم تعجبه النكتة يضحك على تقاسيم وجهه القرقوزية؛ فهو يملكُ وجهاً أشبه بوجه المهرج الملون الذي يُضحِكُ الناس بتصرفاته الغريبة.

ينصرف الجميع بعد ذلك باحثاً عن أجورٍ بسيطة يحصلون عليها من ترتيب واجهات المحال أو نقل بعض الأغراض إلى المخازن، أو أي أعمال استثنائية بسيطة تدر عليهم قوتهم اليومي البسيط، يشترطُ عليّ الحاج أبو عزيز أن أنقل عربة الرمل المتكدسة بعيداً في الشارع إلى عمق الزقاق حيث مخزنه المنزوي مع المخازن المعتمة الرطبة والذي لا تصل إليه العربات الجرارة أو تلك التي تجرها البغال بسبب ضيق الزقاق، وأكمل يومي أنقل الرمل لعمال البناء الذين يرممون الجدران المتآكلة التي بناها العثمانيون، فتملكها اليهود ثم اغتنمها الآخرون بعد هجرتهم لإسرائيل، ويتعبني الطريق الطويل وأنا حامل على كتفي أكوام الرمل لإيصالها حيث المخزن المنزوي، يشترطُ عليّ مبلغ عشرين ألف دينار وأشترط أنا المزيد، لكنه لا يوافق، وأستسلم في النهاية لشرطه لئلا يفوتني رزقي مؤمناً بقولِ

من قال عصفورٌ في اليد خير من عشرة على الشجرة، أنجز عملي قبل انتصاف النهار وأمسح عن ملابسي ذرات الرمل المنتشرة على ظهري، بينما يختفي أصدقائي في دهاليز الشورجة الكبيرة باحثين عن مصادر رزقهم، وبعد أن أطمئن لما حصلتُ عليه من مبلغ يكفي لقوت يومي، أذهب وأستأنس برؤية العمّ عباس شاه وأتحدث معه:

- **اشتقتُ لك أيها العم.**
- **وأنا أيضاً أبادلك الاشتياق، كيف حالك؟**
- **بخير وصحة وعافية، إلا أن الرزق هذه الأيام شحيحٌ جداً..**
- **الرزق من عند الله، لا تبتئس، وقل الحمدُ لله على كل شيء، وما يأتيك به من رزقٍ حلال قليل، خيرٌ من رزقٍ حرام كثير.**
- **ونعم بالله.**

كان أذان الظهر يرتفعُ في السماء فوق المآذن التي تخشى من مصليها، فثمة أشخاص يدخلون متنكرين بلباس الله لكنهم لا يلبثون طويلاً حتى يدخلوا بين ربوع المصلين، وما أن يكبر الإمام مفتتحاً الصلاة بتكبيرة الإحرام، ويتواصل بقراءتهِ لسورة الفاتحة، حتى يعلن المنتحر مكبراً بأعلى صوته، منادياً لله، كاشفاً عن مشروعه الجهادي، ليتشظّى بين صفوف المصلين قاتلاً بذلك الإمام وكلّ من خلفه، فكرٌ غريب جاء من خلف الأسوار لهتك حرمة هذا الوطن.

يستأذنني العم عباس شاه ذاهباً للصلاة في مقام الإمام حسين بن روح القريب من دكانه الصغير، المختفي خلف المحال الكثيفة التي تبيع العطارة ولا يبقى منه سوى بابه الصغير المصبوغ باللون الأخضر، عليه قبّة صغيرة تتيه بالزحام الكبير للعمارات الضخمة التي تطوقه من كل جانب، وفوق دكّة قبره شبّاك مُجلَّل يضاء بأضواء خضراء يتوافد عليه الزائرون المتعبّدون المتوسلون والطالبون للعفو واللطف والغفران الإلهي، يُتمُّ العمّ صلاته بالجامع ويأتي يسير ببطء شديد على ساقيه النحيلتين النحيفتين، وأنشغل أنا ببيع بعض سلال الخوص والأطباق على أناس مهتمين بالتراث القديم، فالعم عباس شاه الوحيد الذي يبيع هذه الأشياء البسيطة التي يحسبها أهل التراث ذا شأن كبير، وعلى رفوفٍ خشبية بالية ثمة تحف طينية قديمة جداً وثلاث فخاريات بأحجام متنوعة، بادرتهُ ضاحكاً قائلاً: لماذا تحتفظ بهذه التحف والفخاريات القديمة والسوق يمتلئ بأشياء حديثة جديدة تذهل الناظرين؟ تبسم وقال:

- **لأنك لا تعرف من أية الأماكن هذه..**

قهقهتُ عالياً وقلتُ:

- **لا تقل لي بأن الملك حمورابي كان يشرب بها.**

وتغيرتْ ملامحهُ كلها، ثم قال:

- **لا تعرف كم تساوي هذه الأشياء، إنّها تعادل سوق الشورجة بمن فيها!!**

وانتابني الفضول في ذلك وسألته مستغرباً، ليردف وهو يلملم أطباقه المصنوعة من سعف النخيل الملونة بألوان زاهية:

- **لا تستعجل، ستفهم كل شيء فيما بعد، الآن الوقت يمر سريعاً علينا أن نغادر السوق، ونذهب لنرتاح ونتمدد في منازلنا.**

(13)

في كل يوم نسلك طرقاً جديدة أثناء عودتنا، الشوارع تقطعُ على حين غرة والسائق الذي يمر من شارع يعود بعد ساعات ليراهُ قد قطع، فيبحث عن شارع آخر للوصول إلى المنطقة المحددة للركاب، ومن هناك نستقل الطرقات سائرين على أقدامنا للوصول أخيراً لمنازلنا، حين أصل أتعطش للمساء، ففي المساء أقضي ساعات من المتعة وأنا أناغي صديقتي ماريا، وأهمس لها حباً وعشقا، ليتها تعلم كم أحبها، فحبها بات يقتات على حطام قلبي، ليتني أقوى على مصارحتها، آهٍ يا ربي.. أي حبيبة تلك التي تختفي خلف أزرار الحواسيب، كنتُ أتمنى أن أراها ذات يوم خلف زجاج نافذتها وهي تنظر لي وأنا أعبر الشارع المجاور لمنزلها، أو كنت أتمنى أن أراها واقفةً بباب بيتها وهي تنظر للمارة ترقبني وأنا أمر عابثاً بزقاقها، أو كنت أتمنى أن تراني أرافقها المسير وهي تخرج ذاهبة لمكان عملها أو لنزهة بحديقة الزوراء أو المدينة السياحية وأنا أسير خلفها أتتبع أثرها وفي لحظة اختفاء عن هذا العالم أشبك أصابعها الخمسة بأصابعي، إنّني أحلم، نعم سيقتلني هذا الحلم ذات يومٍ.

قبل المساء أغوص بعوالم عبد الرحمن منيف وأنا أبحث بين سطوره عن مقطوعة تقربني من قلب ماريا، كنتُ أحاول فقط أن أستبدل اسم (ميرا) أو (باولا) في روايته بماريا لكني لم أستطع لسبب واحد فمنيف اتخذ من جسديهما ملاذاً للتلذذ بهما وهذا ما يجعل ماريا حتماً تنفر مني وبخاصة أني جديد العهد بها ولا أعرف عنها أي شيء، حتى (رادميلا) هي الأخرى تخرق القواعد كلها وتعطي شفتيها (لأيفان) ويبقى منيف يتذمر وهو ممسك بمسارات السرد بنشوة الأجساد، أتغاضى عن كل هذا وأبحث عن أشياء أخرى علها تفك اختناقي وتمهد لي الطريق بعوالم الرومانسية التي أحاول استقطاب صديقتي ماريا لها.

وعدلتُ قليلاً مما قاله منيف في رواية عشقه مخاطباً إياها باعثاً لها برسالة خاصة على صفحتها الشخصية، وأعقبتها بكلمات من عندي مباشرة خلف ذلك...

وكيف لي أن أندم، وأنا من قضى عمره تائهاً بلحاظ عينيك، في هذا العالم الكبير أبحثُ عن ظلك الهارب مني، فقد كنتُ أمتطي بساطي السحري وأنا أجوب العالم بأسره أفتش في كل مكان عنك، لكن من دون جدوى، وحدك من يفك عني كل هذا الاختناق .... أتعلمين كم صلّيتُ لأجلكِ، كم دعوت الله أن يحفظكِ؟ وطفت كمتصوفٍ في حلقات الذكر كي أرتفع إلى ملكوت عشقكِ.

ثمة صوت قادم من كبد السماء، من عالم بعيد.. أيها الغريب.. انتظرها فهي قادمة لتمسح عنك غبار الماضي وحزن السنين، لا تستعجلها، هي في الطريق إليك، حلمتْ بكَ قبل أن تراك.. في لحظة من لحظات السكون الخافتة، خجولةٌ كنتَ أنتَ عالمها، فاحتوتكَ، فكان الجنون الأول، نعم هي جنوني الأول والأخير، ما زلتُ أرقبها، أنتظرها، كملاح ينتظر قدوم السفن عبر ناظورٍ طويل مغمضاً إحدى عينيه لينظر بعينهِ الأخرى وهو يراها تتمايل في أمواجه الزرقاء المتلاطمة، لكني لم أكن أعلم أنها هي الأخرى تنتظرني بشغف، يبدو أن شباكي صادتها، وأنا أزج بسنارتي في بحرها اللامتناهي ملقماً إياها رومانسية وشعرية حروف عبد الرحمن منيف، لتقع في نهاية المطاف بين يديّ، كحمامةٍ بيضاء تجوبُ السماء محلقةً في الفضاء لكنها حين تتعب، تحطُ على راحة يديّ برفقٍ مداعبةً باطن كفيّ مرفرفةً بجناحيها.

وما أن تصلها كلماتي حتى تفصح عن لغتها العراقية التي تتعطش لها بكل حب..

- **هلا بعيوني..**

وصلتني هكذا وشعرت بأنها تخرج من قلبها على فطرتها على سجيتها على حبها للهجتها، بل شعرتُ وكأنها بحاجة لهذا الحديث ربما لأنها لا تستخدم هذا الكلام في خطابها اليومي بخاصة بعد عيشها في مدينة ليون الفرنسية، وغرقتُ وإياها بشهد الكلام ممتطياً جمال الحرف وعذوبته بتبادل الحديث فيما بيننا

- **شلونج يا روحي أنتِ..**
- **تمام بكل حب ومودة وخير، أراك رومانسياً تجيدُ فن الحديث، وتتلاعب بالمفردة الضاجة بالحيوية والجمال، كم تعجبني هذه المفردات.**

وانتابتني الدهشة وهي تقول لي هذا كاشفةً عن سر جميل بتقبلها لكل هذه المفردات الرومانسية التي تحوي اللذة والجنون والعشق والحب والتودد والتقرب، ربما في المرة القادمة سأزج مفردات أخر، كالتقرب مثلاً من وجنتيها أو زرع قُبلةٍ شفافة على شفتيها أو سأطلب طلباً أكبر من هذا أن أراها على حقيقتها وطبيعتها ووجهها البازغ في عتمة الليل كالقمر المنير.

- **ماريا.. كل هذه الكلمات كتبتها لأجلكِ، لأنني أجزم بأنه لا أحد يستحق هذه الكلمات غيركِ.**

ثم بعثتُ لها بكلمات عبر دردشتي الخاصة.

- **ووجهكِ**

مذ رأيتكِ

ما زلتُ احتفظُ به

في دفتر ذكرياتي

- **وأين رأيت وجهي؟!.**
- **لا لم أرَ وجهكِ حقيقةً، بل هذا ما جسدتهُ لي صفحتك الشخصية وبعض الصور الموجودة فيها، إلا أن الغريب.. كل الصور هي بنصف وجه، ما السر في ذلك يا ماريا؟**

وحاولتْ بطريقةٍ ذكية أن لا تجيب على سؤالي، لتُغيرَ مسار الحديث باتجاهٍ آخر، وعلى الفور بادرتني قائلة:

- **كيف أحوال العراق؟ الحنين يضجُ بصدري إليه، لكنما هو قدري..**

ثمة شكوك ساورتني من خلال عدم إجابتها على سؤالي، لكني كنتُ متيقناً بأنني سأعرف كل شيء في وقته..

- **العراق كما هو، بلا كهرباء أو ماء، قتل ودمار وخراب، فساد إداري ومالي، قتل عشوائي، وإبادة جماعية، فكلنا نخرج عند الصباح على أمل العودة أحياء مرة أخرى، فكل منا يحمل بين يديه كفناً، فقد يعود حياً أو لا يعود، فكنا نخرج ونودع من يبقى في الدار، بل نودع بعضنا البعض، أما أمي فكانت تخشى عليّ من بطش القدر وسوداويته فكانت تتمتم بشفتيها، تقرأ السبع المثاني وتردف خلفها ثلاث مرات سورة الإخلاص ثم تهديها لوجه الله وتطلب حاجتها منه بأن يحفظني ويُعيدني إليها، كان دعاؤها كما الأمهات يدعون لأبنائهن فتحفظهم الملائكة من بطش المتنكرين بزي الإسلام، العابثين بأرواح الناس، والزارعين للعبوات الصاهرة لأجساد الفقراء... أو كأم مسيحية تضع سبابتها على جبهتها ثم تمر بها**

على جنبها الأيسر فالأيمن، وهي ترسمُ صليباً على جسدها في الهواء الطلق وتسأل اليسوع أن يحفظ أبنها من كل مكروه متوسلةً به وبأمه العذراء.. لا تهتمي لا عليك حتماً سيعود كل شيء كما كان بل أجمل من ذي قبل.

كنتُ أقول لها هذه العبارات وأنا على يقين ودراية تامة بأن ما قلته لم يكن سوى شيء من الخيال ولا يمتّ للحقيقة بصلة.

دعيني الآن أسمعك شيئاً مما كتبته لكِ، بما أننا نعيش حرارة تموز اللاهبة القاتلة.

- **وتموزُ**

يغدقُ عليّ العطاءَ

حين أكونُ بقربكِ

وتكونُ شفتانا

على شفا حفرةٍ من الاشتياق

وبهذا زججتُ لها مصطلحاً جديداً، هو قرب وشفاه واشتياق، وبذلك أكون قريباً مما أحب وأهوى أو مما أصبو للوصول إليه.

- **واااااو، كلماتك قاتلة، تحزُ رومانسيتي من الوريد إلى الوريد، أراك بارعاً جداً في انتقاء المفردة الجميلة.**

ثم أردفتْ:

- **هل تعلم بأنكَ ذكرتني بجدي من جهة أمي الطبيب يعقوب يونادم، حين كان موفداً في البصرة منتصف الستينات ليعالج فقراءهم، كان يصف لأمي شهر تموز، وهي تقول بلهجتها (جدكن كان ايقلي.. تموز شهر الحر اللي يقتل الناس، وهما هنيك بيسموه.. طباخات الرطب)، الله، يا أسعد، كم أتمنى أن أكون الآن بالقرب من نخلة بصرية وهي تحتضن بسعفها الأخضر اعذاقها المتدلية بالرطب، وكأنها تخبئ تحت سعفاتها أطناناً من الذهب الأصفر، كم أشتاق لحرارة تموز اللاهبة، إني أشتاق لكل شيء حتى الضجيج والصخب وأصوات السيارات، والصبية الذين يلعبون بالكرة، كل شيء، كل شيء يا أسعد.**

كان ليل تموز يرسل نسمات هوائية ساخنة تلفح وجهي، فقد كانتْ أمي تصعدُ السطح عصراً بعد اختفاء الشمس خلف القبة المذهبة للإمامين الكاظميّين لتكنس التراب وترشه ليكون ليلاً بارداً هانئاً لي، فقد كنتُ أتنقلُ حاملاً بيديّ حاسوبي ما بين غرفتي وسطح منزلنا، مستلقياً بذلك على فراشي البسيط متمدداً على بطني، مُطلقاً العنان لحرفي معانقاً به ماريا وأنا أكشف لها عن مصطلحاتي الجديدة بين الفينة والفينة.

- **ماريا..**
- **نعم!!**
- **في صدري غزلٌ يقضُ مضاجع الإناث، لكن حبيبتي لا تعشقُ الغزل، فلمن أفضي غزلي؟**
- **وأية بلهاء تلك التي لا تحب الغزل، وهو صفاء للروح والذهن وإنعاش للقلب، بل بالغزل نموت ونحيا، وهل ثمة شيء في الكون أجمل منه، فالغزلُ أن تمنح من تحب مشاعر خالصة له وحده لا لغيره...، بل أقول لك شيئاً.. تغزل بي أنا، اترك تلك الحبيبة، وأسمعني ما تقول بها.**

- **هل تعلمين أن الرجل ليغرم بالمرأة الجميلة وإن كان على شفا حفرة من القبر؟**
- **بكل تأكيد هذا شيء لا مناص منه.**
- **هل تعلمين كم أشتاق أن أراك الآن؟..**
- **وكيف تراني، وأنا بمدينة ليون، وأنت في الكاظمية!!**
- **التكنولوجيا قربت لنا البعيد، وهذه من نعمِ العصر علينا.**
- **وكيف؟**
- **افتحي الكاميرا، دعيني أغُضْ ببريقِ عينيكِ، دعيني أنظر لوجنتيكِ، لوجهكِ المنير، لكل شيء فيكِ.**
- **ربما في المرة القادمة، أما الآن سآخذ والدتي بعربتها الحديدية لأخرج معها بنزهة لساعة أو ساعتين في شوارع ليون، ربما سنجلس قليلاً تحت تمثال مجسم لسيدة تجلس في عربة تجرها أربعة خيول هائجة وسط ساحة مذهلة جداً بالقرب من (هوتيل دي فيل)، سنقضي ساعات ممتعة جداً في (الاندركراوند) المليئة بصخب المارة والأضواء المبهرة، سنتعشى هذه الليلة خارج المنزل بأحد المطاعم التي تفتح ذراعيها على الساحة، فاللحظات هنا لا توصف أبداً، العشاق يتسامرون بأي مكان من هذه الساحة، وأجمل شيء في كل هذا أنك تشعر بالأمان حتى لو بقيت لوقتٍ متأخر من الليل، فالكلُ يستمتعُ هنا بجمال الجو الطبيعي النظيف الخالي من الأتربة والشوائب وسحابات الدخان المتصاعدة من أعمدة الكهرباء الغازية أو من دخان سيارة تتشظى لتقتل الناس وتلوث البيئة في وقتٍ واحد، ففي شهر تموز الجو معتدلٌ جداً لا بارد ولا حار..**

لتردف: تموز إهنا ما ينشف الماي من الكوز.

كانت تتهرب مني حينما أدخلتُ بمخيلتي مدينة ليون كاشفةً لي عن مفاتن المدينة وجمالها وطبيعتها، محاولةً بذلك تغيير طريقة حديثها معي، وأحسستُ أنها لا تريدني أن أراها وهي بذلك جعلت ثمة شكاً يساورني بأنها ليست هي صاحبة الصورة، ثم انطلقتُ سائلاً إياها عن السيدة التي تجر الخيول الأربعة وهي ممتطيةٌ عربتها الخشبية.

- **ومن تكون هذه السيدة؟ ربما كارلا بروني زوجة ساركوزي!!**
- **لا بل السيدة ترمز لفرنسا، والخيول الأربعة ترمز إلى أشهر أربعة أنهار فيها، وخلف تمثال السيدة مبنى جميل يتوسط الساحة يتألف من ثلاثة طوابق ونوافذ كبيرة جداً ومنارة في المنتصف، وقد نقش عليها فارس عملاق وتمثالان يقعان على جانبي المنارة، فالساحة تزخر بالعديد من المتاحف، بنايات أخر شامخة وكبيرة جداً وساحة فارهة وأناس كثر ومعالم تبهر الناظرين وكنائس أصبحت شيئاً من تراث، ثمة محطة رئيسة للقطار تنطلق منها القطارات إلى قلب أوربا، ونهر جميل يخترق المدينة يقسمها إلى نصفين، وتمثال لملك الشمس، لويس الرابع عشر وهو ممتطٍ حصانه.. هيا يا صديقي اذهبْ ونمْ وارتحْ فالوقت يتقدم نحو الصباح.**
- **وأدركَ شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح..** كنتُ أقولها وأنا أضحك.
- **هيا.. اذهب يا شهرياري ونم قرير العين وارتحْ، فأنا على موعد بالخروج مع أمي.**
- **نعم سأرتاح، لكن عديني بأن تكمل شهرزاد ما تبقى من حديثها غداً لشهريار.**

- **ربما نعم أو لا، كل شيء متوقفَ على وقتي، قد أكون موجودة وسنتحدث وقد لا أكون ووقتها لن نتحدث.**
- **ستكونين أنا على ثقة من ذلك، لا أدري فثمة مشاعر باتت تتحرك في قلبي.**
- **ماذا؟، مشاعرُ تجاهي أنا!!..**
- **نعم، فمذ رأيتُ صورتكِ، انساب إلى قلبي الكثير، وكأنني أعرفكِ منذ زمن بعيد، أو كما قال العمّ عباس شاه ربما التقينا ذات يوم أو مرة أو ساعة أو لحظة بعالم آخر غير هذا العالم، عالمٌ تجتمعُ فيه الأرواح المُحِبة لبعضها.**
- **ها أنت الآن تتفلسف علينا بفلسفة الأرواح.. لماذا لا تقول التقينا بالحلم مثلاً.**
- **ربما..**

(14)

ودعتني على أمل اللقاء بي في ليلة أخرى، واستلقيتُ على فراشي محاولاً التفكر بكل حديثنا الذي تطرقنا إليه، كان الوقت يتقدمُ بي من غير أن أعلم، أدركتُ هذا حين صرخَ المؤذن مفتتحاً صراخهُ بتهجداتٍ ملائكية مسبوقة بالبسملة ليصحو الناس وتضج عباد الله بالصلاة، ويكررُ ديك أم محمد اللعين سيمفونيته الصباحية بالصياح والعويل فوق سطح بيته متنقلاً بين الأسطح المتراصة فيما بينها والتي لا يُفرقُها عن بعض سوى قاطع صغير قصير من الطابوق القديم، مغتصباً بذلك ديك أم محمد كل دجاجات الحي التي تنقر بقايا الطعام البائت من عشاء بسيط لعائلة فقيرة من عوائل الزقاق على أسطح منازلها، وأغط بنوم عميق لساعات قصيرات جداً وأحلم بماريا وكأني ممسكٌ بها من يدها وأجوب وإياها شوارع غريبة غير مألوفة قط، لم يكن الجو هو الآخر مألوفاً، لا بارد لا حار ولا ممطر، كذلك لم يكن ربيعاً أو خريفاً أو أي شيء من هذا، لا أتذكر أي شيء من حلمي سوى أني كنت أسير ممسكاً بيدها كثملٍ تغلغل السُكرُ إلى جسده وفقد كلّ حواسه وبات يشعرُ وكأنه طائرٌ في السماء، بالتأكيد كانت هي جناحيّ اللذين أحلق بهما في فضاء غير هذا الفضاء الذي أعرفه، كنتُ أخاطبها لكن صوتي لم يكن يصلها على الرغم من أني كنت ممسكاً ومتشبثاً بها لدرجة لا توصف، لم تكلمني لكنها كانت تكتفي بزرع ابتسامة شفافة وردية على وجهها كاشفة عن أسنان بيضاء كالثلج، كان وجهها كتاباً مفتوحاً أقرأ من خلاله كل تفاصيل الحب والعشق، يا لها من امرأة سلبتني قلبي منذ اللحظة الأولى فملتُ لها هكذا من دون أن أراها بل لصور بسيطة ليس إلا، الغرام يقتاتُ على قلبي يقتلني، اقتربتُ منها هامساً بأذنها قائلاً لها: أحبك حتى اشتعال العشرة أصابعي، أحبك حتى انطفاء احتراقاتي، أحبك لأنك سر حبي وهيامي، وأيضاً لم تتفوه بأي كلمة، كعادتها كانت تكتفي بابتسامتها الوردية اللون، وأردفُ قائلاً: ماريا.. هل تعلمين أني مغرمٌ بك حتى الموت، وتستفزها أخيراً كلماتي وتنطقُ عبارات غير مفهومة، لكن يُخيلُ لي أنها كانت تقول.. سلامة قلبك من الموت والقبر، وأشعر أن الأرض لم تسعني وأن الفرحة أكبر من هذا الكون كله، لا شيء أذكره من كل هذا سوى ريح كانت تهب علينا كاشفةً عن شيئين أحدهما مذهل والآخر حاولتْ أن تسترهُ عني، حين سرقتْ الريح

جزءاً من ثوبها رافعةً إياه للأعلى كاشفةً عن ساقين بيضاوين أبيض من البياض وأنقى من الثلج، يلتمعان، يستمدُ القمر منهما ضياءه، كنتُ مشغولاً بالساقين وكأنهما لوحة تشكيلية لفنان حداثوي أبتكر بهما شيئاً مغايراً عما ابتكره كل الحداثيين الجدد، كانتْ هي مشغولة بشيء غير الذي انشغلتُ به أنا، فكانتْ تعيدُ ترتيب شعراتها المائلات التي كانت تخفي بها جانب وجهها الأيسر، فشعرها الناعم الأسود يغطي نصف وجهها ويستره عن الناس كلهم، لاحظت ثمة ارتباكاً وذعراً سيطر على تقاسيم وجهها، وكأنها تخشى أن أرى ما تخفيه عني خلف هذه التسريحة الجميلة التي كانت تذهلني حدّ الاندهاش، وجهٌ بعينٍ واحدة، وشعرٌ يتدلى على العينِ الأخرى، وشفاهٌ ناعمة ملونة بلون الورد، ووجنةٌ بغمازةٍ ترتسم عليها كلما مطت شفتيها ضاحكةً مبتسمةً، كانت الريح تتعطشُ شغفاً لترى ما بعد الساقين، وكان شغفي يزدادُ أكثر من الريح وأنا أرى الثوب يرتفعُ محلقاً بجناحين نحو الأعلى كاشفاً عن الركبتين والفخذين القطنيين، لكنها سرعان ما تمسكُ بثوبها الأبيض العريض ساحبةً إياه للأسفل ممسكةً به بين فخذيها وبيدها الأخرى تمسكُ شعرها المنسدل كشلال ماء منهمر، محنية الظهر ساترةً نفسها وأبقى أنا أطالع ما تبقى من تفاصيل جسدها الممشوق الذي أتقن الخالق صنعه، تهربُ الريح بعد مشاكستها الجميلة التي تحاول أن تكشف لي عن سر مفاتنها، تعودُ مرة أخرى رافعةً ظهرها تاركةً ثوبها يرفرف بهدوء كعلم ينتصبُ فوق ساريةٍ تداعبه ريحُ الصيف، تبتسمُ بوجهي وأبتسمُ لها، تحمرُ وجنتي ويتصببُ جبينيً عرقاً وتمدُ يدها الناعمة لتمسح عرق الخجل عن وجهي، مداعبة شفتي العطشى بأطراف أظفارها الطويلة، لم أكن أتصور أن هذه الأظفار الطويلة لديك أم محمد اللعين وهو يقنص لحظة انقضاضه على ذبابة كانت تحلُ ضيفةً ثقيلة على خدي، وأفز مرعوباً مغادراً ماريا بجمالها ورشاقتها وجسمها الأبيض الذي كنتُ أتعطش للمزيد من الكشف عن مفاتنها التي كانت تخبئها خلف ثوبها الأبيض الفضفاف والتحري عن مكامن اللذة فيها، لولا هذا الديك الذي دائماً ما ينغص عليّ فرحتي ويشتتها، يا له من ديك لا ينفك عن مشاكسة أسطح المنازل كلها، حتى سطحنا الذي لا يأوي أية دجاجة يقتنص منها لحظة نشوة ممتطياً ظهرها ليفرغ شهوته بها، بات يقطع عليّ حلماً جميلاً، كنتُ أتمنى أن يستمر إلى نهاية حياتي، بل كنتُ أتمنى أن لا أصحو منه قط، يا لك من مزعج، أفز مذعوراً وكلي غضب من قدمي حتى قمة رأسي قاذفاً إياه مصوباً نعلي لمؤخرته، يتطاير ريشه ويصيح غضباً منزعجاً هو الآخر مما فعلته به..

أمي تتسلق الدرج لسطح منزلنا المسقف بالخشب الأسود القديم متكئةً بقوة على الجدران الهرمة وما أن تصل حتى تراني أمسح غبار النعاس عن عيني، قائلةً:

- **يمه اليوم چنك تعبان.. ليش ما رحت للشغل.. انزل ارتاح بالغرفة.. لا تاخذلك ضربة شمس ويصير بيك تيفو..**

كم مسكينة أمي! فلم يتبقَ لها سواي، هي تخشى عليّ من الشمس الحارقة التي تسبب التيفوئيد، أترجل عن صهوة فراشي وأنزل السلالم القديمة متكئاً على الأعمدة الخشبية، فصالة بيتنا لا تحوي سوى بقايا أرائك من الخشب الرث مغطاة بفرشٍ بالية، وأجد أمي على فطرتها وسجيتها البسيطة المعهودة تُحضرُ فطورها الصباحي الذي لم نجتمعَ أنا وإياها عليه باستثناء يوم الجمعة، قطعٌ صغيرةٌ من بقايا الخبز البائت من عشاء البارحة وإبريق شاي صغير مصنوع من المعدن القديم الأبيض المزخرف بورد أزرق وقليل من الجبن وبيضة واحدة لي، ألتهم كل شيء وأمّا هي تكتفي بشرب الشاي الساخن رشفة بعد أخرى بهدوء تام.

(15)

الوقت يقترب من العاشرة صباحاً، أقلبُ بيدي قنوات التلفاز من محطة فضائية إلى أخرى، فثمة محطة تعلن عن خبر عاجل لانفجار صهريج للنفط قرب إحدى السيطرات العسكرية التي تسبب زخماً مرورياً كبيراً، فبعد أن يشعر الانتحاري باليأس وعدم الوصول لمبتغاه أو اكتشاف أمره، يعمدُ إلى تفجير شاحنته بما محمول فيها من مواد شديدة الانفجار ليحرق من حوله ويُحيل البقعة المحيطة به إلى خراب ودمار، تحترق كل السيارات المجاورة وتتفحم الجثث وتتصاعد الأرواح إلى عالم آخر بالجملة، يا لكم من شعب مسكين**!**، تتعبُ أمهاتكم حين تزجُ بكم إلى هذا العالم بصعوبة وأنتم تخترقون أرحامهن ممزقين أحشاءَهن لتروا النور بينما يجتهد ذو لحية صفراء غبراء، ليجمعكم كلّكم بسفينة واحدة مغادرين هذه الدنيا عنوة ورغماً عنكم.

محطة تلفازية أخرى وعبر عاجلها، انتحاري آخر يفجر نفسه بحسينية في قضاء الخالص في محافظة ديالى، هكذا صرحت قناة العربية، وفي محطة فضائية أخرى ثمة مقتولون عُثِرَ عليهم في الجامع الكبير في كركوك، مشاهد الدم مروعة جداً، وبلدٌ تسيد فيه الخراب والدمار، يا له من موطنٍ يأكل أبناءه الواحد تلو الآخر، والساسة منتشون في برلمانهم المحصن بالدفاعات والدبابات والجنود المتدربين في دولٍ خارجية، غرضهم الدفاع فقط عن المنطقة الخضراء التي تأوي عتاة لا علاقة لهم بالشعب أبداً، لا شيء يهمهم غير احتفاظهم بكراسيهم ومناصبهم وملياراتهم التي يحصلون عليها من تقسيم غنائم هذا الشعب المسكين الغارق بالدم ورائحة البارود والدخان، آبار النفط يراهنون عليها والصراعات قائمة فيما بينهم والشعب هو حطب الساسة، الأغاني القديمة التي تحمل بين طياتها الحنان والطيبة انسحقت واستبدلت كل القنوات التلفازية ببرامج طائفية تروج لمكوناتها التي تنتمي إليها، المطربون القدامى هم الآخرون لا أعلم أين ذهبوا، ابتعدوا واضمحلوا والبرامج التي كانت تهدف لصالح المجتمع هي الأخرى لا أدري أين رحلت، كل شيء تغير نحو الأسوأ، لا شيء يتقدم نحو الأحسن أبداً، برنامج عدسة الفن لخيرية حبيب الذي يذاع بصوتها الملائكي، (العلم للجميع) لكامل الدباغ، وأشياء لا تحصى رحلت تلك الأيام الجميلة بلا عودة حتى فيلم السهرة الذي يأتي عند الثانية عشرة مساءً ليحل عادل أدهم أو عادل إمام أو يسرى ونيلي التي كنتُ أتعطش لجسدها البض الأبيض كاشفة عن صدرها وزندها وساقيها وركبتيها، آآآه كم كانت أياماً جميلة وهي تبقى حتى الثانية ليلاً وننام على أمل لقاء يوم جميل بلا مفخخات أو قتل عشوائي على الرغم من أن حاشية الرئيس كانت تتسلل سراً إلى المنازل الآمنة لاقتياد الشباب وزجهم بسجونهم المليئة بالمساكين ومن ثم ترحيلهم إلى المقابر الجماعية التي لا يعلم الشعب بها..

كان يوم الجمعة يحمل لنا عند ظهيرته فيلماً هندياً أو عربياً مميزاً جميلاً يزاد على سلسلة الأفلام الرائعة التي كنا نتمنى أن نراها يومياً، باستثناء جمعة واحدة كانت من أشد الأيام علينا هو يوم أخذوا أخي إلى سجنٍ من سجونهم التي ما عاد بعدها إلينا إلا كومة عظام وبقايا هوية بالية كانت تختبئ خجلاً في جيبه.

شاشة التلفاز اليوم تتخذ شكلاً مغايراً فكلٌّ يغني على ليلاه، طائفية مقيتة وأخبار سياسية وانفصالات واستهتارات وأكراد وعرب وطوائف مسلمة غير متآلفة فيما بينها ومسيح وأيزيد وأنباء متضاربة ومطالبة بالتقسيم وأخرى ترفض التقسيم، أشعر برغبة بلفظ أحشائي وأنا أسمع كل هذه السوداوية والأخبار المشؤومة، تنتابني في بعض الأحيان لحظات بترك هذا البلد والبحث عن منفى بعيد جداً لا أرى أو أسمع أي شيء فيه، وأحياناً لا نجد غير هذا الانترنت متنفساً لنا للهروب من الواقع المرير

الذي يحيط بنا من جهات شتى، لذا نحن لا نستأنس إلا بمن نحب ومن عقدنا معهم صفقات حديث عبر الفيس بوك.

عند الظهيرة أحاول النوم لكني لا أستطيع، فأصوات المارة وضجيج الناس والباعة المتجولين، وكرات يتقاذفها الصبية هنا وهناك في زقاق ضيق جداً تشعرُ فيه بالأمل، بصخب الحياة، الأغلب يبحث عن رزقه والأصوات تعتلي رويداً رويداً، برودة باحة الدار التي لا تصلها الشمس مطلقاً بسبب انزواء هذه الأزقة واختبائها عن عين الشمس وحرارتها اللاهبة الحارقة تشعرني بالراحة، أغمضُ عينيّ مستسلماً لإغفاءةٍ بسيطة معوضاً الليالي التي قضيتها حتى الصباح مع ماريا، وأصحو عصراً أتنفس هواء الكاظمية وأدخل سوق باب الدروازة وأنا أتجول بين بضائعها براقة اللون.

للكاظمية طعمٌ خاص، كلّ شيء فيها مختلفٌ تماماً، فالزائرون لهذه المدينة، والسائحون الأجانب، الباعة، وحتى القباب المذهبة للضريح حين تدخل من باب المراد تشعرُ بحالة من الخشوع تسري إلى بدنك من حيث لا تشعر، أشياء غريبة تراودك حين تستقبل باباً خشبياً مصنوعاً من الصاج وحلقة صفراء كبيرة في منتصفه، وأسفلُ الحلقة قطعة مذهبة أخرى، تمسكُ الحلقة لتطرق بها القطعة المذهبة وكأنك تستأذن الدخول مطرقاً برأسك حياءً وخجلاً، للباب رهبة كبرى، تتزاحم الناس بالقرب منه، تسيرُ بخطواتٍ وئيدة نازلاً العتبات حتى تستقرَّ قدماك على الصحن المفروش بالسجاد الكاشاني مقترباً صوب الضريح الذي يلتمعُ بقبابهِ المذهبة الصفراء، الأضواءُ تسجدُ على أعتاب الضريح، أضواءٌ بيضاء وصفراء وخضراء تنعكسُ على المرايا الصغيرة التي اتخذت من الجدران الكبيرة نقوشاً مغربية مميزة، أسماء الله شاخصة على الجدران بقوة، ثمة دعاء ببداية الباب يتراص الزوار رافعين أيديهم لله متوسلين مفتتحين دخولهم للضريح به، الضريح فنٌ معماري نادر، وعند شباكه المصنوع من الفضة تشتبك الأصابع ويتعالى صياح الناس وبكاؤهم، الدموعُ تلتصقُ بأكفهم المتشبثة بالشباك وأدعية لا تفارق المكان، وملائكة تصفق بأجنحتها، إنَّها روضة من رياض الجنةَ، في هذا المكان تطلبُ الحوائج، هكذا تعلمت من أمي وأبي، وأنا متشبثٌ بالشباك تنهدت كثيراً وأودعتُ حاجتي الضريح طالباً منه ومتوسلاً بالله أن يمنحني دقيقة لقاء واحدة تكفي بأن أتحسس حرارة أنامل ماريا وهي تشتبكُ بأناملي في لحظة حب صافية خالية من الزيف والخداع.

أعود لبيتي بعد عطلة قسرية تجولت فيها بأماكن كنتُ أحتاجها للترفيه والتنزه، أمي المسكينة لا تتأخر ليلاً فهي تمنح نفسها لفراشها القديم مستلقيةً ممددةً عليه، وما أن تتفوه ببعض الكلمات حتى يعتلي تثاؤبها وتغمض عينيها وتنام، تنام بهدوء تام، كطفلٍ صغير يشعر بالدفء بين أحضان أمه، أما أنا فأحضن حاسوبي وأتسلقُ عبر سلم بيتنا القديم لاعتلاء سطح الدار متمدداً على فراشي مطلقاً العنان لقلبي الذي بات يهوى ماريا ويحبها لدرجة لا توصف قط.

(16)

سابقاً كنتُ أسرق وأتلصصُ من عبد الرحمن منيف وقصة حبّه المجوسية التي تحمل بين طياتها قداسة قلوب تحيا على الحب والمودة، لكني بتُّ لا أحتاج له لأنها وحدها من تستدر عواطفي وتؤجج

مشاعري وتأخذني إلى عالم غامض تجعلني أتحدث بشاعرية غريبة، بكلمات لا حدود لها، لا أدري ما ينتابني حين أفتتحُ معها بداية الكلام، أشعرُ بشعورٍ لا يمكن إدراجه في خانة الوصف، لم أكن ثملاً قط ولا مخموراً، لم أتناول حبوب هلوسة أو أتعاطى مخدراً، لكني أشعر بدنيا مختلفة عن هذه الدنيا، وحين أفتح صفحتي الشخصية أجد مجموعة من الرسائل الواردة منها، مكتوبة بلغة حب لا يمكن أن تكتبها أية امرأة عادية لا يتحرك قلبها تجاه من تحب، وتأكدتُ تماماً مما تحمله من مشاعر تجاهي، وشرعتْ بنثر عبيرها ونسائم حبها القادمة مع الريح من مدينة ليون الفرنسية، باعثةً لي حروفاً من جمال ومحبة ومودة عبر الرسائل الخاصة، قائلةً لي:

- **ترجمتُ كل مشاعري**

ترجمتُ أحاسيسي ونزفي

أفضتُ حباً لكَ

على مائدةِ قلبي

وكتبتُ على جدران الهوى

بأصابعي

ومن قلبٍ

أعياه نزف الحب حتى هوى

ممرغاً بالحرفِ

أحبكَ ... أحبكَ

هل تعلم كم أحبكَ

آهٍ ليت حبيبي يقرأ كل ما أكتبه له

فحبيبي الذي أحبه

كلّه براءة

لكنه..

لا يجيدُ فنَّ القراءة

.. وتردف بعد هذه الكلمات الحالمات بالحياة في عالمها الرومانسي الجميل..

- **أسعد.. يشدُني التعليق على مواضيعك كلّما يزداد الحنين إليكَ لكنِي بتُّ أخشى عيون المارة عليه، حين أمر عليك ثمة من يتصيدني وأنا أضج بمشاكستك حرفياً وقلبياً، لا عليك سنختبئ ها هنا عن أعين المارة والناس ونتحدث على مهلنا وبراحتنا.**

كان هذا قبل ساعة من رؤيتي لرسائلها التي تجعلني أحلق في عوالم بعيدة كل البعد عن الكون، وأردفُ باعثاً لها رسائل أكثر مشاكسة من رسائلها المرسلة لي..

- **امنحيني قلبكِ**

وسأمنحك كل كلماتي

امنحيني عطرك

وسأمنحك حبي وصلواتي

امنحيني عينيك
وسأهبُ لك عمري وحياتي
إني اشتاقُ لليلةٍ واحدة
احتضنكِ فيها بحرارة
ألبسك الحرير
وأغرق وإياك بصمت كبير

ثم أردفُ خلف هذا الكلام كلاماً آخر، فالكلامُ بات يتدفق مني بقوة، أشبه بكأس يمتلئ بالماء ويفيض، بل باتت الكلمات كبحرٍ هائج تتلاطم فيه الأمواج أو كزلزال ينخر بطن الأرض يبعثرها بقوة ضارباً من فوقها، فبعد ما جنيته من قصة الحب المجوسية وأنا أعيد قراءتها مرة واثنتين وثلاثاً أحاول استخلاص شيء منها يفيدني، إلا أن مشاعري وقلبي هما اللذان يتحدثان عني وكأنني أتحدث من حيث لا أشعر قط.. وأكتب وأنتشي.. وأبعثُ لها قائلاً:

- **ما زلتُ أطالع صورتكِ**
وألعن حظي
وكأني أتغلغلُ فيكِ
عيناكِ...
كما قال السياب فيهما
غابتا نخيل ساعة السحر
ووجهكِ كما القمر
وخدكِ البربري
شيءٌ من الروعة والجمال
وشفتاكِ مشروع استشهاد
وأنا الفقير المسكين ما زلتُ أنتظرُ وانتظر
الضوء الأخضر
للولوج إلى قلبكِ
سيدتي

وما تلبث رسائلي دقائق لم تتجاوز الخمس أو العشر حتى ترد وعلى الفور وكأنها كانت تنتظرني بفارغ الصبر قائلةً لي:

- **يداكَ والعدلُ سيانْ**
وحبكَ والهوى صنوانْ
وقلبي ذابَ بحبكَ
حاشى لحبك أن يهانْ

تنفرجُ أسارير نفسي وتبتهج فرحاً، وأنا أبادلها الرسائل المرسلة، وأبعثُ لها:

- **مساء الورد ماريا العزيزة.**

- **هلا بعد روحي، شلونك يا عمري.**

كانت تحب أن تتحدث بعراقيتها لتخفف من غربتها التي أطبقت عليها، ولتهرب من مدينة نابليون بونابرت، من التماثيل، من الساحات الكبرى والأزقة الباردة، من الثلوج والأمطار، من لحظة ليل تقضيها تفكر فيها بأزقة بغداد، بالكرادة، بكنيسة سيدة النجاة، يعقوب، رغدة، مينا، يوسف، كوركيس، ثائر، أسامة، دانيال، يوحنا، آآآآآه أعد منْ؟ فالأسماءُ كثيرة جداً، ضحايا سيدة النجاة، كل شيء يشعرها بغربةٍ لا تطاق ودنيا تكون بعينيها أشد سوداوية على الرغم من جمال فرنسا ونقاء جوها وطبيعتها التي لا توصف قط، لكنها كانت تحبّ العراق جداً كحبيب يبادلها قُبلَ اللقاء وتأوي إليه بفراشٍ يغطيها بمعطفهِ عند المساء، تحبه لأنها رضعتْ حليب النخيل من ثدي أمها، وحين بدأتْ تكبرُ تعمدتْ بماء دجلة والفرات، ولم تكن تعرفُ أنها مسيحية بل كانت تدركُ أنها عراقية، وحين تحدثني تشعر بالأمان معي، فقد كنتُ لها العراق الذي تتنفسه وهي هناك إذ يلسعُ نافذتها رذاذ الثلج ورشقات المطر التي تجلبها الريح مصدرةً صوتاً عالياً وصريراً يذكرها بصرير العصف الذي تحدثه الانفجارات العشوائية وأعوام مضت في العراق، فتارة تراها تنزفُ حباً وشعراً وتارة أخرى يتغلغل الخوف إلى صدرها حينما تتذكر قصة قتل حدثت أو سمعتها من صديقة لها أو قرأتها بالصحف أو المجلات أو حادثة ذكرتها بها إحدى الصحفيات التي كتبت تقريراً بصحيفة الصباح العراقية أو أي شيء من هذه المنغصات التي تحولها إلى كائنٍ آخر يقتل في جوفها الفرحة والنشوة، وأنسيها أنا لحظاتها التي تنغص عليها فرحتها ومتعة لقائها وآخذها إلى عالم آخر بعيد عن كل هذا..

- **ماريا لا أعلم ما يحصل لي حينما أبتعد لساعات عنك وكأنني أعدُ الدقائق والثواني للظفر بك أو اللقاء في أي مكان، المهم أن أكون قريباً من عينيك، بل منك، أشعر بجاذبية غريبة تجذبني تجاهك، روحي معلقةٌ بك، لا أفكر بسواكِ، نعم ستقولين أنت مجنون أو مخبول، سميها ما تشائين، لكني وصلتُ لقناعةٍ تامةٍ أنك تستحقين المتابعة، تستحقين هذه المشاعر كلها، من يدري ربما يعود العراق إلى عصره الذهبي ويعود الأمان له ونلتقي مرة أخرى، ربما هذا شيءٌ من حلم، أو ربما سيصبح حقيقة، أنا متيقنٌ بأن كل شيء بيد الله، المهم أن نحتفظ بالأمل على أمل أن نلتقي مرة أخرى، هل تعلمين ماريا أنت الآن أصبحتِ جزءاً مني وبفقدانه أتهاوى أو أموت..**

- **(سلامتك، يا عيني وليش تموت.. هيچي متعلق بي)..** لتردفَ بعدها: **لكني لا أشبه حسناوات الغرب أو حتى ملامح قريبة لأنجيليا جولي، أنا كما أنا، أنتَ لا تعرفُ عن وجهي أي شيء، لا تعرفُ عني أيضاً أشياء كثيرة.**

كنتُ أتمنى أن أرى تفاصيل وجهها كلّها وهي تتحدث لأعرف ما تخفيه خلف عينيها، أو أتعرف على أقل تقدير صدق ما تقوله أو تدعيه، فتضاريس وجهها تُدلل على حقيقة ما تقول، إلا أن كل شيء يمر عبر رسائل إلكترونية نختزل بذلك الزمن ونتبادل من خلف هذه الشاشة الإلكترونية كل المشاعر والحب والقُبل ورسائل الغرام، أصبح قلبانا متعلقين ببعض، هي لا تفارقني وأنا أيضا بتُّ لا أقوى على فراقها.

ونستسلم كلانا لعبق الحديث وشهد الكلمات وصفاء الحروف وننغرس كمسمارين في جدار الليل لا نفارق بعضنا بعضاً حتى يصدح المؤذن ببسملته ويتبعهُ الديك مؤكداً إعلان الفجر وإسدال الستار عن نافذة الظلام، حينما أنتهي من حديثي مع ماريا وأعيد قراءة ما كتبته أستغرب بأنني أنا من يتحدث بهذه اللغة الضاجّة بصخب الكلمات، مكرراً القراءة مرة أخرى، وثالثة لأنتشي.

(17)

كان الصيف الحار يغادرنا ويحلَّ الشتاء ضيفاً ثقيلاً بجوه البارد وسمائه الممطرة، كل شيء اختلف ما عاد كما كان في سابق عهده وأوانه، فأصدقائي في سوق الشورجة تفرقوا وما بقي إلا القليل منهم ممن بحثوا عن أعمال أخرى، فقد ابتعدوا بسبب انتظارهم القاتل لسيارات الحمل التي يفرغونها مقابل بعض المال إلا أنَّ الظروف كانت دائماً ما تحول دون دخول هذه الشاحنات إلى السوق الكبير، بسبب الأوضاع الأمنية المربكة بين الحين والآخر...

سامي أصبح عاملاً بالملهى الذي يرفع لافتة كُتِبَ عليها (منتدى الصحفيين والمثقفين)، أصبح نادلاً يقدم على طاولةٍ أرهقتها السنون زجاجات العرق والويسكي وهو يتفحص بعينيهِ الواسعتين مؤخرات العاهرات اللائي يعملْنَ بالملهى والراقصات المتبرجات بأجسادهنّ البيضاء ووجوههنّ الملونة وهو يتنقلُ بحريةٍ تامة بينهنّ متعرفاً على أسرارهنّ التي كان سابقاً يتمنى أن يتقرب منهنّ، أو أن يعرف عنهنّ أي شيء، أو يضاجعهنّ سراً في غرفة من غرف الملهى المتوارية عن الأنظار عند التنظيف صباحاً وقبل أن يبدأ الزبائن بالتوافدِ على المنتدى الثقافي الإعلامي كما يزعمون، وأمّا محمود الذي فلا ينفك عن الثرثرة أبداً فقد تعرف إلى ضابطٍ وأصبح عسكرياً تابعاً لإحدى وحدات الجيش العراقي التي تعسكرُ في معسكر الغزلاني بالموصل مقابل دفع مبلغ (2000) دولار أمريكي كرشوةٍ ليصبح بعدها رجلاً عسكرياً يدافع عن الوطن، أما سمير فقد أصبح عاملاً نظيفاً يبيعُ في دكان سردار وبولص فيما بقي علاء وصالح يتنقلان بالسوق يحملان بعض الحاجات لأصحاب الدكاكين في الشورجة، ليتطور بهما الأمر فيعمل صالح مع حجي منذر في بيع البهارات المتنوعة التي تحمل ألوانا غريبة ورائحةً عطرةً مميزةً، أما علاء الذي ما زال محتفظاً بابتسامته التي لا تفارقه وسخريته المعهودة أصبح بائعاً بعربةٍ خشبية يملأها بملابس الأطفال والصبية الصغار ليبيعها على مرتادي السوق، وبقيتُ أنا وحدي واعتزلتُ أيضاً تفريغ هذه السيارات وبتُّ أتنقل بين الدكاكين أساعدهم بالترتيب ونقل بضائعهم مقابل مبالغ مالية لا بأس بها.

كان الشتاء يقتل فيّ الكثير، فما عدتُ أسمعُ صوت المؤذن صباحاً إلا حين يكون الجو صافياً هادئاً خالياً من الريح التي تصدرُ صوتاً عالياً كطائرةٍ تخترقُ السماء تشقها بصوتها المزمجر المرعب المخيف، حتى الديك الوقح الذي كان يتسلل جهرةً عبر أسطح المنازل ليقتص من دجاجات الحي جاعلاً منهنّ مأوى لتفريغ شهوته الجنسية، مربكاً الحي بصوتهِ الصداح الذي لا ينفكّ مطلقاً عن الصياح هو الآخر بتُّ لا أسمعه، فيضانات تجتاح البلاد، حينما يكون الجو غائماً، برق ورياح ورعد وأمطار وأستسلم تماماً لحظي العاثر وأنتظر إشارة الإنترنت المتذبذبة التي تظهر تارة لأغتنم لحظة صفاء بماريا، وتختفي حيناً آخر عندما يتغير الجو نحو الأسوأ لأبقى وحيداً مكبوت الأنفاس طوال الليل من دونها.

تعلقنا معاً ببعضنا البعض وبتنا لا يفارق أحدنا الآخر، وتطور كل شيء بيننا، وبعد أن كنتُ أرى الصور الجميلة وأتنهد وأنا أطلقُ زفراتٍ حرّى، أصبحتُ اليوم أراها في كل ليلة عبر كاميرا الحاسوب بشحمها ولحمها وهي تنثرُ شعرها الأسود الطويل على كتفيها، مخفية به نصف وجهها، فكان الفضول يقتلني في كلّ ليلةٍ ألف مرة، وأنا أسألها أن تكشف لي عن وجهها، بينما أقضي ليلتي أتغزلُ بنصفٍ واحدٍ، بخدٍ قطني ناعم وغمازةٍ جميلة تبرزُ كلما ابتسمتْ، وعين خضراء، أشبه بغابةٍ واسعةٍ مليئة بالأشجار تحفها الأزهار من كل حدب وصوب، لم أكن أدرك أن ثمة سراً يكمن خلف

شعرها الناعم المنسدل على عينها الأخرى وهي تغطيها به، أخاطبها فتهربُ مني، فأعيدُ الخطاب مرة أخرى، فتزعم أنها ستخرجُ للتسوق والتنزّه وبتُ أخشى أن أستفسر عن سرّ العين الواحدة ونصف الوجهِ المضاء..

- **ماريا لماذا لا تكشفين لي عن وجهك المنير، فالفضول يأكل رأسي، منذ زمن ونحن نتحدث ونتبادل المشاعر عبر هذا الجدار الإلكتروني، بتُّ أراكِ وترينني وكأننا جالسان بالقرب من بعضنا، ما السرّ في إخفاء النصف الآخر من وجهكِ، لدي إحساسٌ غريب بشيء ما تخفيه تحته، لمَ الخوف مني؟ ما يدعوكِ لهذا؟ أتشكين بمشاعري، بحبي، بقلبي؟..**
- **أسعد.. سنتحدثُ بهذا لاحقاً، الآن لا بدّ لي من اللحاق لشراء بعض الحاجات، كما قلت لك أريد الذهاب إلى (لافايت)..**
- **ومن هذا (لافايت)!!، صديق أم حبيب!!**
- **لا تخف لا صديق ولا حبيب، بل هو مركز تجاري للتسوق لا يفتح إلا عند العاشرة مساءً، سأتسوق وأعود على الفور، فالجو البارد لايسمحُ لي بالتنزه والخروج خارج البيت، ربما سأتأخر لساعاتٍ عنك لكني حتماً سأعود، لا تنتظرني قد أتأخر، اذهبْ ونمْ هيا، فغداً صباحاً ينتظركُ عملٌ شاقٌ ومتعبٌ في السوق.**
- **كلا لن أنام إلا بعد أن تعودي، ولا بدَّ لي أن أعرف كل شيء عن التي دخلت قلبي بلا استئذان..**

ثمة هاجس في قلبي كان يلحُ عليّ بأنها تخفي شيئاً ما خلف شعرها، فكلما أفتتح الحديث معها تغير مجراه وتدعي أنّها ستخرج إلى مكان آخر!!.. وأكمل حديثي معها قائلاً:

- **ماريا سأفصحُ لك عن سرٍّ يقتلني منذ زمن بعيد، منذ أن رأيتُ صورةً لك عبر صفحتك الإلكترونية، منذ أن كنتِ وهماً يشاطرني في قرارة نفسي، منذ أن راودني سؤالٌ في داخلي.. ماذا تخفين خلف النصف الآخر من وجهكِ؟!.**
- **أخشى إنْ عرفتَ ستتركني يا أسعد وترحل، أخاف أن تغلق حاسوبك ولا تردَ على رسائلي بعد اليوم، وأظل أكتبُ لك وتغلقُ كل شيء بوجهي، لا أريد أن أكون وحيدة في هذا العالم البعيد، أخشى.. أخشى يا أسعد، أتوسل إليك أن تترك هذا الشيء ليومٍ آخر..**

وما أن أنهت عبارتها هذه حتى تحادرت دمعاتها، كانتْ تبكي بحرقة وألم، سال الدمعُ من عينٍ واحدة وأما الأخرى فكانت مختفيةً تماماً خلف شعرها الناعم، وما أن وصلت الدمعة أسفل ذقنها حتى رأيتُ الدمعة الأخرى تبزغُ ظاهرةً تحت شعرها من جهة وجهها المغطى، واصطبغت عيناها بدموعٍ تدفقتْ بسهولةٍ ويسر على وجنتيها كنتُ أنا أبادلها الشعور ذاته كنتُ أبكي لبكائها، أحسستُ بألمٍ يعتصرُ قلبها، وثمة شيء لا تود الإفصاح عنه، لكن الفضول كاد يقتلني، كانتْ تشعرُ بحرارة الحبِّ تسري بداخلها تقتلها لكنها لم تستطع أن تفصح لي عن هذا، بل كانت تكتمُ بداخلها، إلا أني كنتُ استقرئ كل شيء، من نصف نظرةٍ، من حركاتها، ابتسامتها، من كل شيء، وانطلقت قائلاً لها:

- **ما سبب الخوف؟!، أتخشين أن أتركك مثلاً، ولمَ؟ أ لهذه الدرجة هناك شيءٌ يستدعي الترك والنفور منك!!، أودُ أن أقول لك شيئاً، لن أتنازل عنك أبداً، هيا لا تبكي، ابتسمي..، فبكاؤك يؤلمني كثيراً، بل يقتلني، أتحبين قتلي؟**
- **إني لا أبكي إلا أمامكَ، فلا أحد أشكو له همي غيركَ في هذه الدنيا.**

- **أنتِ أقوى امرأة رأيتها في حياتي، هيا اذهبي إلى حبيبك (لافاييت) ولكن لا تتأخري، ههههه ولا تهتمي، سأنتظرك بكل حبٍ وشغف، سأفتحُ قلبي وروحي وعقلي وكل شيء لسماعك واعلمي أن حبَّك تسلل إلى قلبي رغماً عني، بل أصبحتِ جزءاً من كياني وشيئاً مهما لا يمكن الاستغناء عنه بسهولة كما تتصورين، إنها ساعات الاختبار يا ماريا هيا اختبريني، أأحبك؟ أم لا.. قلتها لها بكل ثقة..**
- **حينما أعود سأخبركَ، وأكشفُ لك عن جهتي الأخرى من وجهي، لك ذلك، إلى اللقاء مؤقتاً، يا صديقي..**
- **بل قولي يا حبيبي..**
- **نعم يا حبيبي.**

(18)

كنتُ أعدُ الدقائق والثواني أنتظرها دقيقة بعد أخرى، بل ثانية بعد ثانية ولحظة تلو لحظة، حاولتُ الانشغال بأشياء أخرى لكني لم أستطع، وأوهمتُ نفسي بالانشغال وبدأت أتصفح صفحات الأصدقاء وأعلق على هذا وذاك وأدخل بنقاش مفرغ أطرح وجهة نظر هنا وهناك، أعبثُ بأزرار الكمبيوتر، أتذكر أحدهم قال لي: هل تعلم ما تكتبُ أنتْ، وانتبهتُ ووجدتُ بعد لحظة انتباه أنني أبعثرُ الحروف على صفحتي الشخصية وكأنني اتخذتُ موضوعاً للسخرية على صفحتي ليس إلا، حتى أغلب تعليقات أصدقائي لم تكن سوى تعليقات ساذجة ساخرة مني، كان الجو بارداً جداً؛ هذا ما أدركتهُ حينما أحسستُ بعطشٍ شديد يساورني وحين لسعتني موجات البرد في صالة بيتنا المثلجة، حيث ساقتني مخيلتي لمدينةً ليون، وقلت أين أنت الآن يا ماريا؟ ماذا تلبسين بهذا البرد القارس؟ أي شيء سيحميك ويقيك من شدة البرد هناك، كان كوب الماء بين يديّ أشدَّ برودةً من صالتنا المثلجة، مرتْ أكثر من أربع ساعات وانتصف الليل وبات يتآكل السواد تدريجياً كاشفاً عن عين الصباح، وحين عدتُ لفراشيَ تسلل البرد إليه تدريجياً، وجدتُ رسالةً واحدة، وتيقن قلبي منها هي، وحين فتحتها وجدت صورة جميلة لها وأرسلتْ خلف الصورة عبارة (دقائق أستبدل ملابسي وأعود لك).

كنتُ أطلق تنهيدة وحسرة وأنا أرى صورتها الجميلة ووجهها الملائكي وهي ترتدي معطفاً قطنياً قريباً للأصفر أشبه بفراء ثعلب صغير تغلقُ المعطف بأزرارٍ بنية اللون سميكة وكبيرة، وجينز شديد الزرقة وحذاء قطني بلون معطفها تدسُ به قدميها الناعمتين، وقفازين أبيضين، للمعطفِ خوذة رأسية تغطي بها رأسها بينما شعرها الذي يغطي نصف وجهها ما زال يتمايل مع الريح لكنها مهدت له قليلاً وهي تحاول انسحابه مبتعداً عن خدها، لكني لم أرَ ما تخفيه بصورة تامة، كما العادة صورةٌ بنصف وجه لكنها كانت جميلة جداً بينما يشاكسها الثلج وهو يحط على معطفها وفوق رأسها وهي تقف بالقرب من مدخل المركز التجاري، لذتُ بصمتي وأنا أطالع الصورة وكأني بالقرب منها أو قريبٌ أقف لجوارها وكم تمنيت أن أكون اللحظة بالقرب منها فعلاً.

رسالةٌ تطرق باب صمتي وتفكيري وصلتني منها..

- **هيا اذهبْ لبرنامج المحادثة سترى كلَ شيء، سترى ما تحب، افتح الكاميرا، واستعد لما تراه مني..**

كانتْ تقول هذا بكل ثقة لي وهي ترسل رسائلها بلا تردد أو خوف من أي شيء، شعرتُ أنا بالخوف، ماذا ستكشف لي؟ ما تخفيه خلف شعرها المائل؟ ترددتُ قليلاً، لكني استسلمت أخيراً لكل شيء وفتحنا كلانا برنامج المحادثة وعبر الكاميرا بدتْ لي كقديسة ملائكية وأنا أسمع خلفها صوتاً هامساً لي من بعيد لفيروز (أنا لحبيبي وحبيبي لألي) وانبريتُ متحدثاً لها:

- **قمة الجمال.. حلوة أنت جداً، سأظلمك أن قلتُ بأنكِ الشمس التي تشرق بدجى الليل خلافاً لكل قوانين الطبيعة، بل أنت أجمل من الشمس والقمر وإن اجتمعا.**
- **ومن يقول؟..** سألتْ بدلعٍ وغنج.
- **أنا العاشق المجنون.**

كانتْ تبتسمُ والابتسامةُ ترسم هلالاً جميلاً متزناً يكشف عن غمازتين حيويتين قاتلتين ترتسمان على وجنتيها البيضاوَين، إلا أن الشعرَ ما زال يخفي ما فوق الغمازة.

- **يا لها من ابتسامة قاتلة، كم أعشق هذه الابتسامة.**
- **ولِمَ العشق؟**
- **لأنها تذكرني بدعاء أمي، فبدعائها ما زلتُ أحيا وبحيوية ابتسامتك وعذوبتها سأعيش الدهر كلّه.**
- **ما رأيكَ أن أستبدل عيني بعدسة زرقاء، دائماً ما استخدمهما عندما أخرج في نزهة أو بدعوة عشاء، أو حين أكون على موعدٍ.**

عيناكِ جميلتان بلا عدسات، بل كما خلقهما الله، هكذا أجمل، لأنهما يحويان سحر موسى، كانت تكشفُ عن ساقين عاريتين بيضاوين، وزندين ثلجيين، وصدر يدهش الناظر وأسفل الصدرِ ظلّ عميق لشيئين ملتصقين قاتلين، ثمة صليب يتدلى كجرس كنيسةٍ كلما أرى ساقية النهدين، تُشعلُ فيّ مكامن اللذة، وتطفو لدي أمارات الغزلِ والألم التي تجعلني أكتب أسطورة للحب، أنا وهي بطلاها.. واستفزتني صورتها وأنشدتُ قائلاً:

- **سأتخذ من جسدك صليباً لأصلب عليه**

  وسأكون مسيحاً جديداً

  تهوي أفئدة المحبين إليه

  فأنا المصلوب بين يديك

  فارحمي يا سيدتي

  ضعفي وذلّي

وتبادرني على الفور قائلةً لي:

- **ما رأيك بثوبي الجديد.**
- **جميل جداً، لكني ما عهدتك هكذا، لا أريد أن تكشفي لي عن كل هذا، بل سأراهُ في مكان ما، من يدري قد نلتقي ذات يوم أو نكون على سرير واحد وفوق فراشٍ أبيض كالثلج، كل شيء في هذه الدنيا ممكن، لا تستغربي، حتماً سنلتقي، لديّ شعورٌ بذلك، دعيني أتشوق**

أكثر فأكثر لك، لا تقتلي فيّ عذوبة الاشتياق، عديني أن لا أراك بعد اليوم بهذه الملابس.

- **اشتريتها الآن من السوق من أجل أن تراني بها، لكن ما دمتَ لا تحبني هكذا أعدكَ بأن لا تراني بها بعد اليوم.. لك ذلك.**

كانتْ تحاول جري إلى أشياء بعيدة عما تخفيه خلف شعرها، لكني وخزتها بكلمة قائلاً:

- **لا تحاولي الهروب مني فأنت الآن أمامي وبين يديّ، هيا افتحي قلبكِ لي ولا تخشي شيئاً..**

كانتْ تجلسُ بصمتْ وأنا أراها تترددُ بين أن تكشفَ لي أو لا تكشف، كانتْ يدُها تمسكُ بشعراتها المنسدلة كالليل الأسود، أصابعها ترتجف وثمة انكسار بات يطفو على عينها الظاهرة وذبول دبَّ بشفتيها وتغيرت تفاصيل النصف الظاهر تماماً، كان ترددها يذكرني بمقاتلٍ يمسكُ ببندقيتهِ ليصوبها باتجاه لوركا، كان الجندي يتردد وهو يشاهد لوركا يطلق آخر ما تبقى لديه من قصائد شعرٍ تجاه فوهة البندقية، ينتظرُ الرصاصة لتريحه من كابوس الشعر الذي أوصله لهذه الحالة، بينما يشعرُ المقاتل بهول المنظر وهو يُردي لوركا صريعاً مضرجاً بالدماء ناثراً دماءه على الأرض، كنتُ أنا المقاتل الذي يصوب عينهُ تجاهها وكانتْ هي لوركا التي تنتظر رصاصة الرفض التي تخرجُ من عيني، لكنها تشجعتْ رافعةً شعرها المنسدل على عينها إلى الوراء كاشفةً لي النصف الآخر من وجهها، كان وجهها خالياً من أية تعابير، لا يوصفُ أبداً، تسمرتُ في مكاني وانتصبتُ جالساً بعد أن كنتُ ممدداً وبات جسمي ينزفُ عرقاً على الرغم من برودة الجو، أحسستُ بضيقٍ وكأن يداً تطبقُ على عنقي تخنقني حاولتُ التنفس لكني ما استطعت، أردتُ أن أبين لها غير الذي بدا على وجهي لكني ما استطعت، كشرتُ عن أسناني متظاهراً لها بابتسامة صفراء كاذبة محاولاً تجاهل كل شيء.. ما استطعت، أردتُ أن أنطق ولو بكلمةٍ واحدةٍ، لكنما شفتاي لم تنبسا ببنتِ شفة، نعم أتذكر أنهما تحركتا إلا أن الصوت كان حبيس صدري، كانتْ هي تنتظر ردة فعلي، تطالع وجهي، أرادتني أن أتكلم، فاستقرأتْ في عينيّ علامات الانبهار والاندهاش، وفي وجهي علامات الرفض لها، ولساني المرتبك ما زال معقوداً، يا ربي احلل عقدة من لساني، هكذا تحولتُ بسرعة الضوء إلى إنسان مصاب بصدمة نفسية أفقدته النطق والحديث، مشاعر الحب التي كنتُ أبادلها إياها تبخرتْ، كقطرات الندى التي تنزلُ ليلاً على عشبٍ أخضر غض وتتبخرُ مع بداية إشراق الشمس عليها، نعم لقد تبخر كل ما كنتُ أضمرهُ لها في قلبي بلحظة نفسية، انقلبتُ بدرجة 180، كما أحببتها بنظرة واحدة تغيرَ كل شيء بنظرة واحدة أيضاً، كانت هي تلاحظُ دهشتي وسكوتي، كنتُ أشبهَ بجثةٍ غضة ممددة مطروحة على لوح خشبي، كانتْ هي تراقب كل شيء، سكناتي وهدوئي، صرختْ بوجهي وانتفضت باكيةً، وقطعتْ الاتصال معي وأغلقتْ كامرتها وحاسوبها ورحلتْ، كانتْ هذه الليلة تمرُّ بثقلٍ كبير وأنا أتذكر ما رأيت، نعم كنتُ أبكي تحت فراشي وأنتحب، كنتُ أختنقُ بعبرتي، ما زالتْ يدٌ تمسكُ بعنقي تخنقني، حاولتُ الصراخ أكثر من مرة ما استطعت أبداً، أتذكرُ فقط أن وسادتي ابتلتْ بالدموع، كانتْ عيناي تنزفان ألماً وحزناً كلما تباغتني صورة بقيت عالقة في مخيلتي، وشعرتُ بخطأي حين أرغمتها على كشف ما تبقى من النصف الآخر من وجهها المزهر كالشمس، لم أستطع النوم تلك الليلة فقط عيناي كانتا تستديران باتجاهات مختلفة كبوصلةٍ أصابها العطب، وبقيتُ حتى الصباح أجلسُ القرفصاء تحت غطائي الذي يدثرني، كانتْ أمي تستقبل الصباح بالصلاة على محمدٍ وآله وصحبه الميامين، تكثرُ من الاستغفار، كنتُ أسمعُ صوتها، أشعرُ بالأمان حينما يسري صدى صوتها كالنغمِ يخفقُ بأعماق روحي المبعثرة على رصيف الحزن، أنفض الغطاء عني، أتوكأ على الأرض رافعاً قامتي المحدودبة منتصباً بتوتر، سائراً بخطواتٍ وئيدة متثاقلة جداً نحو الصنبور مبللاً وجهي بالماء البارد، أفزُّ مع أول رشفةٍ لوجهي يرتشفها من الماء المثلج المجمد برأس الصنبور الحديدي وأصحو، تستقبلني أمي بصباحها الملائكي بفوطتها البيضاء ملقيةً التحية الصباحية، أقبلُ يدها وتنسابُ إلى صدري طمأنينة تهدئ من روعي، تستغربُ أمي من عدم ذهابي لعملي في السوق، قائلةً لي:

- **يمه اليوم شو ما رايح للشغل..**

كانتْ تطلق عبارتها التساؤلية بفتورٍ هائل، وقلب بارد، ومزاج مرتاح.

- **يمه.. اليوم أحس نفسي تعبان، يمكن مريض..**

أجبتها بهدوء أشبه بمريضٍ لا يقوى على الحديث..

وتفحصتْ جبهتي، لكنها كانت تبتسم وتقول:

- **ما بيك شي، هذا أشوية دلال زايد..**

وما أن أحضرتْ فطورها الصباحي حتى أمسكتْ بيدها كوب الشاي لتضعه أمامي لكني ما استطعت أن أضع أي شيء بفمي حتى شراهتي اليومية في الأكل اختلفتْ تماماً، وما أن انتصف النهار حتى بات القلق يذوب شيئاً فشيئاً وعاد لي مزاجي بالتدريج، وأيقنتُ أن الحب الذي يكمنُ في قلبي حتماً سيتغلبُ على الصورة التي رأيتها ليلة البارحة، وشعرت بندم يأكل هامتي يقتلني، المرأة التي أحببتها بشغف كبير، الأنثى التي تعلقتُ بها منذ أن رأيتها، أيعقل أنَّ أنفر منها بهذه الصورة؟، المشاعرُ أن اشتبكتْ بالمشاعر لا يهمها الشكل والمواصفات، لا أدري لِمَ ضميري بات يؤنبني لما اقترفتهُ معها ليلة البارحة، لا أدري هل ستسامحني على ما فعلتهُ بحقها أو ما نوهتُ لها بوجهي وملامحي التي باتت تفضحني وأنا أطالعها كالأبكم والأصم الذي لا يفقه أي شيء مما يدور حوله، استغفرتُ ربي كثيراً وأنا أشعر بالذنبِ يساورني، وعلى الفور حينما عدتُ لطبيعتي بعثتُ لها برسائل غرام وكأن شيئاً لم يكن، واستسلمتُ لما رأيتهُ ليلة البارحة، وأغرقتها برسائل صباحية، لم يكن لي مزاج لأكتبَ بيدي بل استعنت ببعض الكلمات واقتطعتُ من هنا وهناك جملاً وعبارات وحاولت ترتيب مقطوعات نثرية، لأبعثها لماريا التي أرهقتني على مدار أكثر من عام كنتُ أحاول فيها اكتشاف سر النصف الآخر من وجهها..

- **كنتُ أتتبع أثر القمر**

وبحثتُ طويلا عنه

لم أكن أعلم أن القمر سيزورني ذات ليلةٍ

كم جميل هذا الصباح وأنا افتتح يومي بوجهٍ صبوح

أجمل الصباحات ذاك الذي يمر من بين يديكِ ويحمل إليّ أنفاسك العذبة

صباح الخيرات حبيبتي ماريا.. صباح الورد يا سيدة الورد..

ثم أتبعتها برسالة أخرى بعد هذه الرسالة..

- **خلف هذا الخوف المبعثر لمدينتي، ثمة قلب يتأرجح يبحث عن كيانه الممزق، إنّي أبحثُ عنكِ أميرتي، حين رحلتِ ليلة البارحة، أخذتُ شيئاً من عطركِ الذي كنتُ أحتفظ به في رئتي، لكني لم أكن أعلم يوماً ما، أنّي سأنسى روحي هناك، على أعتاب بوابة فرنسا لأعود وحيداً من دونك، وها أنا الآن أستنشقُ بقايا عطرك المتراكم على أرصفة الذكريات، أميرتي، صغيرتي، حبيبتي، أنتظركِ الليلة وبشوق، أنتظركِ لأنني أحبكِ بصدق، لا يهمُ ما رأيتْ، فقط عودي لي، كما كنتِ..**

روحكِ أسعد...

بعدها أغلقتُ حاسوبي وتمددتُ حتى الرابعة عصراً، كنتُ كالجثة التي لا تحركُ ساكناً من شدة التعب بسبب عدم نومي ليلة البارحة.

(19)

على صراخ صوتُ أم فاضل نهضتُ وهي تخترق صالة الدار تبحثُ عني، كانتْ تقتربُ من غرفة نومي، طرقتْ الباب وصاحتْ بصوتها العذب الذي أرهقته السنون، تمغطتُ وتثاءبت وأزحتُ غبار النعاس عن عينيّ، كانتْ تقفُ لي بالباب ترتدي عباءتها السوداء وهي تطالعني بعينيها الخضراوين، كانتْ أمي تعدُ لها الفراش بغرفتها وهي تملأ المدفأة النفطية بالنفط النافد منها بعد تسرب الرائحة التي تملأ جو المكان المكتظ بالبرودة، كانت أم فاضل تحكمُ قبضة يديها المشتبكين ببعضهما البعض نافخة من جوفها هواءً دافئاً يخرج من صدرها وهي توجهُ خطابها لي..

- **شو صارلك كم يوم ما أشوفك، هيج البرد يخليك ما تطلع؟..**

كانت توجهُ كلماتها التي أدركتُ أن شيئاً وطلباً ينتظرني خلف عبارتها بعدم رؤيتي لها منذ أيام بسبب البرد الذي يجتاح الزقاق ويكادُ يبتلع المارة كلهم وهم يلوذون بالجدران الهرمة هرباً من تيارات الهواء المثلجة، فقد كانت في الصيف تقف بالباب وأحيانا تجلس عند العتبةِ ترمق المارة وتنتظرني، أما الآن فلا تستطيع ذلك لبرودة الجو، اقتربتْ مني حينما نادتها أمي بصوتٍ عالٍ طالبةً منها الجلوس بالغرفة، وبصوتٍ منخفض قالتْ لي:

- **مثل كل مرة چيب البخور والزعفران ومو تنسى البخور الهندي والزعفران الأصفهاني..**

وهززتُ رأسي لها دليل موافقتي على طلبها، أدارتْ لي ظهرها وتوجهتْ صوب غرفة أمي ليغرقا بحكايات الزمن القديم واستنطاق الماضي والنبش في أيام خلت وذكريات تخلدها الحكايات، ويأخذهن الحديث حتى مغيب الشمس وينسينَ أنفسهنّ بصخب الثرثرات التي لا طائل منها سوى تلوين الوقت بألوان زاهية يقضيانها معاً.

أذان المغرب يحلق بالسماء بصوت منشدهِ، رحلتْ أم فاضل بعد أن تبعتها الريح وهي تراقص عباءتها السوداء وتنثرها أمامها، كانتْ تسيرُ على قدميها بمساعدة الريح لها، كنتُ أراقبها وهي تسيرُ مبتعدةً حيث منزلها، وما أن تتوضأ أمي وتستعدَّ للوقوف بين يدي الله خاشعةً وهي ترتل سورة الحمد بصوتها وتتبعها بـ (قل هو الله أحد)، تركعُ ثم تسجدُ وتتشهدُ وتسلمُ، حتى تعد العشاء لنا وما أن تكملَهُ حتى تغسل أطباقنا القليلة بيديها المجعدتين التي تختزن بها الآم السنين كلها، ثم تستسلمُ للنوم وتنام، وأختلي أنا بغرفتي وفراشي وغطائي وأتمدد وأفتح حاسوبي، وأرى ثمة رسالة واردة لي في صندوقي الجميل الذي يضم رسائل متعددة، لكني أفاجَأ بأنها من صديق أضافني قبل مدة ليست بالبعيدة يعملُ عتالاً في سوق الشورجة، كانت الدنيا تسودُ بعيني وأنا لم أرَ لها أية رسالة ورادة، كان رزاق يبعثُها ويغدقُ عليّ بها وأنا كنتُ أتذمر من كل رسائلهِ الواصلة لي، كان فرحاً بهاتفه الذكي الجديد وهو يرى التكنولوجيا إلى أي مدى وصلت، تقربُ البعيد ومن كان يختفي خلف المحيطات والبحار ليكون قريباً بل لصيقاً بنا، لعنتُ حظي العاثر وأنا أراه يكدس الرسائل كمن يكدسُ الحمولة المفرغة من الشاحنات في مخازنها، بينما أنا أتصارع مع هذا الصديق الأبله وهو يشحنُ ذائقتي بأشياء لا علاقة لي بها كصورٍ سخيفةٍ لقرود وعليها تعليقات ساخرة من الوضع الذي يمر به العراق،

وصور أخرى وكتابات كثيرة وشخبطات ساذجة جداً، وندمت لأنني قبلتُ صداقته، ما التفتُ بعدها لرسائلهِ التي كان يبعثها لي، وأخذ يكدسها لكني لم أكن أدرك أن ثمة رسائل لماريا كانتْ ترسلها لي، تتكدس وأنا أتذمر، تصاعد غضبي تجاهه وأقسمتُ على حذفه من صداقتي، وفوجئتُ بأنها هي من كانت ترسل لي هذه الرسائل..

- **أنا أعلم أن قلبكَ الأبيض الشفاف**

الذي كالماءِ الزلال لا يقصدُ التجريح أو الإساءة

لذا حبيبي قد عفوت عنكَ

لأنني أحبكَ

وأردفتْ خلفها رسائل أخرى لم أكن أعلم أن الرسائل المكدسة لها وليست للساذج رزاق، كان الوقت الذي أرسلتْ به الرسائل أكثر من عشرين دقيقةً بينما هي تراني موجوداً على شبكة الإنترنت لكني لم ألتفت لها ولرسائلها وأعقبتْ بعد الأولى رسالة ثانية..

- **أحتاجكَ الآن**

لكن لا سبيل لدقِّ بابكَ

بعد الآن

ربما شعرتْ باليأس وهي تراني لم ألتفتْ لها مطلقاً لكني بادرتها بسرعة الضوء، باعثاً لها برسائلي قائلاً لها:

- **مساء المسك والعنبر.. يا روحي ومهجتي وقلبي.**

وبعثتْ لي وكأنها كانت تراقب الرسائل أو تنتظر مني مبادرتها بالحديث..

- **أنا زعلانة منك، أصبتني بالإحباط وأنا أرى الكلمات باتت تتعثر فوق شفتيك، وانساب إلى مسمعي أشبه بصوتٍ قادم من مجهول أو صدى تردد لأكثر من مرة في أذني، هو الهارب لا تصرخي بعد اليوم، لن يلتفت إليكِ، احتسبيه عندِ الرب، لا تحزني، لا تيأسي، وتفجرتْ هذه الكلمات في قرارة نفسي، ورفعتُ كفيّ متوسلةً بالعذراء والسيد المسيح، أن يمنحني إياكَ، لن أجازف بعد اليوم بغيركَ، فكل الذين تقربوا مني هربوا حينما اكتشفوا ما كان يختبئ خلف هذه الشعرات المنزلقة من رأسي، ثق لن أجبرك أبداً لك أن تغادر وترحل أو تبقى، لك ما تشاء..**

كانتْ تقولها بألم وحسرة، وثمة حزنٍ مزق تفاصيل وجهها، ولاذت خضرة عينيها خلف دموع تجري بحرارة، كنتُ أستمعُ وأشعر بالذنب لما اقترفته ليلة البارحة بحقها، وحاولتُ أن أبدد الأسى المنثور فوق وجهها الذي يحيله إلى لوحة سوداوية، كان وجهها أشبه بجدارٍ يحمل فوق أكتافه أسماء الموتى، تبسمتُ وحاولتُ أن أحبس التنهيدة في جوفي لئلا تراني بما رأتني عليه ليلة البارحة، قائلاً لها:

- **ماريا ومن قال إني سأتركك؟**

- **هذا ما شعرتُ به ليلة البارحة، لقد كانتْ تضاريس وجهكَ هي ذاتها التي بانتْ على وجهِ (ايشو) الذي كان يحبني لدرجة الموت، لكنه بعد أن رآني بهذه الهيئة، تبدلتْ كل مشاعره وما عاد (ايشو) الذي أعرفه أبداً صار حبه لي ينسلخُ تدريجياً من قلبه إلى أن جاء اليوم ورحل بعيداً عني، فقد رحل كلانا باتجاهين متعاكسين، أنا مع أمي ومجموعة من الفارين من الجحيم قدمنا هنا إلى فرنسا وتناثرنا ببقاعها وهو فضل الهروب إلى السويد مع**

مجموعة أخرى من الناجين من مجزرة سيدة النجاة.

- **ربما صُدِمتُ نعم، لكنما حبكِ تغلغل إلى قلبي رغماً عني، وهل لي بمفارقة أنثى أشبهُ بنخلة جنوبية تتجذرُ بقوةٍ في أقصى الجنوب لتعانق الشمس، ناشرةً ظلها، ليستظل بها العاشقون، هذه الشعرات المنزلقة تذكرني بسعفاتها الخضراء، نعم.. فعلى وجهكِ يلتمعُ الجنوب، فتصرخُ الملائكة ويضجُ العباد يا الله أنجدنا، وها أنا أطلب الصفح منكِ سيدتي.**
- **هل تعلمُ ما سرّ هذا النحت الذي يؤطرُ وجنتي وهذه العين الاصطناعية البلاستيكية التي بالقرب منها، هذا ما جنيته من حبي للعراق، هل تعلم أن لحبه ضريبة، وها نحن ندفع ثمنها، سيأتي الدور على العراقيين كلهم الذين يعشقون عراقيتهم وينتمون إليها، هذا ما حصل لي وأهداني إياه شخصٌ نتن فَجَّرَ جثتَهُ العفنة في كنيسة سيدة النجاة، أنا أخذتُ هذا الوشم على نصف وجهي وأهديتُ عيني للعذراء، وأمي فقدتْ أطرافها السفلى لتصبح لصيقة عربة حديدية، وأما أبي فقد رحل مع الراحلين صوب الرب محلقين في السماء، نحن شعبٌ يدفعُ ضريبة للجالسين على دفة الحكم، إنّا نمنحهم أرواحنا مقابل أن يبقوا على كراسيهم..**

قالتها وعلامات الحزن ارتسمتْ على وجهها ومحياها.

- **لا تبتئسي يا أميرتي، إني على العهدِ الذي قطعته مع قلبي مذ رأيتُ نصف وجهٍ عبر صفحتك الشخصية وتعلقتُ به حدّ الثمالة، أنتِ الحبيبةُ التي أتمنى أن أتملكها وأتغلغل في جسدها وروحها وكيانها وعقلها وكل شيء فيها حتى الشبق وانقطاع النفس.**

أحسستُ بارتياحٍ بات يتغلغل إلى صدرها لتطرد علامات الذبول التي أرقتها وإمارات الجمود التي ارتسمت على وجهها، كانتْ تقربُ هاتفها من يدها وهي تسمعني أغنيةً للجيل القديم، لزمن الصفاء والنقاء للفنان قحطان العطار، كانتْ تقول لي:

- **أستمع ولا تتحدث فكلانا أنا وأنت بحضرة العطار وعندما يتحدث علينا أن ننصت له بكل حب ومودة، دعنا نستمعْ كلانا لهذا الصوت العذب فأنا أحتاجه الآن، إني أشتهي العراق يا أسعد..**

وما أن بدأتْ الموسيقى تنثرُ ألحانها حتى شعرتُ بماءٍ بارد ينزلُ على قلبي، هي كانتْ تتمايل برأسها فرحةً تراقص الإيقاع الموسيقي للنغمات الشجية، وباتَ العطار يسردُ لنا شجونه الغنائية بلهجته الجنوبية العراقية

(ايگولون غني بفرح..

وأنا الهموم أغناي

بهيمه ازرعوني ومشوا وعزوا عليه الماي

نوبه انطفي ونوبه اشب تايه بنص الدرب

تايه وأخذني الهوى ..

دولاب فرني الوگت.. وخميت الولايات

الغربة صاروا هلي.. وخلاني الشمات

وما بين شوگ وصبر.. خلصن اسنين العمر .. يگولون غني بفرح

احرگ خطوط العتب وانثرها وي الريح

وانسى محاچي العشگ.. يابو شعر تسريح

والعمر شمعة انطفت.. وگل السوالف گضت.. ايگولون غني بفرح

جنت أنا أشوفك گمر.. وهلال من بعيد

ولمن وصلتكْ شفت حزنك بيوم العيد

وعرفتْ ظلمه العمر. وياك يالماتُمُرْ.. يگولون غني بفرح ..يگولون غني بفرح

كانتْ تنشدُ خلفهُ بصوتها الناعم، صوتها أشبه بنسمة هوائية عذبة تمرُّ كطيفٍ في يوم قائض شديد الحرارة، يا لهُ من ليلٍ جميل، نعم هو الليلُ بعينه، هو الليلُ حين يرقصُ ويغني، وينثرُ الأسى فوق جفني، حين تكتبُ السطور بدمعي، وترفرفُ الهموم بكلي، راياتُ الحزن كالنجوم تملأ .. كياني وروحي ونفسي وعقلي، من قال إني غدوت سراباً أو ضباباً بل ... ما زلتُ في دِماكِ وأصبحتِ أنتِ كل دمي، هل تعلمين أنك الآن تسرين مسرى الدم في شراييني، أية امرأة أنت تسرقين قلبي رغماً عني، وخاطبتها قائلاً:

- **كالشمس حين تظهر تلغي القمر وتشطب النجوم، كل شيء فيك بات يجذبني لدرجة الدهشة.**

وَصَمَتُ لبرهةٍ أطالعها وهي تبتسمُ، وغرقتُ بالصمت ولاذتْ كل تفاصيل روحي بالسكون، هكذا كنتُ بلا حراك، فقط كانتْ عيناي تبصران وأنفاسي تدخل إلى صدري وتخرج منها.. وانطلقتْ من عينها غمزة، وقالتْ:

- **أراكَ تطالعني بصمت؟ قل شيئاً.. تحدث!!**
- **اتركيني الليلة منشغلاً بك، لا تحولي جهة تفكيري عن الصمتْ، فأنا الآن أتيممُ بضوئك، وأتوضأ بوهج عينيك، ها أنا الآن أغمض عينيّ، أقتربُ من فمكِ، اشربُ منهُ عذباً زلالا، حاشا لله أن يردَ هذا الماء من فم يشع براءة.**
- **لكن على فمي ثمة قروح وجروح!!**
- **دعيني أُقبلْ كل جروحه، إني أفيضُ حباً لك يا مجنونتي، يا مَنْ مِنْ أجلها طلقت كل نساء الكون.**
- **لا أريد..** ثم أردفتْ قائلة:
- **أسعد.. أنت لا تحبني.. يا ليتني كنتُ أستطيعُ تقديمك للمحكمة لأشكوك للقاضي.**

كانتْ تستفزني بهذه الحروف، تحاول استدراج مشاعري، واستقطابي لأنزف شهداً من عبير الكلمات.. وأرسلتُ لها قصةً قصيرة كتبتها بعد أن غبت لدقائق عنها وعنونتها بعنوان (المحكمة).

- **(المحكمة)**

محكمةٌ... قالها البواب بصوتٍ عالٍ، بعد أن وقفتُ كالمتهم أمام قاضي الحب، كنتُ أرتعش من شدة الخجلِ، وانتابتني لحظةُ عشقٍ، وأيقنتُ وقتها أنَي أقف أمام قاضٍ يعلمُ تماماً ما معنى الحب، ويتقنُ فنونه كما يتقنُ الفنانُ لوحته.

أنت متهمٌ لدينا، قالها بعد أن ارتسمت على محياه ابتسامة شفافة بلونِ الورد، تجمد الدمُ في عروقي وأحسستُ بدفقٍ شديدٍ له في وجهي..

وأردف قائلاً: قل شيئاً... تحدث.

تلعثمت الكلمات وماتت على أرض شفتيَّ الواسعتين، ودفنتُ كل شيء في مقبرة جوفي.

لا أجيدُ الحراكَ ولا الكلام، فبعض منهن ينظرن لي نظرة انتقام، فقد قتلتُ الكثيرات ممن تحمل الجمال تاجاً فوق رأسها، ووقفتُ خلف قضبان العشق أنتظر الحكم.

القاعةُ كبيرة، مليئة بالجواري الحسانِ من النساء، وأنا الخجول المسكين، كنتُ وقتئذ الملكَ بلا منازع على مملكة النساء، وكنتُ ملكاً بلا وزير أو مستشار، وكنتُ المدلل في عاصمتهن، أما الآن فأنا متهم بتهم كثيرة، سرقة قلوب بعضهن، وكنت سبباً رئيساً لانتحار الأخريات منهن، أما الآن فأنا أمام قاضي الحب ليحكم عليّ بما يحلو له أن يحكم، السجانات والجلادات والعاشقات كُثر، فهن ينتظرنَ الحُكم على عجالة، قالها القاضي أخيراً، بعد أن حلَّقتْ فوق رأسه فراشات بيضاء جميلة ترسم خارطة الحب وتحددُ حدود العشق، فقد ترجم لسانه ما يجود به قلبه... أيها المدلل رغم أنف النساء في مملكتهن، قالها والابتسامة تصل حتى صدغيه، قررت المحكمة بعد أن أطلعت على الأدلة المقدمة لها من العاشقات الكُثر... بالإعدام رمياً بالقُبَلِ حتى استرداد آخر قُبلة كنت أنت آخذاً بناصيتها..

- **هذه خيرُ محكمة رسمتها لمن أحب وأهوى، اقرئي محكمتي يا سيدتي، ولا تقولي بأن القاضي كان متحيزاً لي.. هيا اقرئي وأعطيني رأيك..**

وغابتْ لدقائقَ معدودات، غاصتْ بمحكمةٍ ما بين القاضي وسيد الغرام والجواري الحسان.. وخاطبتني برسالةٍ قائلة:

- **قرأتها الآن، لكن حكم القاضي لم يعجبني، وأردفتْ قائلةً: أنت عذابي وهمّي، دع عنك الماضي، قَبلني، ضمني بين ذراعيكَ، خبئني بين حدقاتِ عينيكَ، اجعل من صدركَ وسادةً أنثرُ عليها كل أحلامي وهمومي، أنا الكل، وأنا هي الحاضر والآتي..**

انظر لكلماتي، محكمتي.. ماذا قالت؟، فأيهما أحسن؟

- **محكمتكِ أحلى، إني مهووسٌ بها يا مجنونة، افتحي ذراعيكِ وضميني فالمساءُ آت وعند المساء تحلو اللقاءات.**
- **إني أشتاقكَ أيها المهووسُ بي، أشتاقكَ الآن..**
- **أتمنى أن تشتاقيني في اليوم ملايين المرات، بل مليارات المرات**

كان الليل يمرُ من غير أن نعلم كلانا وانغمسنا بحلاوة الحديث، صوتُ المؤذن تحمله الريح وأنا أخبئ حاسوبي ووجهي، أتدثر خوفاً من شدة البرد الذي يحتلُ المكان، كانتْ هي تضحكُ بملء فمها وأنا أتقرفص تحت غطائي بينما تأخذ راحتها على منضدتها الملمعة من الصاج الجميل وكرسيها الجلدي الأبيض مرتديةً قميصاً أبيضَ شفافاً يذوبُ ببياض الصدر، كانتْ خفيفة الحركة لا يضايقها البرد ولا الغطاء، تشعلُ جهاز التدفئة الحار الذي يذكرنا بلهيب شهر آب، إنّه لشعور جميل أن تتذكر هذا الشهر وأنت في شهر بارد جداً من أشهر السنة، تارة أرتجف وأخرى أنشغلُ بالنظر إليها وهي تمرح على كرسيها الجلدي الجميل.

السماءُ تتلبدُ بالغيوم، تختفي النجوم ويهرب القمر وتزدادُ العتمة، تمتلئ بطن السماء بالماء، تهبُ الريح تتدافع الغيمات فيما بينها ويتساقط المطر.

في بدايته الصباحية.. كان مطراً هادئاً خفيفاً، كنتُ ارتدي ملابسي بسرعة راكضاً في زقاقنا القديم قافزاً على البرك الصغيرة التي تجتمع على مسافات متقاربة فيما بينها خوفاً من ارتعاش الغيمات وهطول المطر بغزارة السيل، المطر يشتدُ وبقوة، تركض الناس تبحثُ عن مكانٍ آمن منه، ثمة مجنون كان يسير بمنتصف الرصيف وهو يتلقف المياه النازلة برأسه لتبتلَ كل ملابسه، ناداهُ شخص من الرصيف الآخر وهو يستتر بمظلة سوداء واضعاً إياها فوق رأسه: احمِ نفسك من المطر، وصاح المجنون..

- **المبلل ما يخاف من المطر..**

وقال آخر ضاحكاً:

- **خذوا الحكمة من أفواه المجانين..**

كنتُ أنا أستترُ بمعطفي القديم الذي يخبئ قلباً ما زال ينبض باسم ماريا، صورتها وحلو حديثها وشهد حروفها لم تغبْ عني مطلقاً وأنا أسير متوجهاً للشورجة متخذاً الطريق من الميدان باتجاه شارع المتنبي بمحاذاة المحلات القديمة. مياه الأمطار تغسل السوق الكبير باستثناء سوق الصفافير المسقف، كان العم عباس شاه يتخذ من دكانه الصغير مقراً ومخبأ له من تيارات الهواء الباردة التي تهب بعد المطر والتي تكون أشد برودة، كان يحتضن مدفأة علاء الدين النفطية القديمة وهي تقذف من فوهتها العليا بعضاً من لهبها المتصاعد الأزرق، اقتربتُ منه وهو يلتحفُ بمعطفه الثقيل الأسود، فلسعات البرد أجبرتني على الجلوس إلى جواره والاستماع إليه بينما السماء ما زالت تضج باكية تغسلُ بدموع عينيها وجه المدينة، ففي الوقت الذي تجهشُ فيه السماء بالبكاء تمتنع السيارات المفخخة والعبوات الناسفة من الانفجار احتراماً لدموعها، لا شيء أكثر أمناً من هذه اللحظة وهي تغدقُ علينا بقطرات مائها العذب، يتذبذبُ سقوط المطر فتارةً يصبحُ قوياً لدرجة ينزل على شكل كرات ثلجية بيضاء، وأخرى ينزل بهدوءٍ يعانق إسفلتَ الشارعِ الموغلَ بالوحل، كان العم عباس ينظرُ لي وأنا أنصتُ لتراتيل السماء وهي تعزفُ بقطراتها أجملَ مقطوعة سماوية نثرية..

- **أراك تنظرُ للمطر يا أسعد..**

كان يقولها وهو يمسك بيديه اللهب المتصاعد من فوهة مدفأة علاء الدين ويعصرُ أضلاعه الصغيرة بمعطفه الأسود الثقيل، بينما كنتُ منشغلاً بآخر قطرة مطر وهي تمرغُ نفسها بالشوارع المتشحة بالطين، والتفتُ إليه قائلاً:

- **يا عم لا أدري هل هذه السماء التي تغطينا تغطي مدينة ليون الآن؟ هل تمطرُ هناك؟ آآآه يا عم ليت هذه القطرات تتحول إلى حمامات زاجل بيضاء وتحمل رسائلي لمن أحبها في تلك البقعة من الأرض، إني أعشقها بجنون، لست أدري ما سرّ تعلقي بها منذ أن نظرت لصورتها أول مرة، كم أهوى أن أكون بالقرب منها الآن، ليتني كنت الآن وإياها ننظر من شرفةٍ في طابق علوي نجلس كلانا نتسامر نتبادل المشاعر، أصبحتُ لا أقوى على فراقها، ربما سأعيش مدى الدهر بحلمٍ لقائها، وحين أصحو لا أجد سوى بقايا حلم.**
- **إذن فأنتَ تعلقتَ بها لدرجة الجنون، كنتُ أعلم كل ما يدور بخلجات نفسك، لكني كنتُ في الوقت نفسه أنتظر اللحظة التي تصارحني بها، لا تقلُ عرافاً أو قارئ فنجان عادياً ولن أفصح لك من أكون لكن ستنبئك الأيام بذلك، لا يهم الآن..، وإن حققتُ لك ما تريد؟!!**

رد العم عباس وهو ما زال يداعب بأنامله الرقيقة اللهب الأزرق.. نعم كان ينبئني أحياناً بما يدور في

نفسي، وأحياناً أخرى كان يلوح بابتسامته كاشفاً عن أشياء أدخرها لي شخصياً لا يعلم بها سواي وماريا، لكنه كان يكتفي بالإشارة من بعيد وكأنه كان يقرأ ويسمع ما يدور بيننا..

- **وكيف تحقق لي وأنا كما تعلم لا أملك أي مبلغ يغطي نفقة السفر إلى فرنسا!! يا عم لا تجعلني محط سخرية لكلامكَ، أنتَ تعلم أن رزقي على قدرِ حالي، ما أجنيه من مهنة الحمالة لا يغطي حتى نفقاتي اليومية البسيطة!!**
- **إن أحببت أن تلتقي بها، سأفعل وأدلك على طريقٍ للقاء من تحب وتهوى.**

قالها بهدوء وثقة، وكأنه يدرك ما يقول بل مقتنع تماماً مما يعنيه، واستغربتُ من كلامه ولم أكن أدرك أنه كان صادقاً بهذا الخصوص..

- **حاول أن تُفهمني يا عم، كيف سألتقي بها؟ وأين؟ ومتى؟**

ثمة أسئلة محيرة زرعها العم عباس شاه، وأشياء غريبة تبحثُ عن إجابة وتوضيح، ما يقصد باللقاء، هل يتحدثُ بالحقيقة؟ أم بات يتحدثُ بلغة عشوائية؟

- **انتبه لي.. عليك بأشياء عدة تفعلها لتلتقي بمن تعشقها أو حتى تريد اللقاء بها، عليك باجتياز ثمانية اختبارات وبأماكن مختلفة للوصول إلي مدينةٍ تأويك وإياها، إن أحببت المقامرة إليها سأرشدك، وإلا فأقضِ وقتك معها بالحديث ليلاً مستمتعاً بعبارات الغزل الفضفاضة..**
- **كلا بل أنا مستعد لكل الاختبارات، ومهما كانت!!**
- **الاختبارات صعبة جداً، ناهيك عن مخاطر بعضها، فالخلل بالاختبار يعني الموت، يا أسعد، هل تدرك ما أقوله لك، أخشى عليك من الدخول في هذه المقامرة.**
- **وهل هناك أجمل من الموت من أجلها يا عم؟ أنا مستعد للموت، فالموت هو عربون حبي لها، نعم مستعد لأجلها أن أفعل كل شيء.. لكن قل لي متى أقامر وأجازف كما تقول؟؟..**

كان هادئاً متزناً وهو يمسك إبريقاً صغيراً مملوءًا بالماء واضعاً بيديه فيه ورق شاي أحمر، ملصقاً الإبريق بقمةِ المدفأة وبات اللهب الأزرق يلسع بمؤخرة الإبريق وهو يرددُ وينشدُ شعرا..

فتلكَ الـتي مـامَ الفـؤادُ بحـــبّها ... مهفــمفةً بيــضاءَ دُريَّةُ القــبـلْ

ولي ولها في النَّاس قولٌ وسمعةٌ ... ولي ولـــها في كلِّ ناحيةٍ مـَثلْ

ثم أردف قائلاً:

- **سنذهب كلانا اليوم للشيخ عبد الرحمن سيعلمك ويطلعك على كل شيء.. سنغلق المحل باكراً ونذهب فهو يحتلُ زاوية من زوايا الحضرة القادرية يسبحُ ويقرأ القرآن ويتهجد وينظر لهذه الدنيا بعين صوفية، لم يتبقَّ من المتشبثين بالنهج الصوفي إلا أنا وهو ولا أحد يعرف أسرار العشق الإلهي وحتى فلسفة الحياة والأرواح لا أحد يعرفها بقدرنا نحن الاثنين، فنحن آخر الصوفيين في بغداد.**

كنتُ أعدُ الدقائق والثواني على أمل لقاء الشيخ عبد الرحمن لأعرف كيفية اللقاء بماريا، على ما يبدو أن الأمر ليس بالسهل اليسير الذي أتصوره، أفكر أحياناً بالتردد وأحياناً أخرى أتشوق للقائها، كان العم عباس شاه يقربُ كوب الشاي من يدي بينما أغرق أنا ببحرٍ من الذكريات وبحجم الأسئلة التي أبحث لها عن أجوبة، ولم أدرك أن حرارة الكوب المقتربة من يدي تلسع أصابعي وتجعلني أفزّ منتبهاً مذعوراً من الخوف الذي بدد هلامية الأسئلة المجتمعة برأسي، كان العم عباس هو الآخر يرتشفُ من

كوبه مُغمضاً عينيه عن البخار الصاعد من حرارة الشاي.

وبعد أن أغرقت السماءُ الأرض انقطع المطر وهبتْ ريحٌ خفيفة باردةً، كان الغيم يسير مع الريح يساقُ إلى أماكن أخر لتنفرج أسارير هذا الكون، ومع الظهيرة تبدد وأصبحتْ السماءُ صافيةً تزينها شمسٌ خجولة، الأذان يرفع من المرقد المتواضع للحسين بن روح، كنتُ أنا أتنقل بين المحال لحمل بعض البضائع ومساعدة أصحاب الدكاكين الذين يرتبون أغراضهم المتكدسة في المخازن.

كان سمير يقفُ بباب دكان سردار وبولص، أنيقاً جميلاً بتسريحة جديدة وشعرٍ أشقر بفضل الأصباغ ومواد التجميل المنتشرة ووجهٍ ناعم وذراع بيضاء تسر الناظرين، يرتدي ملابس ضيقة وسواراً وقلادة، كنتُ ماراً بالقربِ من محلّه الذي يعمل فيه منذ أكثر من أربعة أشهر، وأوقفني ضاحكاً قائلاً:

- **أراك كما أنتَ لم تتغير للأحسن، كما تركناك منذ آخر مبلغ تقاسمناه سوية بتفريغ شاحنة كاكا جمال، الجميع تغيروا واستبدلوا أعمالهم سواك وحدك، لم تتغير أبداً، فمحمود أصبح رجلاً عسكرياً يدافع عن الوطن، وسامي الآن يرتشف من العاهرات كأس النشوة بعد أن أصبح نادلاً يوزع أكواب الخمر وزجاجات البيرة على طاولات السكارى، أما علاء وصالح فقد شقا طريقهما في هذا السوق الكبير، وأنت كما أنت أصبحتَ تتنقل من دكانٍ إلى آخر!!..**

تبسمتُ وأنا أقترب منه قائلاً:

- **لا تخفْ إنَّ الله يرزق من يشاء بغير حساب، لي رزقٌ في هذه الدنيا لن يأكله غيري فاطمئن..**

كان الوقتُ يقتربُ من الثانية والنصف ظهراً، ففي هذا الوقت تبدأ الناس بالاستعداد لمغادرة السوق، توجهتُ للعم عباس شاه على أمل الذهاب معه للشيخ لفك أسرار اللقاء ومعرفة المقامرة والمجازفة التي لَمَحَ لي بها، رائحة الدخان المنبعثة من المدفأة بعد إخماد لهيبها وانطفائها تخنق دكانه الصغير وهو يغلق على المدفأة وأطباق الخوص والسلال وبقايا الفخاريات القديمة التي يركنها على رفوف خشبية في دكانه المتواضع البسيط.

(21)

انطلقنا أنا وهو نسير عبر الطريق المؤدي إلى بيته في ساحة الخلاني مروراً بالسوق العربي وكنيسة مريم العذراء ومن ثم عگد النصارى وحسينية جعفر أبو التمن وقبل أن نصل إلى البناية الكبيرة لأمانة بغداد، دخلنا أحد الفروع الضيقة لندخل بيتاً صغيراً ضمن البيوت القديمة المختفية خلف جامع الخلاني كنتُ أرى الحضرة القادرية وهي تنتصبُ بشموخ في هذا المكان القديم، طرق باباً خشبياً عتيقاً ودخل بمفرده، كان البيتُ يغوص بالأرض، وكنتُ أنا أنتظر بالخارج وألتفتُ يميناً ويساراً وانشغلتُ بهذه البيوت البالية التي كشرتْ جدرانها عن طابوقها المنخور.

- **اتفضل ابني.. اتفضل..**

قالها وهو يمسك بالباب من الداخل، شعرتُ بالخجل المفرط وأنا أعدُ خطواتي داخلاً الدار، دخلتُ ثم توقفتُ بالقرب منه، أغلقَ الباب وأمسكني من يدي وهو يبتسمُ بوجهي مردداً

- **البيت بيتك ابني.. لا تستحي.**

غرفة الضيوف صغيرةٌ جداً لا تتجاوز ثلاثة أمتار مربعة الشكل، لها باب خشبي هَرِم على شكل نصف دائرة من الأعلى، الجدران القديمة لها نكهة مميزة، وحروف متقطعة وكتابات غريبة وأشياء كأنها طلاسم وملصقات صفراء باهتة اللون، تعود لكتبٍ بالية يلصقها على الحائط بشريط لاصقٍ شفاف، وصورةٌ كبيرة لأسدٍ يجثو على ركبتيه وخلفهُ رجلان، كان الأسد يفترش الرمال وينظر لي بهدوء كبير.

- لا تستغرب مما تراه..

قالها العم عباس وهو يراني أنظر بلهفة واستغراب للجدار، وأنا أتفحص بعينيّ كل التحف النادرة القديمة من صورٍ وطلاسمَ أشبه بمخطوطات تعود لعهود قديمة..

- ما تلك يا عم؟..

وأشرت بإصبعي على ملصقٍ أشبه بمربعات متداخلة وحروف مقطعة وكتابات ما أنزل الله بها من سلطان، كلّ شيء فيها غريب، حاولتُ قراءتها لكن من دون جدوى، لا شيء يجعلني أفهم ما تعني.

- صفية.. يا صفية أعدي لنا الشاي على عجلٍ..

صاح عليها وهو يزمُ شفتيه رافعاً صوتهُ، لكنه لم يجبني على سؤالي ولهفتي في معرفة هذه الأشياء الغريبة، تأخرتْ قليلاً ثم عادتْ لتحملَ بين يديها صينية بلاستيكية وكوبين من الشاي، صفية زوجته التي لا تقلّ عنه سناً، تغطي رأسها بفوطة بيضاء طويلة أشبه بفوطة أم فاضل، وما أن وضعتْ الصينية على الأرض حتى قدم لي كوباً من شاي، كان يحتسي شايهُ الحار بنفسٍ عميق مصدراً صوتاً مزعجاً، ربما لخجلي المفرط الذي تملكني، شربتُ الشاي بهدوءٍ وتركتهُ للنصف وهو يقول لي:

- هيا أسرع أكمل ما تبقى من كوب شايك لئلا نتأخر على الشيخ..

فالشمس باتت تنحدرُ إلى الجهة الأخرى تعلن مغيبها وابتعادها نحو أفق آخر وعوالم أخر، الوقت يقترب من الرابعة عصراً، رائحة الهيل المنبعثة من الشاي الساخن تملأ أنوفنا عبقاً، كنا نستعدُ أنا وإياه للذهاب للشيخ وهو يعتكف بزاوية من زوايا الحضرة القادرية، بناء نادر وجدران من الطابوق الأثري القديم ومنارات عالية وقباب زرقاء وأخرى تتلون بحمرة الشمس الساقطة فوقها، ونخلةٌ سقط ناظريّ عليها في الداخل كانتْ تقفُ بشموخ وهيبة، دفوفٌ وتراتيل وموشحات وكلمات تتغنى بالنبي وأهل بيته متوسلين بالأولياء والصالحين، ثمة رجال بلحى طويلة وشعر أطول وحركات غريبة تتناغم مع قرع الطبول، مردّدين المديح خلف القارئ، من بين هذه المجموعة يبرز شخص يكون عرضة للعين تُغرَسُ برأسه سكاكين صغيرة حادة ويطرقُ أحدهم على السكاكين بمطرقةٍ من خشب، كان العم عباس يجرني من يدي وأنا أنظر لهم باستغراب ودهشة..

- من هؤلاء يا عم؟ ...

قلتها له بانبهار، فاغراً فمي مستغرباً من رجل تغرسُ برأسه سكاكين عديدة من دون أن تخرج منه قطرة دمٍ واحدة، والأغرب من كل هذا ذاك الرجل الذي يطرقُ بمطرقته الخشبية بلا ترددٍ أو خوفٍ أبداً.

- إنّهم الدراويش، إنّه الذوبان في الله، لا تتعجب فرحلتك أغرب وأعجب..

قالها وهو يجرُّ شفتيه باتجاهين متعاكسين، وتسللت إلى جوفي تساؤلات عديدة، أية وسيلة تلك التي تكون أغرب من سكاكين تنبت برأس رجل، وتغرسُ كما الشجرة، بلا ألم يشوبه أو دم يخرجُ منه، على ما يبدو أن رحلتي ليست بالسهلة!! كنّا نتوجه للداخل، بينما الأصوات تبتعدُ عناً رويداً رويدا ونحن نبحث عن الزاوية التي يأوي إليها الشيخ عبد الرحمن، ثمة شخص كان يجلس بمكان منزوٍ

بعيداً عن أعين الناس يتكِئُ على عمود رخامي ملتصق بأحد جدرانها، يجلس بمفرده في هذه الغرفة التي تعد من إيوانات الحضرة التي تخصص للمشايخ حصراً، يهمسُ لنفسه قارئاً مرتلاً وهو يطالع القرآن الكريم الذي بين يديه، يرتدي ملابس بسيطة لكنها تشعُ بياضاً وفوق رأسه عمامة بيضاء، ثمة ضوء يخرج من المكان الذي يجلس فيه ومسبحة ملقاة أمامه على الأرض، أحسَّ بقدومنا نحوه فصَدَّقَ وأغلقَ قرآنَهُ وقبلهُ ثم وضعهُ على جبينهِ ملتفتاً نحونا وهو يراني والعم عباس نقترب منه أكثر فأكثر..

- **السلام عليكم شيخنا الفاضل..**

قالها العمّ عباس وهو ما زال ممسكاً بيدي كطفلٍ صغير يخشى عليه من التيهِ والضياع في طريقٍ مكتظ بالناس، وردَّ عليه الشيخ السلام ثم ألقيتُ التحية عليه بعد أن أفلتُّ يدي بقوة من يد العم عباس، ماداً يدي اليمنى اتجاه الشيخ مصافحاً إياه، حاولتُ تقبيلها لكنه رفض وأبى وصاح أستغفر الله ومن كثرة استغفاره ظننتُ أنّني تجاوزت عليه من غير أن أعلم..

- **إنه الشاب الذي تحدثتُ لك عنه قبل أيام..**

قالها العم عباس وهو يجلس على ساقيه ويداه مسبلتان على فخذيه، كان الشيخ يطيل النظر متمتماً بشفتيه مردداً بعض الأشياء التي أجهلها وبلحيته البيضاء الطويلة يمررُ يدهُ الناعمةَ عليها يمسدها ويكررُ التمسيد، له نظرة ساحرة ومن خلال عينيهِ الكبيرتين شعرتُ بمخاطبته لي من غير أن يتفوه بأي شيء، ثم التفتَ إلى العم عباس قائلاً:

- **وهل هو على أتم الاستعداد لذلك؟**

وكان يقصدني بالحديث، ثم أردف:

- **هل أبلغته بالمخاطر التي ربما تحفُّ الطريق.**
- **نعم ألمحتُ له من بعيد بكل هذا، إلا أنه لا يعرف التفاصيل أبداً..**

قالها العم عباس وهو ما زال جاثماً على ركبتيه بأدب وخنوع.

- **بعد يومين سأعطيك كل شيء وسيعرف كل شيء..**

كان يوجه كلامه للعم عباس شاه، ثم التفت إليّ قائلاً:

- **عليك الاحتفاظ بالسر، وإلا سينتهي كل شيءٍ، ستخسرُ اللقاء والمدينة، ستخسرُ حتى أجمل اللحظات، كما أوصيكَ أيضا بأن من تدخلُ معكَ المدينة عليها الاحتفاظ بالسرّ نفسه.**

نصحني الشيخ بذلك بعد أن برز بياض عينيه بشكل مخيف، وشعرتُ أنني دخلتُ بعالم غريب لا حدود له، لكن تبادر إلى خيالي فضول عجيب لمعرفة كيف يمكن للخيال أن يصبح حقيقة، هل يضحكان عليّ أو يسخران مني بهذه الأشياء؟ أي عالم هذا الذي يسرقك من عالم حقيقي إلا شبه افتراضي، لكنهم يصرون على أنها الحقيقة بعينها، إذن عليّ الاستمرار حتى النهاية لن أخسر أي شيء، بل من يدري! ربما أدخل فعلاً إلى عالم تجهله كل الناس، وبتُّ أفكر إن التقينا لوحدنا أنا وماريا ماذا سأفعل بها، هل تقبلُ أن أمسك يدها؟ أو أزرع على وجنتيها قبلةً شفافة تنعش القلب، هل ستفرح إن اجتمعنا معاً؟ يا لي من غريب أحمق أخرق، سأوهم نفسي بالتصديق علني أجد الطريق فعلاً للوصول إليها، فمن أجلها سأصنع المعجزات، أدرك أنَّ المعجزات ضربٌ من ضروب الخيال، أو ربما شيءٌ من حلم، أو طيف، أو أيّ شيءٍ من هذا، لكنني سأستمر بكل هذا.

كان قارئ القرآن يصدح بصوته العذب قبل إعلان أذان المغرب، والتفت إلينا الشيخ قائلاً:

- **هيا توضأ واستعدا لصلاة المغرب..**

واعتذرت منه أنا لبعدِ الطريق ولقلق أمي عليّ لتأخري حتى هذه الساعة. فمن يتأخر عن موعد وصوله للبيت، يكتشفُ أهله فيما بعد أنه إحدى الجثث المركونة على رصيف من أرصفة مستشفى الكندي الذي تصطبغ بالدماء اليابسة، أو ربما في باحة الطب العدلي الذي يستقبل يومياً الكثير من الجثث التي لا تجد مكاناً آمناً لها بين رفوف الثلاجة المركزية، هذا إن بقيت جثة وإن لم تتقطع إلى ذرات متناثرة وسط الشارع.

(22)

سرتُ بسرعةٍ تاركاً العم عباس وهو يتوجه بخطواته الوئيدة الهادئة لصنابير المياه ليتوضأ، غادرتُ المكان بعد أن هدأتْ الدفوف وانفض الدراويش وما رأيتُ ذاك الشاب الذي زرع برأسه مجموعة من السكاكين، كلهم يستعدون للصلاة، ورحلتُ بعد أن بات الظلام يعتلي بالسماء رويداً رويداً، وما كان أمامي سوى أن أستأجر تاكسي يأخذني على وجه السرعة لمدينتي لئلا تشعر أمي بالقلق المفرط الذي بات يتصاعد إلى قلبها، فما اعتدتُ من ذي قبل أن أتأخر عليها وهي تعدُ دقائق انتظارها، حتما هي تقف الآن بالباب تراقب الطريق للاطمئنان عليّ، حتى أم فاضل هي الأخرى تقفُ خلف بابها تراوِدُ الطريق، تنتظر قدومَ خطواتي وهي تراقص الزقاق لتستأنس برائحة بخورها الهندي وزعفرانها الأصفهاني.

- **أنت درويش؟..**

قالها صاحب التاكسي، وأنا ألتقط أنفاسي الهاربة مني بعد أن سرتُ مسرعاً محاولاً اللحاق بالوقت.

- **كلا لست درويشاً أبداً..**

قلتها بغضبٍ وأنا أنظر له بعين متفحمة بعد أن رفعتُ أحد حاجبي للأعلى..

- **من قال لك هذا!!..**

نطقتها بارتباك وريبة، وشعرتُ أن هذه الكلمات خرجتْ من جوفي بسرعة هائلة لدرجةٍ أنه لم يفهم كلماتي المتدفقة المبعثرة من فمي على وجه السرعة.

- **أعتذر منك، أنا أسف، لم أقصد أن أزعجكَ أبداً، اهدأ..**

رد معتذراً عن سؤاله الذي كان شيئاً من فضول.. وأردف مستفسراً:

- **إن لم تكن درويشاً فما كنتَ تفعل في الحضرة القادرية، لا تنكر ذلك، أنا سمعت قرع الطبول قبل قليل وأصوات الدراويش كانت تعم المكان، هل أنت خائف مني؟ لا تخف، لن أهربَ بك إلى جهةٍ مجهولة، لستُ طائفياً ولستُ ممن يقتلون الناس بغير وجه حقّ، سأعترف لك بشيءٍ، أنا رجل لا يجيدُ حتى ذبح الدجاج، فلا تخف حتى وإن اختلفتُ معك بالطائفة والمذهب.**

- **ومن يقول ذلك؟..**

قلتها مقاطعاً كلامه، لئلا يرهقني بثرثرته الكثيرة، وأردفتُ:

- **لستُ خائفاً منك. أنا رجلٌ مسلمٌ وكفى، لا يهم انتمائي لأية طائفة أو مذهب.**

- **يقولون إن أولئك الدراويش يضحكون على الناس بتصرفاتهم الغريبة، ويستغفلون الناس البسيطة والسُذج ليغرسوا السكاكين في أماكن شتى من أجسادهم..**

كان يضحك بشراهة وهو يتحدث عن الدراويش ساخراً مستهزئاً منهم ومن تصرفاتهم وهم يمزجون كلماتهم بإيقاع الدف والطبل. وقلت له: احذر من السخرية، فإنَّ لهم جنوناً مسخرة تفتك بالمستهزئ، هذه الجنون كالجنود تحرسهم وتثأر لهم منك، لا تستغرب إن شعرتَ بعد أن أنزل من سيارتك وأنتَ تنظرُ بمرآتك الخلفية ثمة امرأة ترتدي عباءة سوداء، وحين تظفر فرِحاً بها كغنيمة، تحاول الاقتراب

منها والدنو، تكشف لك عن وجهها، لتكتشف وجهاً لامرأة كله شَعَر بعينين حمراوين ليستا بالعرض بل بالطول وأسنانٍ طويلة تتقاطر من أنيابها دماء حمراء، وهي تلقي عباءتها لتحضنك بين ذراعيها، وحين تكشف عنٍ ذراعيها تجد الشَعْرَ يتجمع على مفاتنها بكثافة، إذ لا جمال ولا رائحة ولا عبق فيها، ستحضنك وتصرخ بوجهك صرخة تمزق أذنيك فيها..

كان ينصتُ لي وهو يُكثرُ النظر لمرآته الخلفية، خائفاً من جنيةٍ تخرجُ له من تحت كراسي السيارة أو تظهر على الفور وفجأة من غير أن يشعر أو يعلم..

- **أصمت لا تخِفْني أكثر، فالعتمة والظلمة وهذا الليل الأسود وحده يكفي، فأخشى بعد أن تنزلَ من السيارة أن أتركها وأهرب خلفكَ..**

قالها وقد بانتْ معالم الخوف على وجهه وتبعثرتْ أغلب الحروف على شفتيه..

كنا نقترب من ساحة عدن، كل الطرق المؤدية للكاظمية مغلقة والشوارع المفتوحة تزدحم بها السيارات بكثرة، وبادرته لئلا يقف بطابور غير منتهٍ.

- **سأنزل هنا لا تهتم سأسير على قدمي، احذر لا تسِرْ في الطرق التي تقف بها المركبات بكثرة فلربما ثمة سيارة مفخخة تنفجر لتحرق الناس والمركبات جميعاً فإغلاق الطرق ينذِرُ بوجود سيارة مشبوهةٍ أو مفخخةٍ.**

- **لا تخف.. لي نصيب مما كتبه الله في ذلك..**

قالها بعد أن التفت يميناً ويساراً يفتشُ عن الجنية المخيفة التي ستفاجئه في أثناء سيره لوحده في مركبته.

- **لكن احذر من هذا المكان حين تقود مركبتك..**

وأشرت بأصبعي لمقعد سيارته الخلفي، كان القلق يأكل رأسه منذ أن سمع بقصة الجنية التي تظهر فجأة بالمركبات.

- **اغرب عني لعنة الله عليك لقد أخفتني بهذا الليل الكئيب..** قالها السائق متذمراً

أغلقتُ الباب وأنا أضحك من كلّ قلبي، رحل وهو يلعن حظه الذي قادني إليه، لكني ثأرت منه للدراويش بهذه القصة الخرافية التي ستجعله يلتفت طوال الطريق وينشغل بمقعد سيارته الخلفي.

من ساحة عدن كنت أتوجه باتجاه منطقة (الشوصة) في طريقي إلى الكاظمية.

(23)

- **أنت!! أنت!!..**

كان أحدهم يصرخُ خلفي.

- **ماذا تريد؟..**

أجبتهُ بعصبية ومزاج حاد، لكني لم أنتبه له، لأتيقن فيما بعد أنه أحد الجنود الذين يراقبون الطريق.

- **إلى أين تذهب؟..**

سألني وهو يمسك رشاشته مرتدياً ملابسه العسكرية ودرعه ومخازن الرصاص على صدره وخوذته الحربية وكل شيء.

- **أعتذر منك لم أنتبه لك أيها العسكري..**

قلتها له وهو يقترب مني.

- **لا عليك**.. أجاب وهو يبتسم بوجهي.
- **أريد الذهاب للبيت**.. قلتها بعد أن تنفست نفساً بارداً عميقاً.
- **لا تسلك هذا الاتجاه بل عليك بالاتجاه الآخر..**

وأشار بإصبعه صوب الطريق المؤدي لسجن العدالة.

- **لكن هذا الطريق بعيد**.. قلتها باندهاش واستغراب.
- **وهو الطريق الآمن الوحيد، عليك أن تسلكه ولا تقف هنا لئلا تتشظى العبوة الناسفة ويصلك منها شيء فيقتلك..**

ردَّ محاولاً منعي من الاستمرار بالسير بالاتجاه المختصر للوصول إلى بيتنا.

أغلب الناس تسير باتجاه الطريق الآمن للدخول للمدينة، الكل يتذمرون من الحالة، نصف ساعة شاقة جداً على قدميّ السالكتين للطريق، أم فاضل ترقب الطريق بالاتجاه القادم من ساحة العروبة إلى شارع المفيد ثم الدخول لزقاقنا الضيق، لكني فاجأتها بالدخول من طريق آخر غير السابق متخطياً برك المياه المتجمعة من المطر، فأغلب الطرق تؤدي لزقاقنا، لسعات الجو الباردة تجبرها بل وترغمها على الدخول، لكنها كانت تمد رأسها وما أن تشعر بلهيب البرد يلفح وجهها حتى تعاود الدخول إلى الداخل مرة أخرى.

باب أم فاضل لم يوصد تماماً بل كان ينتظر قدومي وعلى الفور طرقتهُ طرقتين كانتْ أصابعي تتجمد من شدة البرد وسمعتُ هسهسة نعلها وهي تقترب نحوي.

- **أين كنتَ حتى هذه اللحظة؟ ذهبتُ لمنزلك مرتين، أمك الأخرى قلقة جداً عليك، لِمَ لمْ تتصل بها على الأقل؟..**

سألتني وهي تشبك يديها على صدرها من شدة البرد.

- **امسكي يا خالة.. لا وقت لديّ للحديث. هذه أغراضك جلبتها معي، فالتعبُ يقتات على جسدي.**

أجبتها لئلا أطيل الوقوف ببابها، فالجو كان بارداً جداً كقطعة جليد لدرجة أن فكها العلوي كان يرتطمُ بالسفلي مقزقزةً بأسنانها، أدرتُ ظهري لها متوجها لبيتي، وفي البيت كانت أمي أكثر مخلوق في هذا الكون قلقاً عليّ..

- **لِمَ تأخرت حتى هذا الوقت؟ ! لِم لم تتصل بي؟ أما تدري أن الأوضاع مقلقة جداً هذه الأيام.**

كانتْ أمي تتحدثُ بخوف وهي تتذكرُ شريطاً سينمائياً يمر كالطيف في مخيلتها بدءاً من إعلان المأساة في العراق، الحرب العراقية الإيرانية، مروراً بإعدام إخوتي، موت أبي، احتلال العراق، غياب

الأمن، خراب ودمار وقتل عشوائي بشتى السبلِ والوسائل، كانت تتحدثُ معي بحرقةٍ بعد أن انسكبت الدموع من عينيها، شعرت بالأسى وأنا أرى دموعها تتحدر على وجنتيها..

- **أعتذر منك، نعم لقد تأخرت إلا أن تأخري كان لعملٍ في هذا الوقت، هيا يا أمي فأنا جائعٌ جداً ماذا أعددتِ من طعام..**

قلتها لها لأحاول تغيير مسار حديثها، كان التعب ينخر جسدي، وحين أعدتْ لي ما تبقى من طعام كانت تدخره منذ الظهيرة حتى تسلقتُ لغرفتي بعد أن تمددتْ أمي واستسلمتْ كعادتها لنومها المفرطً بدءاً من أول الليل، عانقت حاسوبي وكلي شغفٌ ولهفة وأنا انتظر هذا الحاسوب البطيء ليسرع كالبرق لأرى ما كانتْ تخبئه لي ماريا من رسائل اعتدتُ رؤيتها، وبثُّ لصيقها روحياً لا أفارقها قط، وشعرتُ أنني أعيش اللحظة معها وكأني بالقرب منها، وحين تسللَ إلى ناظريّ ازدحام رسائلها، هرولتُ مسرعاً وأنا أفتتحُ صندوق محبتها كاشفاً عن حروفها المعبَّأة بحاسوبي وما أن أرى الدر المنثور وبقايا صورها الجميلة حتى أشعر بأن الفرحة لا تسعني، وأن الكلمات تنسابُ مني من حيث لا أشعر أو أعلم، فأصبحُ وقتها شاعراً غريب الأطوار يكتبُ بحرفةٍ عالية لكن من دون أن يفقه بالوزن والقافية، إلا أنه يعشق ترتيب الحروف بأذنٍ موسيقية رائعة وإحساس مرهف، وحين تشبثتْ عيوني بكلماتها رحتُ أتفحص عذوبة الحرف وهو يفوحُ عطراً كما الياسمين...

- **آه يا أسعد، متى نلتقي؟ الاشتياق يقتلني، لا أخفيك سرًّا وكأن حبكَ تغلغل إلى قلبي..**

حين تقرأ رسالتي؛ أجب وعلى الفور فأنا بانتظارك..

وحين قرأتُ رسائلها، لا أعلم ما تملكني تجاهها من شعور غريب وخُيلَ لي بأن أجنحة تلتصق بظهري لتحملني إليها. يا ليتني كنتُ أملك البساط السحري أو فانوس علاء الدين ليحملني الآن وعلى وجه الفور ماردٌ عملاق على أكفهِ وهو يحلق بسرعة البرق في السماء، متى يحقق لي العم عباس شاه غايتي ومناي في الوصول إليها بعالم غريب وبعيد عن هذه العوالم الظاهرة للعيان، هل سآخذها وأختفي بعيداً عن كل هذا الضجيج الذّي يحيط بي وبها؟ هل حقاً سيحققُ لي العم عباس ما لم يكنُ بالخيال ولا الحسبان أم أن كل هذه الأشياء مجرد أوهام؟؟ لكني لا أشك به وهو الرجل الغريب الأطوار الذي يدخل في صخب النيران وأنا أشاهد أشلاء الجثث وهي تتطاير بالفضاء كأوراق الشجر حين يحين الخريف عليها فينفخُ الهواء فيها نفخته الأولى ليحيلها إلى أجساد بلا أرواح، كما أني لا أشكّ بالشيخ عبد الرحمن وهو يتخذُ زاوية من زوايا المرقد مكاناً له وأنا أشاهدُ بأمِ عيني كيف كان أحدهم يغرسُ نصل السكينة برأسه بلا وجع أو أي شيء من ألم.. وبعثتُ لها..

- **ربي سئمت الانتظار.. قل لي متى ألقاها، لقد قتلني الانتظار يا ماريا فأنا متعطش للقائكِ، سأرسم كل شيءٍ فيكِ، شكلكِ، وجهكِ، عينيكِ، وشفتيكِ، قبل أن أراك لأنني هكذا أحب أن أراكِ، سأرسمكِ وأعزفكِ لحناً على قيثارة شبعاد أيتها السومرية.. كل الناس تُجْمِعُ على أن المحرمات حرام سوى الدنو والاقتراب منك حلال، فالحبُ يحللُ كل هذا...**

وما أنْ أكملتُ رسائلي حتى باغتتني برسالة جميلة..

- **وأنا أبادلكَ الشعور نفسه. والله كم أتمنى أن تعشقني كما أعشقك، ففي كل ليلة حين تغادرني أشعر بأنني لا أستطيع فراقك يا أسعد، أحب أن تغزل لي من خيوط التعب قصائد وحكايات، هيّا الفظْ قصصك عليّ فأنا مشتاقةٌ للعراق وعطره وكل شيء فيه، الهيام يقتلني، لست أدري حنيني لك أم للعراق أم لشهد الحروف التي تنثرها دوماً ها هنا.**

- **العراقُ نقول بخير، لكنه عكس ذلك تماماً، كل شيء يسير بالمقلوب، الأمن والأمان محصور بقضاء الله وقدره..**

من منا لا يعرف إلى أي مأساة يسير العراق، حتى الرؤية فيه ضبابية، كانت ماريا تحب في كل لقاء بيننا أن نستذكر العراق لتستعيد من خلال ذلك صور الحنين المغروس بقلبها تجاه مسقط رأسها، فتارة تجرني بحديثها صوب السياسة وأخرى صوب الغرام، لتردفَ قائلةً:

- **أصبحتَ شاعراً من خلالِ حبكَ لي، متى أصحو لأراك تكتب كما يكتب السياب وتنشد بي أنشودة الحرف عوضاً عن أنشودة المطر، وتقول فيّ كلاماً لم يصل له السياب أو أمرؤ القيس أو حتى كبار الشعراء ممن تغزلوا بعشيقاتهم..**
- **اسمعي مني هذا الكلام ..**

حبيبتي.. ارحلي

واتركي لي قبل الرحيل

أشياء عدة

امنحيني سريرَكِ

واتركي عليهِ ثوبكِ

وبقايا عطركِ

وأحمر الشفاه

وافتحي النافذةَ

فسأدخلُ مع نسمةٍ باردةٍ

أو مع أولِ قطرةٍ من مطر

تنزلُ كدمعةٍ من عين السماء

وامنحيني قُبلةً بريئةً

كي ازرعها فوق الشفاه

لتنبت الزنابق

وتورق الكروم

- **أنا حاضرة لكل شيء إلا الرحيل يا أسعد فقد مللتُهُ، فرحيل العراق يكفيني وتريدني أن أرحل عنك، كلا وألف كلا أنا متشبثة بك وبالعراقي (لزگة جونسون).. ثم أردفتْ:**
- **تُرَتِلُك المشاعر، تطِرحُ عليك قرآن الكلمات.. فلترتلْ يا سيدي.. فلتنثر صوتكَ على بقاع جسدي.. ولتقبلني قبلةً تطيرُ لرؤيتها آلاف النساء.. فأنا المدللة في عاصمة قلبك..**

وسرحتُ الخيال بعيداً. ها أنا اسمع مقتطفات من آيات عشقها التي تطرب لها أذني، تهتزُ لها أطرافي، وتنقلها لي العاشقات على أكفِ اللهفة، آه من تلك التنهدات تسحرني أحياناً وتقتلني في كل الأوقات، حبيبتي.. وملهمتي.. ومعذبتي.. وقاتلتي.. وفاتنتي.. ها أنا أبوح بصمتٍ وأقول هيهات فهل يا ترى سيرتل القدر بوحي بقداسة صوتك.. بكل حبّ.. وأرسمُ بعد كل هذا قبلة على شباك الرغبات. دائماً تثير فضولي بحديثها، وتدفقتْ من جوارحي الكلمات من حيث لا أعلم، وأرسلتُ لها..

- **يا ربي، ما هذه الكلمات، مثيرة، تجعلني أكثر ولهاً لكِ، إنها مثيرة للغاية.... أحبكِ.**

- **وأنا أيضا أحبكَ**
- **امنحيني عطركِ**

فاليوم الذي لا أتنفسكِ به

أشعرُ بفقداني لحاسةِ شمي

فقد أدمنتُ حبكِ وهواك

- **الله.. الله، هل هذه الكلمات من قلبكَ؟**
- **أي وربِ السماء هي من قلبي، لكن لا أعلم كيف أرتبها هكذا، هي كلماتٌ تخرج على الفطرة يا ماريا**
- **أريدُ أن أسألكَ سؤالاً؟ هل تشعر في يومٍ ما أو ساعةٍ أو لحظة.. بأنك تودُ تركي والرحيل عني؟**
- **وهل هناك من مغفل يهرب ويتركُ سيدة الحسن والجمال، لا تدرين الآن كم اشتهي أن أشم عطرك لأغفو وأنام بين ذراعيك، أشعر أحياناً كثيرة بأنني قاسٍ جداً تجاهكِ، لأنني لا أمنحكِ الحب..**
- **كل هذه الكلمات التي تغدقُ عليّ بها ولا تمنحني الحب، على العكس إني أشعر بقلبك الناصع البياض وهو يفيض حباً تجاهي.**
- **لا أدري هو ثمة شعور يتملكني، فكلّما أرى البراءة بعينيكِ أشعر بالقسوة نحوكِ، هو شعور ليس إلا.. هل تعلمين أني اليوم أشعر بجنون ورغبة في أن أراك الآن فأنا تواق لكِ.**
- **أعلم ذلك طبعاً؛ لأنني البداية والنهاية.**

وحين بزغت لي عبر كاميرتها بوجهها الأزهري شعرتُ بقلبي يتراقص فرحاً بين أضلعي، التزمتُ الصمت وتوقفتْ أصابعي عن الحركة وأنا أشاهدها، وأغمضتُ عيني ورحتُ أحلمُ بكيفية اللقاء بها، يا ربي متى ألتقي بها؟ كيف يتسنى لي أن أضع يدي بيدها؟ وأطلقتُ كلمات وحروفاً ترجمها قلبي وعلى الفور..

- **أتعلمين أني أشتاقك بحجم الكون؟ شفتاكِ قافلةٌ من الشعرِ فمن أيّ بيت أبدأ بالقصيد، هيا اذهبي وضعي أحمر الشفاه، لأنني سأقبلكِ الليلة بشغف وحبّ.. للشفاه طعمُ خاص ففي رحيقهما السحر كلّه.**
- **وكيف تُقبلني وأنا وأنت تفصل بيننا آلاف المسافات، لا شيء بيننا سوى هذا العالم الافتراضي المليء بالصدق، لا أشك بصدق حبكَ لي، إلا أن كل ما بيننا من مشاعر هي مجرد افتراض، لا أعتقد بعد ما جنيته من العراق، أنني سأعود ذات يوم والأخطار تتوالى عليه يوماً بعد آخر، وقد مرت سنتان ونصف على رحيلي بعد مجزرة كنيسة سيدة النجاة، لا أعتقد أننا سنلتقي ذات يوم، بتُّ أشك بكل هذا، إلا اللهم تمتدُ يدٌ خفية لتنقذ العراق من هذه المخاطر التي تحيط به من كل صوب وجانب، ربما سنلتقي أنا وأنت في كنيسة سيدة النجاة أو الكاظمية أو أية بقعة جميلة تجمعنا من بقاع العراق، أو في الكرادة أو على حدائق أبي نؤاس، من يدري ربما نجلس كلانا في مطاعم كرسبي أو السيسبان، أو نلتقي بحدائق الزوراء، نقشر الموز ونرمي ثمارها لقرد يجلس في زاوية بعيدة من القفص المحجوز به، ربما نجلس تحت شجرةٍ بعيدة تهمس بأذني ..، تتلمس أصابعي، وتضعُ يدكَ على قلبي لتستقرئ دقاته التي لا تنقطع أبداً كلما نتحدثُ مع بعضنا... آه يا حبيبي إنَك تبعثر لي**

أفكاري إلى أيّ عالمٍ سرقتني أنت هذه الليلة.

كنتُ أطالعها وهي تتنهدُ عبر عباراتها وكلماتها وحروفها المنثورة برسائلها، هي تكتبُ لي وأنا أنظر لوجهها وعينيها، كلما ينعكس الضوء على شفتيها الحمراوين أشاهد بريقاً ولمعانا تهفو له روحي ويأخذني الشوق صوبهما وأغمض عيني وهي تسترسلُ برسائلها غير منتبهة لي، هي تكتبُ وأنا يأخذني السِحرُ، هي تكتبْ وأنا أقترب منها بخيالي الخصب الذي يذيب كل الحواجز بيننا.. وعلى حين غره سمعتُ صوتاً قادماً نحوها من بعيد..

- **ماريا.. يا ماريا وينك يا بنتي..**

وتفز منتبهةً لترد:

- **أي أمي جايه هسه..**
- **لحظة، لحظة هسه راجعه ما تروح وتهرب الليلة مني هههههه، أشوي وراجعه، راجعتلك، ماشي...**

كانت تقولها بعد أن لملمت أطراف قميصها المتهدل الذي يكشفُ عن صدرٍ كما الثلج يبرقُ بياضاً، يا ربي، أية حسناءٍ أنتِ.. قلتها لها وهي تركض باتجاه أمها، كانت أشد إثارة وهي تقف على قدميها ليهتز جسدها بإثارة غريبة وشكلها المغري الذي تنتفض له روحي.

تأخرت قليلاً بينما كنتُ أتفحص حروفها وأعيد قراءة كلماتها لي، شعرتُ بالنشوة تسري إلى جسدي وفكري وعقلي وأنا أعيدُ رسائلها الواحدة تلو الأخرى أقرأها بتمعن ودهشة، فكنتُ أتوقف كثيراً عند بعض العبارات وأسرحُ الخيال بعيداً وكأنها بالقرب مني، عادتْ بعد أنا حلقتُ وخيالي بها وبأنوثتها الجذابة وأنا أشعر بالدهشة واللذة في آن معاً .. عادتْ وهي تركضُ خلف أنفاسها اللاهثة.. قائلةً:

- **أسعد، عليّ الذهاب الآن والرحيل ربما أعود أو لا أعود، أمي تريد الخروج قليلاً بهذا الجو البارد، سأخرج بها، إلى أين لا أدري، لكن سنخرج قليلاً، لا تخف ليل ليون الفرنسية يختلف كل الاختلاف عن ليل العراق، فهنا في ليون مع اقتراب شهر ديسمبر من كل عام تستعد المدينة لمهرجان الأضواء، سنتنزه ربما حتى الصباح نشاهد الاستعدادات لهذا المهرجان الجميل، فثمة اختلاف كبير بين ليون والكرادة ففي ليون يستعد الناس لهذا الكرنفال الكبير الذي يُعْتبر من أكبر المهرجانات التي تَشْتَعِلُ فيه المدينة بالأضواء والأنوار، بينما في الكرادة نستعد في مثل هذه الأيام لإقامة أعياد المسيح، في ليون لا يهتم الناس بالأعياد كما نهتم بها في العراق بممارسة الطقوس الخاصة بنا، ربما علمانية الدولة الفرنسية هي من تجعل من الانتماء الديني هشاً، فأغلبهم غير مبالين للأعياد بل يعتبرون هذه الاحتفالات الضوئية هي بمثابة أعياد الميلاد، فقصة الاحتفال ما هي إلا تقليد عريق بدأ منذ حوالي 160 عاماً مع موكب الشموع والفوانيس الجذابة المضاءة تكريماً للسيدة المقدسة مريم العذراء، وتكمن خصوصية هذا الاحتفال في جذوره المتأصلة في المدينة، ففي عام 1852 قررت السلطات الدينية تكريم السيدة العذراء من خلال إقامة نصب لها في الكاتدرائية في 8 من شهر ديسمبر، إلا أن ظروفاً حالت دون ذلك وإقامة مشروع كهذا يعتبر من أكبر المشاريع وأضخمها، لذا فقد اختار الأهالي الثامن من ديسمبر لمرافقة التمثال رافعين الشموع والفوانيس، فتحول الحدث إلى احتفال سنوي، فمهرجان الأضواء لا يقلّ شأناً في مدينة ليون عن أعياد الميلاد المقامة في كل دول العالم.**

وأربكها صوت أمها وهي تصيح..

- **وينك يا بنتي..**

- **أي أمي جايه..**

تردُ على أمها وهي تغمز لي بعينها الجميلة ووجهها البدري المنير، أما ما تبقى من عينها الأخرى فقد كانت كالعادة تختبئُ خلف شعرها المنسدل كرايةٍ ترفرفُ حينما تمرُ عليها النسمة.

- **إلى اللقاء..**

تنهدتها بفمها الوردي وهي ترفرفُ بأناملها البيضاء مودعةً إيايّ كعلمٍ يرفرفُ على ساريةٍ تراقصه الريح، ترسلُ لي قبلاً تهفو لها روحي عبر الهواء من ليون وحتىً الكاظمية، وأغلقتْ حاسوبها ورحلتْ وبتُ أفكر فيها تلك الليلة، أيّ الطرقِ ستسلك؟، في أيّ زقاق ستدخل؟، وإلى أين ستذهب؟ وأطلقتُ زفرات حرى وتنهيدة خرجتْ من قلبي بقسوة وألم، وأغلقتُ حاسوبي أنا الآخر وتمددتُ على فراشي، وتحت غطائي بتُ أفكر في كيفية الوصول إلى ماريا كما قال لي العم عباس شاه، هل حقاً ما قاله الشيخ عبد الرحمن وهو يمسك بقرآنه في الحضرة القادرية وينظرُ لي بعينين ثاقبتين مخيفتين، نعم شعرتُ بمقدرته على صنع المعجزات وأنا أرى بعض الدراويش يغرسون السكاكين برؤوسهم وفي أماكن أخرى من أجسادهم وهم يؤدون طقوساً خاصة ولوناً جديداً من ألوان العبادة، وتعمقتُ بالتفكير وجرتني مخيلتي إلى عوالم غريبة جداً، هل سيسخرُ لي العم عباس بمساعدة الشيخ جماعة من الجن؟ هل يتعاملان مع الجن الذي تعامل معه نبي الله سليمان وهو الذي اشترط على أحدهم أن يجلب له عرش بلقيس بعظمتها وهيبتها وهي تحكم في بلاد بعيدة قبل أن يرتدَ إليه طرفه بعد أن تقدم قبله أحدهم قائلاً أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك، من يدري ربما نعم، وربما لا، وقد لا يكونُ أيّ شيءٍ من هذا، ربما سيسخرُ لي بساطاً سحرياً مدهشاً يحملني حيث ماريا، أو ربما البساط هو من يجلبُ لي ماريا إلى هنا، يا ربي إن هذين العجوزين أشغلا بالي وفكري وأرهقا مخيلتي بهذا التفكير، أردتُ تلك الليلة أن أتوقف عن التفكير لكني ما استطعت، وحين أغمضتُ عيني محاولاً النوم باغتتني ماريا بكل تفاصيلها المثيرة التي أحياناً أغض الطرف عنها، أو أتظاهر بالتجاهل لئلا تشعرَ بأنها تثيرني جداً، لكني استسلمتُ مؤخراً للنوم، كيف ومتى لا أعرف؟

(24)

لم أصحُ صباحاً إلا على تسبيحات أمي وهي تردد دعاء الصباح بعد قارئ يتفننُ بصوته قراءة الدعاء في إحدى القنوات الفضائية من تلفزيوننا القديم..

- **أسعد.. أسعد.. أگعد يمه روح للشغل..**

كان صراخها يتعالى وأنا ألوذُ بغطائي تارة أتقرفص تحته وأخرى أتمدد، لكني عاجلاً أم آجلاً سأبعثرُ غطائي لأنتفض ذاهباً للسوق، وكالعادة لا شيء يميز يومي عن الآخر سوى الرتابة والروتين وأنا أنتظر العم عباس شاه والشيخ عبد الرحمن لإطلاعي على كيفية اللقاء بماريا، أين؟ ومتى؟ وكيف؟

- **صباح الخيرات يا عم..**

قلتها له بعد أن وجدتهُ يرتبُ سلالهُ وأطباق الخوص، أما ما تبقى من أوانيه الفخارية القديمة فكانت تقفُ بصفٍ واحدٍ على رفٍ من خشبٍ قديم، وسألته عن سرّ الاحتفاظ بها والتي لم يقْدِم أيّ شخص على شرائها، تبسمَ ثم قال:

- **لا تستعجل الخطب فبعد أيام ستتعرف على حكاية وسرّ هذه الأواني الفخارية..**

وزاد فضولي في معرفة السر المختبئ خلفها، وسر اللقاء الذي سيجمعني بماريا، فهو رجل غريب لا يمنحني أيّ سرّ بسهولة ويسر.

- **اذهبْ الآن وألتقط رزقك واتركني أعمل وستعرفُ كل شيء عند الظهيرة، هيا اذهبْ الآن..**

قالها لي وهو يرتبُ أغراضه وسلاله الخوصية المصنوعة من سعف النخيل، كنتُ أتنقل من محلّ إلى آخر تارة أحمل أغراضاً لأناس وأخرى أنشغل بترتيب بعض المحال حتى سار الوقت من غير أن أعلم متنقلاً من دكانٍ لآخر.

عند الظهيرة يمرُ السوق بفتورٍ كبير يختلف عن صخب الصباح فأغلب الناس المتبضعين يأتون عند الصباح الباكر قبل ازدحامات الطرق وإغلاق أغلب المنافذ المؤدية للسوق، وعند الظهيرة يبدأ الناس بالخروج منه إلا المتأخرين منهم، ربما الحنينُ إلى أصدقائي هو من يشدني للسؤال عليهم بين الفينة والفينة وراودني شعور بزيارة صديقي سمير في دكانِ سردار وبولص، في الطريق إليه رأيتُ شيخ حكمت يقفُ بالقرب من دكانه وهو يمسدُ لحيته ويطيلُ التسبيح، لكن هذا الرجل كان دوماً ما يثير فضولي، لم أرتح له قط، لستُ أدري ما سبب عدم ارتياحي له، لكن ثمة شيئاً في داخلي أو حاسة من حواسي تشمئز منه، وما أن ألقيتُ عليه التحية حتى بدا وكأنه رجل دين يغدقُ عليّ السلام، لم يكنُ دكان سردار وبولص بعيداً عن دكانه سوى بضعة أمتار، وما أن وصلت الدكان باحثاً عن سمير لم أجد أي شخص يقفُ ببابه اقتربتُ أكثر فما سمعتُ أي شيء، كان محلهما مليئاً بالملابس النسوية، ولم أكن أعلم أن ثمة مكاناً مرتباً ونظيفاً في نهاية الدكان يستخدمه سردار وبولص لإيواء العاهرات وممارسة النشوة معهن وهن يحاولن جذب صاحب الدكان من خلال التقرب من الملابس الداخلية الفاضحة وملابس النوم المثيرة لتسأله أسئلة أخرى عن ملابس من نوع خاص وبحركة مثيرة منها تشعلُ لديهما مكامن اللذة، يصحبها سردار أو بولص إلى مستودع صغير مغطى بآخر الموديلات النسوية ليكشف عن باب صغير وخلف الباب يقبعُ مكان آمن تلوذ به الأجساد المتصارعة باشتهاء ورغبة بعيداً عن أنظار الناس والمارة وما أن يشعر بالشبق يسري لجسده حتى يعطيها قطعة من ملابس هي تبحثُ عنها لتثير شخصاً آخر تسترزق بها، اقتربتُ من غير أن أشعر وأنا أنظر بهذه الملابس والصور التي تزين العلب الكارتونية لشقراوات حسان، وهن بملابس غريبة ومثيرة جداً حتى انساب إلى مسمعي صوتُ غريب، كان أشبه بتأوه أو صوت ممزوجاً بلذة ونشوة واقتربتُ من الصوت رويداً رويداً كان صوتاً ناعماً كأنهُ صوت أنثى يؤلمها ثمة شيء، لكني لم أسترشدْ للباب المخفي خلف الملابس النسوية وما أن وضعت أذني على المكان الأقوى للصوت حتى أزحت الملابس بيدي لاشعورياً فانكشف لي باب صغير وما أن فتحتُ الباب بهدوء حتى وجدت سردار يحكم قبضتهُ بخصر سمير شاداً إياه بقوة نحوه، لم أرَ سميراً لكني رأيت قطعة لحم بيضاء يمسك بها سردار ويصكُ على أسنانه وكأنه يتشبثُ بغصنٍ يتدلى من شجرة، كان الصوتُ يخرجُ من هذه الكتلة اللحمية البيضاء المرمية بين أحضان سردار، وأدركتُ أن هذا الصوت يخرج من سمير حينما يشعرُ بسادية سردار وهو يغرسُ أصابعه بخصر سمير وبقوة مصارع، التزمتُ الصمتَ ولم أنبس ببنتِ شفة وعدتُ أدراجي وتركتهما يتصارعان في هذا المكان البعيد عن أعين المارة والناس، ففي وقت الظهيرة لا أحد يرتادُ المحال إلا ما ندر، عدتُ وأنا أشعر بخيبة وندم لما اقترفته ببحثي عنه فكان الأفضل أن لا أقترب أكثر، إلا أن للصوت الغريب فضولاً تملكني وجعلني أبحث عن السر فيه، ربما

أردتُ أن أنقذ صاحب هذا الصوت الذي يخرج بألم من جوفه لكني فوجئتُ بما اقترفه كلّ منهما، عدتُ أجرُ أذيال الحسرة والندم، كان شيخ حكمت يُشاغلُ فتاة جميلة تقتربُ منه تحاول أن تشتري جهاز تصفيف لشعرها الأصفر، كان يتمايل بين يديها كسعفةٍ تبعثرها الريح باتجاهاتٍ شتى، لم يكن تمايلهُ بين يديها لكونها زبونة يحاول استدراجها للشراء، بل لأنها فتاة جميلة وشقراء، فأغلب الرجال الذين يشترون منه يتعاملون مع عمال المتجر، باستثناء الحسناوات فهن له، هو وحده من يتعامل معهن، حتى العمال لا يقتربون من أية فتاة فالفتيات له حصراً، كنتُ متوجهاً للعم عباس الذي وعدني عند الظهيرة بأن ألتقيه وأتكلم معه، وما أن وصلت إليه حتى وجدت رائحة الشاي المعطر بالهيل تفوح من دكانه الصغير، كعادته الجميلة ما أن يراني حتى تنفرجَ أساريره ويشعرَ بالبهجة والسرور وكأنني أهمه جداً.

- **هل تحبها يا أسعد لهذا الحد الكبير؟..**

سألني وأنا أشعر بأنه يعلم بعض التفاصيل أحياناً التي أجهلها وينبئني بها لوحده من غير أن أقول له شيئاً، واسترسلتُ بالكلام معه وكأنه استفز قلبي واستدرجني للحديث..

- **هكذا وجدتُ نفسي ذات يوم أحبها من حيث لا أعلم، لم تكن عائقاً قط، بل تسللت إلى قلبي من حيث لا أدري، كانت تتسلّل ببراءتها المعهودة، كنتُ قوياً جداً لدرجة أن كلهن لم يتسللنَ بسهولة ويسر سواها، فقد أصابتني بالصميم، حاولتُ تجاهلها بل حتى تركها لكنها كانت تباغتني حتى بطيفي ومنامي، لعلاقاتنا أسس مقدسة مبنية عليها، هي تنزف شهداً وأنا أنزف بوحا، لست أدري لكني هكذا تعلقتُ بها لدرجة كبيرة حتى بتُ لا أستطيع مفارقتها، أعتدتُ في كل ليلة أن أحتضن حاسوبي وأنام وأنا أتحدث لها وهي تسامرني في كل صغيرة وكبيرة، بينما أنا لا أخفي عنها أي شيء وكأنها ملكٌ لي وأنا ملكٌ لها..**

كان العم عباس ينصتُ لي وأنا أتحدث بسرعة بينما صورتها لم تفارقني قط وهي تمر كغيمة بيضاء في سماء زرقاء..

- **استرح.. استرح.**

قالها العم عباس شاه وهو يملأ كوباً من الشاي الساخن ويقدمهُ لي بيده المرتعشة، وأردف:

- **سأفصحُ لك عن كل شيء، إنْ أحببت اللقاء بها، عليك بفعل الكثير وإلا عليك البقاء خلف حاسوبك وشاشته التي لا تجني منها سوى اللوعة والحسرة والتنهد، أمامك طريق شائك للوصول إلى مدينة لا يعلمها إلا ما تبقى من المتشبثين بالصوفية الحقة لا الهشة وهذا ما توارثناه عن أجدادنا الكبار، وما تعلموه من سيد البلغاء والأوصياء، لا تستغرب حديثي، فهناك علوم غريبة لا يدركها البسطاء من الناس، هي علوم عجيبة، فثمة علوم كان يعرفها نبي الله سليمان من قبيل الجن والسحر ومعرفة حديث الطير ومنطقهم، فالمجتمع اليوم يعد كل هذه الأعمال شيئاً من الخرافة والسذاجة والضحك على ذقون الناس، لكن كل هذه العلوم تكمن هنا..**

ووضع أصبعه على رأسي مشيراً إلى عقلي..

- **نعم يا عم أنا مستعد لكل شيء.**

قلتها بعد أن شعرتُ بثقة عالية تتغلغل إلى صدري وهو يتحدث بقوة وإرادة وعزيمة وإصرار.

- **عليك بمفاتحتها والحصول على موافقة من تحب؛ للشروع بالعمل والتحضير لمدينة اللقاء وأنا سأنتظرك لإطلاعك على ذلك، سأذهب الليلة للشيخ عبد الرحمن لأرى ما أعد لك من مخطوطات.**

واستوقفتهُ سائلاً مستغرباً عن أية مخطوطات، فقال:

- **لن أبلغك بكل هذا قبل أن تلتقيٍ بها الليلة وعليك أن تقنعها بالموافقة، لأن الطريق الذي ستسلكه لن يكون طريقاً سهلاً أبداً...**

كان العم عباس شاه يتحدث بهدوء تام، فهو طبيعي وهادئ جداً وهو يلقي بكلماته في بحر الدهشة، وعددتُ الدقائق والثواني للقائها والإفصاح لها عمّا يدور بفكري وخيالي لكني على قناعة تامة ويقين خاص بأنها ستوافق على أن نلتقي بعالم من العوالم الخفية.

(25)

حين حلَّ المساء يحمل بين يديه رذاذ المطر فتحتُ حاسوبي ونظرت بالرسائل الواردة لي لكني فوجئت بعدم دخولها اليوم أبداً، لم تكن الرسائل سوى لأصدقاء لا أرغب حتى بمراسلتهم، ولم أتحدث لأي شخص منهم منذ وجودي قبل أعوام على صفحتي الشخصية، بل كان كل وقتي لها حصراً إلا ما ندر مع بعض الأصدقاء بالسلام وإلقاء التحية فحسب، مرّ يومٌ وثان وتبعه ثالث فرابع وخامس وسادس وشعرتُ بالضياع والتيه والحسرة والضيق وأنا أنتظرها وفكرت لو غابت أكثر من هذا لن أستطيع البقاء أو التواصل حتى مع نفسي وكان كل همي أن أراها ذات ليلة، كنتُ في كل مساء أفتش الرسائل، بعض الأيام تمرُ بلا رسائل قط أو أي شيء، كان العم عباس شاه ينتظر ردي وبات يلحُ عليّ أكثر من ذي قبل وهو يصرح قائلاً:

- **يا بني لقد بات كل شيء في متناول يدي، عليك أن تحصل على موافقتها لإطلاعك على التفاصيل كلها، فقد أعطاني الشيخ كل الأوراق والطلاسم لإتمام اللقاء والخلود بمدينة لا يعلم تأويلها إلا أنا وهو وستعلمها أنت فيما بعد إن اجتزت الامتحان ووفقتَ في الوصول إليها.**

ومرَ يومٌ سابع كان بالنسبة لي شيئاً من الشؤم وأنا ما زلتُ لا أهتدي إلى عطرها أو أتنفس رائحتها أو حتى أعرف الطريق إليها، في اليوم الثامن كنتُ كالعادة حينما أرجع من السوق، لا شيء يجذبني في البيت بعد وجه أمي غير حاسوبي، فتحتهُ ووجدت رسائلها تملأ صندوق بريدي وصورها الجميلة وعبارات الحب والاشتياق تفوحُ من ثناياها وبتُّ أقرأ وأتفحص رسالة تلو الأخرى، أقرأ وأتنهد، وبتُ أتنفس وأستنشقها كمن يتعاطى صنفاً قوياً من الكوكائين...

- **أعتذرُ منك أيها الحبيب الغالي لقد كنتُ في مدينة بيزانسون الفرنسية، ذهبتُ برفقة أمي إلى هناك، فلها صديقات من الجيل الستيني القديم وأحبت أن تراهن وانشغلت بالنزهة والخروج والتسوق والذهاب معهن لأماكن كنتُ أنسى بها حتى نفسي أحياناً، فأمي تحبُ صديقات الطفولة اللائي كنّ يجلسن بمقعد واحد أيام دراستهن الابتدائية في مدينة الموصل، ولتشعر بجذورها العراقية؛ ولتسترجع معهن أيام الطفولة والدراسة، ماجدولين، غادة الياس، باسمة، أنوار سميث، هذه الأسماء تشتاقها أمي بل من خلالها تتنفس العراق كما أتنفسه أنا من خلالك يا أسعد.. وبعدها انشغلنا كلنا بمهرجان الأضواء الذي تقيمه مدينتي ليون لأربعة أيام، هو مهرجانٌ ساحر جداً لا يُفوتُ أبداً، حتى باتت أغلب المدن الكبرى تسعى لتقليده، ففيه يحضر أشهر مصممي الإنارة، شيء لا يمكن أن أكتبه لك هنا عبر هذه**

الرسائل الفيسبوكية، ربما سنلتقي ذات يوم لأحكي لك عن كل هذا.. لكني التقطتُ أكثر منٍ صورة، انظر وتمتع بالطبيعة الساحرة وبجمالي وغروري، استمتع بالصور وسنتحدث ليلاً أعدك بهذا، فالاشتياق يقتلني، أشتاقك بجنون أيها البغدادي الأصيل..

وبتُ أقلب صورها الواحدة تلو الأخرى وأنا أشعرُ بانبهار غريب واندهاش عجيب للمناظر الساحرة والجمال الأخاذ وهي ترسم بجمال تفاصيل جسمها حركات مثيرة وأشكالاً مغايرة، حسناء فاتنة بمعطف جميل يلتصق على جسمها الممشوق وبنطال يختلف من صورة لأخرى تارة أبيض وأخرى أسود وأحياناً كثيرة أزرق، تطلق شعرها للريح من أحد الجوانب مخفية جانبها الآخر الذي تستر بشعرها الجميل عينها البلاستيكية، صورٌ في النهار والأخرى بالليل، لكني ما فوجئتُ إلا بالأضواء المنتشرة على البنايات بأماكن مختلفة وعديدة، بنايات وكنائس وواجهات وعمارات ضخمة، كل شيء يتلونُ بألوان جميلة، عجيبة وغريبة، فعلاً كما قالت هو مهرجان لا يفوت، هذا ما شاهدتهُ من خلال صورها، فكيف لو كنتُ بالقرب من مدينتها، ماذا لو كنتُ هناك ربما سأنسى كل شيء، لن أطرب لسمفونية الموت العشوائي المنتشر بكثافة، ربما لن أشاهد قطعاً سوداء تملأ جدران المدينة، أو ازدحاماً، أو طرقاً مقطوعة، أبداً لن أشاهد كل هذا، ربما سأنسى روحي لو كنتُ بصحبتها تحت التماثيل الساحرة التي تلتقط الصور عندها، ثمة صورة جذبتني وهي تلتقطها أسفل تمثالٍ لشخص يتخذُ من الحصان مكاناً لامتطائه والجلوس عليه، وأسفل هذا التمثال يوجد تمثالان آخران يضطجعان تحته، فإحداهن تتخذُ من جسد الأسد وسادة تتمددُ عليها، ينسابُ رداؤُها إلى الخلف يبعثرهُ الهواء لتكشف عن عنق ماسي ونهد طفولي وساقين ناعمتين رشيقتين مرسومتين بحرفية تحيطان بالأسد وكأنهما تطوقانه لئلا يهرب منها، وثمة قطعة صغيرة تسترُ مركزَ اشتهائها وقعرَ لذتها فيكونُ خفياً عصياً على الأنظار، والتمثال الآخر يشبه الأول لكنه لرجل ذي لحيةٍ وشعرٍ كثيف، وقد كُتِبَ خلف هذين التمثالين عبارة باللغة الفرنسية وتاريخ نحتهما، ما لفت نظري أن الرجل الذي يمتطي الحصان بلا حذاء، حافي القدم، ربما كانت لغايةٍ يضمرها النحات أو ربما سقطتْ سهواً، لكن لو كان سهواً لتدارك الأمر، لا يهم لن أشغل بالي بهذا.. ثم أرسلت لها رسالة شوق وغرام..

- **ويخيبُ ظني**

  كلما دنوتِ مني

  فهزي بجذعكِ

  بقربي

  ليتساقط كلكِ

  أملاً جنياً

  في تلافيف قلبي

أنا الآن قريبٌ من قلبكِ، لن يلومني اللائمون إن قلتُ أحبك...

وأرسلتْ لي..

- **وهل لي أن أنزف العين دمعاً**

  وذا حبيب يتوق لي شوقاً

وجاريتها بالرسائل.. باعثاً لها بأخرى

- **أشتاقكِ حتى بزوغ علاماتِ**

قبلاتي

على وجنتيكِ

وشفتيكِ

إنه السرُ إليكِ

فخذي قلبي على طبقٍ

من حبّ

وضعيهِ بين

يديك

- **أراكَ اليوم تنثرُ شعرا، هل عادت لك الروح من جديد!!..**
- **نعم، لقد كنتُ ميتاً لسبعة أيام، لكن اليوم الثامن عاد لي بروحي التي كنتُ أفتقدها، هل تعلمين أني الليلة سعيدٌ جداً، اعتقدتُ أنك لن تعودي بعد اليوم..**
- **كيف لي أن لا أعود، وقد باتتْ روحي رهينةً بين يديكَ..**
- **وكيف ليومي أن يتعدّى من دون النظر إلى عينيكِ، لعينيكِ سحرٌ لا يدانيهما سحرٌ، فسحرهما فاق في الوصف حتى عصا موسى..**

وأردفتُ لها:

- **أعجبتني كل صورك الجميلة، ثمة فضول غريب في معرفة نحت الفارس الذي يمتطي حصاناً بلا حذاء، لا بد أنك استأنسْتِ بمهرجان الأضواء.**
- **لهذا النحت قصة غريبة، هذا الفارس هو الملك لويس الرابع عشر الذي تحدثتُ لك عنه سابقاً، يدعى بملك الشمس، إلا أن النحات نسي أن ينحتَ القدم بحذاء، وحين رأى الملك هذا الشيء شعر بالإهانة والذل فقام بقطع رأسه على الفور، ليتك كنتَ بالقرب مني، كل شيء مذهل ومختلف تماماً لا مقارنة بين هذه الأمكنة وهناك حيث تقطن يا حبيبي، حتى الأشجار القاحلة التي يعشعشُ عليها الثلج ويقتلها البرد تختلف مطلقاً فهي أشبه بلوحة فنية تأسركَ حين تراها.**

البنايات البيضاء، وطاولات اللقاء التي تزين الأرصفة الحجرية لمحال (Bouchon Lyonnais) ومحال أخرى ما زالت لم تنشر طاولاتها لزبائنها بعد، الفنادق والمطاعم مزينةٌ بالأضواء والمارة ينظرون يرقبون الأنوار الملونة التي تزين كل هذا، بائع البالونات يستثمر النهار وضوء الشمس قبل انشغال الناس بأضواء الواجهات الكبرى بالأضواء الملونة، ثمة مهرج وكلب صغير وطفل ملون الوجه بألوانٍ قزحية كأنه نسخةٌ مصغرة من المهرج الكبير، يمسك الصغير بيده طاقية سوداء يمرُ بها على الواقفين وهم يلقون بقطعٍ معدنيةٍ داخلها، بينما ينتشي المهرج الكبير وعازفه وكلبهم وهم يسمعون طقطقة النقودَ المعدنية.

وراحت تتحدثُ عن المساء إذا حان كيف تكون المدينة ساحرة وهي تعانق الظلام بأصواتها الخلابة ومبانيها الضخمة التي تناطح السماء الملونة بالأضواء، وكنائسها التي أصبحتْ شيئاً من تراث وحضارة لا تستغني عنها ليون، وعن مبانٍ قديمة جداً ومطاعم كنتُ لا أراها إلا في الأفلام القديمة.

وهي ترسل صوراً لكنيسة كبرى بأربع منارات ضخمة فوق كل منارة صليب ممتد حتى عنان

السماء، ومنارة عليها تمثال ليسوع أصفر يبرق نهاراً كلّما امتدت إليه أشعة الضياء ويد الشمس، وأسفله أسد جاثم على ركبتيه، تماثيل كثيرة لأسُود تنتشر في كل مكان، أسود تحمل بيديها سكيناً وأخرى بجناحين وآخر يلفظ المياه من فمه كنافورة جميلة في إحدى البنايات وغيرها الكثير، تماثيل أخر على واجهات المباني بطرق هندسية جميلة جداً، وكل هذا محاطٌ بأضواء ملونة تسرّ الناظرين، لا أبالغ إنْ قلت حتى السماء أراها محاطة بهذا الكم الهائل من الإنارة العجيبة والألوان المبهرة، تتحول ليون إلى مسرحٍ جذاب، لتواصل حديثها قائلةً:

- **كان في السابق هذا المهرجان تقليداً دينياً لدى العديد من الناس لكنه الآن أصبح منبراً يتبارى فيه فنانون عالميون متخصصون في الإبداعات الضوئية، هو حدثٌ سنوي يبدأ بإضاءة ساحة (بلاس دي تيرو) ونفق الطريق السريع، ويتجمع مئات المتفرجين، فهذا المهرجان ينتظره الكل من كل عام.. لمَ لم تقل شيئاً؟ هل نمتَ وتركتني أهذي لوحدي!!**

- **كلا لم أنم، بل كنتُ أقرأ وأصور اللحظة وأنتِ تتحدثين لي، يا له من مهرجان عجيب!، ربما سأسافر ذات يومٍ لفرنسا لأشاهد كل شيء بأمِ عيني..**

أمرُّ على الديارِ ديارُ ليلــى .. أقبلُ ذا الجدار وذا الجدارا

وما حب الديار شغفن قلبي .. ولكن حب من سكن الديارا

لا تهمني فرنسا ومن فيها بقدر ما تهمني أنثى سحرتني نحوها، لا برج بيزا ولا ليون أو باريس أو حتى شارع أوفيرس الذي ولد به غرينوي ولا محلات عطور بالديني تهمني، لا يهمني كل هذا، تهمني فقط فتاة تدعى ماريا، أحبها منذ أن رأيتها للوهلة الأولى أردتُ أن أصرخ أحبها بصوتٍ عال، لكن يا أميرتي ها أنا الآن أصرخ بحضرتك فاسمعي صرختي وندائي، لكنني لا بد من أن أطلعك على شيء كنتُ أنتظركِ منذ الأيام السبعة العجاف، لأنني الآن متوقف فقط على موافقتك للقاء بك..

- **وأين سنلتقي؟**
- **لا أعلم!!**
- **هههههه، تحدث بحقائق يا أسعد، أين سنلتقي؟؟**
- **يقول العم عباس شاه بمدينة لا يعلمها إلا هو والشيخ عبد الرحمن..**
- **ومن يكونان؟**
- **لا تشغلي بالك، أريد فقط موافقتك على ذلك؟**
- **أنا موافقة، سأذهب معك لأي مكان حتى لجهنم الحمراء ..**
- **لا تخافي لن آخذك لجهنم بل إلى مكان أنا أيضاً أجهله!!.**

عرفتُ أن الصباح يقترب حين سمعتُ صوت ديك أم محمد وهو يحاول اختراق الريح الهاربة ببرودة الجو بصوته القوي، وأطلق المؤذن أولى تراتيله السماوية مفتتحاً بداية الفجر بالبسملة ليرتل بعد ذلك ما تيسر من سور القرآن الكريم، ودعتني حين قالتْ وأدرك شهريار الصباح فسكتت شهرزاد عن الكلام المباح، اذهب وتمدد واتركني أتمدد أيضاً، وخلدتُ للنوم مستسلماً لأحلامي التي شعرتُ وكأني بالقرب منها تلك الليلة، فحلمتُ حلماً جميلاً، نعم كانت يدي بيدها وهي ترافقني إلى مجرات السماء، كنا نجلسُ على أطراف نجمة سماوية بعيدة، أقطفُ الضياء من نجمات صغيرات، وأصنع لها قلادة تشعُ كاللؤلؤ الأبيض وألبسهُ إياها، واضعاً هذه القلادة على صدرها الثلجي المشع بالنور، لا شيء في هذه السماء سوانا أنا وهي نلاعب بعضنا البعض، فتارة تلعب بشعري وأخرى ألعب بشعرها، للوهلة الأولى كنتُ أشعر برغبةٍ لأداعب أزرار قميصها الأبيض الشفاف، ربما كانت بي الرغبة لألمس شيئاً طفولياً صغيراً، وأنا أراهُ ينقبض وينبسط بين أناملي وأنا أعصره كإسفنجة صغيرة، بحياتي ما فعلت هذا الشيء، لكن الفضول الآن يقتلني لأن أعصره وبرقة إنسان خجول يريد فعل هذا لكنما الخجل يمنعه أحياناً كثيرة، كلّما أزحتُ الشعر النازل على عينها لأمسد الجروح التي أورثها لها غربان الشر وهم يرسمون خارطة الألم على خدها الأيسر أشعر بالأسى والحزن وهم يلوثون هذه الوجوه الجميلة ويشوهونها، إلا أن روحها ما زالت أطهر وأنظف وأنقى من كل شيء، أتلمسُ يديها البيضاوين ماراً بيدي من متنها وحتى أناملها الناعمة، كانت هادئة مطيعة وأنا أمر على أزرار قميصها، وحين اجتاحتني رغبة ولذة بمعانقتها وهي تستسلم بين يدي اقتربتُ منها وأطبقتُ ذراعيّ بحركة دائرية مطوقاً خصرها، أحسستُ بأنني أتنفسُها بعمقٍ كبير وهي تذوب بين أحضاني كقطعة جليد متجمدة حين تذوب بين طيات بركان كبير.

كنتُ غارقاً بهذا الطيف الجميل، لم أكن أدرك أن أم فاضل تحرقُ بخورها الأصفهاني بهذه السرعة وهي تكتبُ طلاسم من نوع خاصٍ بها؛ بماء الزعفران المائل إلى الأحمر الفاتح تستنفد من خلالها القراطيس الكبيرة والصغيرة، فقد بددتْ بصياحها كل الحلم الجميل الذي جعلني أتقرب من ماريا وهي تجلس على نجمة مضيئة في أطراف السماء، وحين أبصرتُ الصباح وأنا أتنفس هواءه البارد كاشفاً عن عينيّ رذاذ النعاس، لعنتُ حظي وقسمتي التي جعلتني بمتناول يدها، وعاهدتُ نفسي أن أجلب لها كميات أخر من بخورها وزعفرانها المميزين لئلا ترهقني بأوقاتٍ أعيش فيها طقوس الحلم على أقل تقدير إن لم أستطع حتى اللقاء بماريا، وصحوتُ متأففاً مشمئزاً، حتى صاحت بوجهي.

- **لا تتأفأف من الصباح الباكر..**

ونهضتُ مقاطعاً إياها قائلاً:

- **أعلم أنك تريدين البخور الهندي والزعفران الأصفهاني ولا جديد بينهما طبعا..**

كشرتْ بوجهي وهي تقول:

- **كلا أريد أن تضيف على كلِ هذا أشياء جديدة من سندروس وشيح وصندل وعنبر وعود القرح وعين الديك وكافور وأَكْثِر لي من الحرمل..**

وحين انتهتْ قلتُ لها

- **كل هذا من الصباح الباكر، كيف لي أن أتذكر كل هذه الأشياء؟..**

مدت يدها بجيبها لتبتسم وتقول:

- **بل كتبتُ لك كل هذا بالقصاصة الصغيرة..**

اقتربتْ مني بعد أن نفضتُ غطائي عني محاولاً انتصاب قامتي التي أرهقها التمدد طوال الساعات القصيرة لتدسّ الورقة الصغيرة بجيبي، كان شاي أمي يملأ المكان برائحته البغدادية العبقة وهي

تمسك بيد أم فاضل ليتناولا الفطور معاً، كنتُ أنا أتناول فطوري على عجلٍ وأصفف ما تبقى من شعري أمام المرآة المنكسرة التي تتشبثُ بالحائط بوساطة مسمار صدئ قديم، كنتُ تواقاً للقاء العم عباس لأطلعه على موافقة ماريا، وكان الفضول يأكل رأسي وأنا أنتظر الوسيلة التي ستجعلني على مقربة من حبيبة قلبي، لا شيء يفصلني عنه سوى هذا الطريق الصباحي المزدحم بالسيارات الكثيرة التي تصطف أحياناً بطابور منتظم على طول الطريق، ولا طريق أحب سلوكه صباحاً غير الطريق الذاهب إلى باب المعظم، إذ أستطيع بعدها المشي من ساحة الميدان باتجاه الشورجة، كان العمّ عباس يجلسُ بدكانه وهو ينشغل بشراء بعض البضاعة الواردة إليه من مدينة الحلة، فأغلب أهل الحلة يملكون بساتين كبيرة للنخيل وتستغل النسوة سعف النخيل في عمل وصنع أطباق وسلال جميلة ملونة بألوان بات الأغلب يشتريها لكي يزين بها الجدار، لكن بعضهم يعدّها شيئاً من تراث قديم لابد من الاحتفاظ به، تركتهُ وهو ينشغل ببضاعته الجديدة، حينما صاح عليّ أبو شلال وهو يجمعُ علبه وصناديقه التي يملأها بالأحذية لرصفها في دكانه بعد أن أخرجها من مخزنه الذي يقعُ خلف سوق العربي لتكون بالقرب من أنظار الجميع وهو يصيح بصوته العالي منادياً مروجاً لبضاعته، كنتُ أحمل الصناديق وأنا منشغل بما يخبئه لي العم من رحلة قد أصدقها وقد أضحك عليها وعلى نفسي بعد أن اكتشفَ أن ما قاله هو مجرد خيال ليس إلا يحاول أن يزجني به، كانت خطواتي مثقلةً بالوجع بعد أن تسربتْ خلسة فكرة شغلت بالي، حين هاجت هواجسي وشعرتُ بشخصٍ ما في داخلي يكلمني يقول لي: تصور يا أسعد أنك بنيتَ على فكرة اللقاء كل أحلامك، لكن لم يتحقق كل شيء من هذا!! انتابني صداع غريب وتشتَّتَتْ كل أفكاري، وما أوقف هذه العبثية والضبابية التي خيمت على مخيلتي وأنا أسير بلا فكرٍ أو ذهن صافٍ غير صراخ أبي شلال وهو ينادي بصوتِه الأجشِّ خلفي:

- **أسعد.. يمعود.... وين..**

كان الجميع يصيح خلفي من أصحاب البسطات المتراصة، وما وقفت إلا بعد أن أمسك بيدي من الخلف وليد، حتى انتبهت وكأنني أسيرُ كرجلٍ آلي بلا شعور أو أي شيء،

- **شبيك مو الناس اتصيح وراك..**

قالها وليد وهو يمسك بسيكارته بعد أن تعالى خيطٌ من الدخان فصل بين عيني وعينه، وما أن التفتُّ حتى شاهدتُ الجميع ينظر لي وكأني رئيس وزراء أو شخصية مهمة اقتحمت الطريق عابراً متجاهلاً كل الناس الذي يقفون بصفين متقابلين.

- **أعتذرُ منكم جميعاً لم أنتبه لكم كنتُ أشعر بصداع يقتحم رأسي.**

قلتها لهم بعد أن شعرتُ بخجل كبير يتسلل لي، وما أن وضعتُ الكراتين بالقرب من بسطة أبي شلال حتى رمقني بنظرة غريبة وكأنه يريد أن يطوق بيديه عنقي، حاولتُ أن أبدّد هذه النظرة ببسمةٍ مني ملصقاً قبلة اعتذار على وجنته.. بعد أن قلت له:

- **أعتذر منك فقد أنساني الصداع كل شيء..**

كنتُ أتحجَّجُ بالصداع، حاولتُ تشتيت وقتي لحين لقائي بالعم عباس شاه، كان الوقت يقتاتُ على مخيلتي ويربكُ كل شيء في داخلي بل كان أبطَأ من سلحفاة، وذهبتُ إلى أبي شامخ لأجلب ما أوصتني به أم فاضل، ناولته القصاصة بعد أن رمقني بنظرة استهجان غريبة.

- **لا تنظر لي هكذا يا أبا شامخ، هيا أعد لي ما جاء بهذه القصاصة.**

قلتها له وأنا أدير وجهي إلى الجهة الأخرى محاولاً عدم النظر إلى عينيه اللتين تحملان كلاماً غريباً وغير لائق على أم فاضل واصفاً إياه بالعجوز الهرمة التي تسخرُ من عقول الناس بعمل سحر أو يخيل لها بأنها تجيد فنون السحر والشعوذة مردداً عبارته المملة.. هي عجوزٌ لا تعرفُ أيّ شيء من

كل هذا سوى شخبطات بماء الزعفران على الورق الأبيض وحرقها البخور الأصفهاني وخلط بعض المواد بطريقة غريبة مستغلة الفقراء بجني الأموال منهن، قاطعتُ أبا شامخ قائلاً:

- **أتوسل إليك لِمَ كلما أتيتُ إليك أسمعتني الحديث والكلام نفسه، أرجوك كفّ عن هذا، ففي المرة القادمة سأقول لك كل هذا الكلام قبل أن أفتتح الحديث معك لتسكت.**

كان يجمعُ كل طلباتها بأكياس صغيرة ليضعها في نهاية المطاف بكيسٍ كبير لي، وحين انتصف النهار كنتُ ذاهباً للعم عباس متشوقاً لمعرفة سرّ اللقاء، ومن بعيد رمقني شيخ حكمت مشيراً بيده لي محاولاً زجي مع صانعه سنان الأشرم الذي يعمل معه في محله، لكني اعتذرت منه مبرراً اعتذاري بأنني أملك عملاً آخر، كان كل همي هو الحديث مع العم عباس شاه، وحين شممتُ رائحة الشاي التي تفوح من دكانه، علمتُ أنه يجلس بلا زبائن، فحين يفرغُ تماماً من الزبائن يقوم بتحضيره بمفرده. لعطر الشاي الذي يفوح من محله رائحة زكية ولطعمه ومذاقه القدرة الكافية للمحافظة على العقل والفكر من الذهاب والتيهان بطرق وأفكار غريبة أقرب للخيال، سلمتُ فانتفض من مكانه فرحاً قائلاً:

- **قبل قليل كنتُ أنتظرك على أحر من الجمر، سأغلق المحل بعد الانتهاء من صلاة الظهر لتذهب معي إلى البيت فقد اتصلت بصفية لتعدَ لنا الغداء لأطلعك على كل شيء، نحتاج للوقت والهدوء لوحدنا، لنتحدث بعيداً عن ضجيج الناس، انتظرني هنا، سأعود حال الانتهاء من أداء صلاتي، اتصل على أمك وقل لها بأنك ستتأخر قليلاً اليوم..**

قالها لي وهو يسير باتجاه المرقد ذاهبا لإتمام مراسيم الصلاة، كانت الأفكار تشغلني وأنا أطرح مجموعة أسئلة وأحاول الإجابة عليها لكنها أسئلة محيرة جداً، أيعقل أن يضحَكَ عليّ هذا الرجل الملتزم أو يحاول أن يسخر مني؟ وإن كان كذلك، ما الذي يرغمه على أن يجعل مني أضحوكة أو موضع استهزاء وسخرية؟ لا أعتقد أنه مرغمٌ على فعل هذا، كانت الأفكار والأسئلة التي لا طائل منها تأخذني تارة يميناً وأخرى شمالاً وأحيانا أغرق بصمتي الذي لا ينتهي وأسافر بعيداً لا أعرف إلى أين، لكني أنقطع تماماً عن الناس وكل العالم حين أفكر، واستسلمتُ أخيراً للأفكار الغريبة التي اجتاحت فكري على حين غرة، وفكرتُ بكلام أبي شامخ وهو يزجُ شكوكه بأم فاضل ومقدرتها على استخدام قواها السحرية لتحقيق مطالب الفقراء والناس المساكين الباحثين عن رزقٍ أو فك المسحور، وحاولت المقارنة بينها وبين العم عباس شاه لكني ما شككتُ به، كنتُ أشعر بأنه رجلٌ غريب، لا يمكن أن يكون إنساناً طبيعياً، فثمة قوى سحرية أنا لاحظتها به وشاهدتها بأم عيني.

شعرتُ برأسي يكاد أن ينفجر وسط هذا الصخب والضجيج من الأفكار، أغمضتُ عيني وتوقفتُ لبرهةٍ عن التفكير بكل هذه الوساوس والأشياء الغريبة وأنا أجهل كل شيء، استرخيتُ قليلاً وأنا مغمض العينين، كان صوت العم عباس يناغمني بهدوء كبير وهو يقول لي:

- **هيا استعد لنغلق المحلّ ونذهب..**

جمعة الدهان الذي يجاور دكانه من اليمين، الحاج خلف يجاور دكانه من الشمال صاحا عليه قائلين:

- **شعجب أبو غايب عزلت من وگت اليوم، خير، إن شاء الله مو تعبان من الشغل أو صاير شي بالبيت...**

تبسم بوجههِ البشوش قائلاً:

- **لا شيء من هذا الذي تقولونه، لكني عَزَمْتُ أسعد على الغداء اليوم عندي في بيتي.**

شعرتُ بالحرج منه وهو يحاول أن يمد يده لي، مساعداً إياي في الوصول إلى ماريا.

(27)

انطلقنا أنا وهو نسير كالحمام برقة ورشاقة نرتشفُ خطواتنا رويداً رويداً، وحين وصلنا إلى البيت تهتُ مذهولاً وأنا أجدد النظر بالجدران التي تلتصقُ عليها أشكالٌ غريبة من طلاسم وحروف وأرقام رتبتْ بأشكال منها دائرية وأخرى مربعة ومنها مثلثة ورسوم تبهرك وتشدكَ وأنت تتتبع الحروف المنثورة عليها وكأنها نجوم تلتصق بالسماء أو وشمٌ على جسد إنسان، كنتُ أنظر وأشعرُ بالذهول، بينما رائحة السمك المشوي تفوح عبيراً تملأ المكان، كان العم عباس يساعد الحاجة صفية وهو يرتبُ لمائدته ويفرشُ عليها ما لذّ وطاب من مقبلات وأطباق السمك المحمص بالتنور والمقبلات التي اجتهدت الحاجة صفية خير اجتهاد بصنع هذه المأدبة وكأنها تحاول أن تعرض فنون الطبخ وتتذكر بذلك فترة شبابها وصباها وهي تراهن على أنها تطبخ الأجود من بين نساء الحي كلهن، تقابلنا أنا وإياهُ على المائدة الضخمة، شعرتُ بالخجل تملكني قليلاً وأنا أتناول طعام الغداء، هو أحس بذلك وشدد عليّ أن أتناول وحلفني بأغلظ الأيمان أن آكل بلا خجل أو حرج، وفعلتُ ذلك، وأكلتُ بشراهة، وحين انتهينا من وجبته الدسمة ومن شرب الشاي، افتتح العم عباس شاه الحديث معي بعد أن أخرج مخطوطات ورقية من صندوق حديدي يتخذ من ركن الغرفة مقراً له، سحبها برفق وصففها بيده بانتظام ثم عاد إلى مكانه، كان ينظر لي بصمت وأنا كنتُ أنتظر أن يتكلم، داعبني بحركات غير منتظمة من عينيه، ثم قال:

- **اقترب مني..**

وحين دنوتُ منه شاهدتُ أشياءَ غريبة جداً كالتي يعلقها على جدران غرفته، وكشف لي عن ثماني مخطوطات لا أكاد أفهم منها أي شيء، مخطوطات مخيفة جداً، لم أشاهد مثلها قط، لكن التي كان يمسكها لا تشبه أي شيء مما يعلق على حائط غرفته الهرمة.

- **أمسك هيا.. اقرأ وشاهد ما جاء بها، فلكل مخطوطة من هذه المخطوطات طقوس خاصة عليك الالتزام بها وإلا سيذهبُ كل شيء سدى، ويذهب تعبك وتعبي أدراج الريح..**

أكد لي ذلك وهو يمسكُ بيدي واضعاً هذه المخطوطات عليها، وبتُّ أتفحصها الواحدة تلو الأخرى.. ثم وضع يده مرة أخرى غارساً أصابعهُ مخفياً وجه المخطوطات عني، وحين نظرتُ إليه نظرة ريبة مستغرباً فعلتهُ هذه.. قال:

- **قبل قراءة هذه المخطوطات هناك طلاسم رقمية بسيطة لا بدّ من أن نعملها أنا وأنت، قبل الشروع بالقراءة لئلا تتيه ببحر الحروف وسرّ الأرقام المنثورة بهذه المخطوطات، أريد منك أن تتذكر عبارة تلازمك دوماً، وتبقى عالقة بقلبك كلما كنتَ قريباً من محبوبتك ماريا.**

استغرقتُ بالتفكير طويلاً وهو يحملق بي باحثاً عما يدور في قلبي تجاه ماريا في كل ليلة، أغمضتُ عيني ورحتُ أفرك جبهتي اليمنى واليسرى بيديّ كلتيهما وأطرقت برأسي إلى الأرض وأنا ما زلتُ مغمض العينين بينما العم عباس شاه كان ينتظر العبارة التي تراودني دوماً والتي تعشعش بقلبي كلما تحدثتُ إليها، وسرحتُ في الخيال بعيداً وكأنني أفتتح معها حديثي وحين تجمع وجهها بخيالي وابتسامتها وصدرها الأشد بياضاً من زهرة الكاردينيا، وعلى حين غرة أحسستُ وهي تبتسمٍ لي من شفاهها الوردية اللون ترشقني بسؤالٍ كسهم خرج من قوس رامٍ وأصاب قلبي في الصميم قائلةً:

- **إن كنتَ تحبني، فكر أين سنلتقي..**

وشعرتُ بحزنٍ تملكني من سؤالها وأنا لا أعرف فعلاً أين سنلتقي؟ ثم صرخت من دون شعور بذلك..

- **(أحبكِ ولا أدري أين سنلتقي)..**

ثمة يد أمسكت بكتفي وصحوتُ كأنني غافٍ أو في عالم آخر.

- **نعم هذه العبارة كفيلة بإجراء بعض التفاصيل للتحري عن المدينة التي ستأوي إليها من خلال جدول رتب بأرقامٍ معينة لا يقبل الشك أو الريبة..**

بيّن ذلك العم عباس وهو يفلت يده من كتفي.

- **هل قلت شيئاً أنا يا عم؟؟**..

سألتهُ بعد أن نظرت بوجههِ الناعم، وكرر هو عبارتي التي قلتها من غير أن أعلم.

نعم يا أسعد لقد قلتَ (أحبك ولا أدري أين سنلتقي) بهذه العبارة سنعرف أية المدن ستأويكما أنتما الاثنين، هيا اقلب المخطوطات ولا تشاهدها إلا بعد أن أجلب لك الجدول الرقمي لمعرفة الحروف التي تقابل الأعداد فيه لنكشف عن اسم المدينة وبعدها سأشرح لك كل مخطوطة على حدة..

قلبتُ المخطوطات التي بيدي رأساً على عقب وكنتُ أنتظر ما يجلبه من صندوقه الحديدي، ذهب ثم عاد محملاً بأوراق بيضاء وقلم ومخطوطة أخرى بها جدول، وضع الجدول أرضا ثم انحنى على الورقة التي يزدحم بها البياض وأمسك بالقلم وبات يكتب بيده، كنتُ أنظر بالجدول فهو يبدأ بالعدد (8) ويترتب بشكلٍ منتظم، فكانت الأحرف على شكل أعمدة والأرقام بشكل صفوف، فالعمود الأول يضم حرف (أ) والعمود الثاني يضم الأحرف (ب ت ث) فهي نفس الأحرف باختلاف النقط، وكذلك العمود الثالث (ج ح خ)، والعمود الرابع (د ذ ر ز)، والخامس (س ش)، والسادس (ص ض ط ظ)، والسابع (ع غ)، والثامن (ف ق)، والتاسع (ك ل)، وبقية الأحرف بسطر واحد (م)، (ن)، (هـ)، (و)، (ي)، ويبدأ الجدول بالعدد (8) ويستمر بالتسلسل.

ووضع عبارتي التي تفوهت بها لاشعورياً والجدول أمامه وهو يشرح لي كل خطوة أولاً بأول وأنا أستمع باستغراب ودهشة، بحياتي ما استغربتُ هكذا ولا اندهشتُ كما اندهشتُ بين يديه وهو يبعثر الحروف والأرقام بواسطة القلم بشكل غريب وبنسقٍ مذهل جداً ينمُ عن دراية عميقة وكبيرة..

(28)

(أحبك ولا أدري أين سنلتقي)

الحرف	أ	ب	ج	د	س	ص	ع	ف	ك	م	ن	هـ	و
العدد	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20
الحرف													

	ت	ح	ذ	ش	ض	غ	ق	ل
العدد	22	23	24	25	26	27	28	29
الحرف	ث	خ	ر		ط			
العدد	30	31	32		33			
الحرف			ز		ظ			
العدد			34		35			

الآن سأقوم باستبدال حروف عبارتك تلك بالأرقام

أحبك = 8 23 9 16

و = 20

لا = 29 8

أدري= 8 11 32 21

أين = 8 21 18

سنلتقي = 12 18 29 22 28 21

وبات يشرح لي بالتفصيل وهو ينظر نحوي بعد أن فكك العبارة إلى كلمات وأعطى كل حرف من الكلمةِ رقماً يقابله في الجدول وهو يرتب كل كلمة بشكل صفٍ واحد، فاصلاً بين أرقام الحروف المكونةِ للكلمات، ويقول إن أحببت أن أشرح لك فاستمع لي، وإلا فسأعطيك كل شيء جاهزاً من دون أن تشغل لي فكري وبالي بالشرح، وازداد الفضول لدي وقلت له:

- **لا بل أحبّ أن تشرح لي كل شيء هو الفضول ليس إلا يا عم..**

وبات يفسر ما خطته أنامله على الورقة البيضاء.... من الكلمة الأولى نحذف الأرقام الفردية فيبقى الرقمان الزوجيان (8) و (16)، ونبقي على الحرف الواحد المنفرد كحرف الواو مثلاً فهو غير متصل بالكلمة بخلاف حرف الكاف الذي يتصل بالكلمات فنحصل على الرقم (20)، ومن الكلمة التي تليها نحذف الأرقام الزوجية مع بقاء الأرقام الفردية فنحصل على الرقم (29)، ثم نبحثُ عن الأرقام المتكررة في الكلمتين التي بعدهما مباشرة فنحصلُ على الرقمين المكررين بالكلمتين (8) و (21) ونحذف الأرقام المتبقية منهما، وفي الكلمة الأخيرة ستتم مطابقة الرقم الأول مع الأخير فإذا كانا متشابهين فقد ذهبت أحلامك أدراج الريح، أما إذا كانا متعاكسين فعليك ببداية الرقم وتكراره وترك بقية الأرقام ليكون الناتج ثمانية أعداد وبما أن العدد الأول يعاكس الأخير فالأول هو (12) والأخير (21) لذا سنأخذُ الأول ونكرره ونترك الأرقام الباقية كلّها فيكون لدينا (12) وتكراره (12)، وهذه الثمانية أعداد بعدد المدن التي ستمتلك أنت واحدة منها.

الآن تشكلت لديك ثمانية أعداد، نرتبها بصفّين متسلسلين، أربعة أعداد فوق، وأربعة أسفلها، وفي هذا الشيء حكمة تجهلها أنت، لكن لا تسألني عنها، فضعها بالتسلسل كما وردت لديك من خلال عبارتك المترجمة إلى أرقام وأعداد، لكن بعد أن تضعها عليك أيضاً بعمل مخطط جديد للحصول على ترتيب آخر وهو الترتيب النهائي الذي ستكتشف من خلاله مدينتك التي ستسافر إليها، لكن أعلم فقد تلتقي بمن تحب أو لا تلتقي، فإن كانت الأعداد الفردية أكثر من الزوجية فهنا لا يحق لك اصطحاب أي شخصٍ معك لأنها لا تقبلُ الزوج بل الفرد بناءً على كثرتها – أي الفردية- أما إن كانت الأعداد الزوجية أكثر من الفردية فهنا يحق لك أن تصطحب شخصاً آخر قد يكون ذكراً أو أنثى لك الحق باختياره، أي شخص تحبّ وتهوى سيكون بين يديك ولو كان في مشارق الأرض ومغاربها، ولو كان في أبعد نقطة من هذا العالم، سوى عالم واحدٍ لن تستطيع الوصول إليه والولوج فيه هو العالم السفلي من يسافر إلى هذا العالم لن يعود بعدهاً.

كان جدي ينقل عن جده أن الأرقام حين تمتزج بالحروف تعطينا طاقة هائلة لا يمتلكها حتى الجن بل نستطيع من خلالها أن نُسير الجن وكل شيء في هذه الدنيا.

لا تشغل بالك وفكرك بكل هذا لكن دعنا الآن نرتب ما خرج لنا من أعداد وأرقام وكما قلت لك ما خرج من أعداد سنصفه بصفين متوازيين، تكون أربعة أعداد فوق والأربعة الأخرى تحتها، وبعد أن نرتبها علينا بإجراء تخطيطات معينة أخرى للوصول إلى الشكل النهائي الذي سنستخلص منه اسم المدينة، الآن علينا أن نكتب هذه الأعداد وتخطيطاتها، إذ يكون العدد الأول والثاني مع بعضهما والثالث والرابع معاً هذا بالنسبة للسطر الأول المكون من الأعداد الأربعة، أما بالنسبة للسطر الثاني فإننا سنأخذ الطرفين الأول والأخير مع بعض ونأخذ العددين الذين يقعان في المنتصف مع بعضهما كالوفق الآتي:

29 20 16 8

12 12 21 8

وبات يرسمُ بيده المرتعشةِ الوفق ويخطط لي على الورقة البيضاء..

بما أن الأعداد الزوجية أكثر من الفردية فمدينتك تتحمل اثنين، ها أنت الآن يحقُ لك أن تلتقي بمن تحب ولو كان في أبعد بقعة من هذا الكون، إذاً لا تبالي أبداً، واستعد لمن سيكون معك، وهذا خلاف بعض المدن السبع الباقية فبعضها لا يحتمل الأعداد الزوجية فقط الفردية منها، فهذه المدن لا تقبل اثنين على أرضها فقط شخصاً واحداً. وبما أن مدينتك مستعدة لانضمام شخص ثانٍ فيها فهذا بالكاد من حسن حظك طبعاً، كان يقولها والابتسامة تصلُ حتى صدغيه، وكأنما يريدُ أن يقول لي:

- **استعد أنت وماريا فقد تحقق لك كل شيء..**

وواصل حديثه.. بعد ترتيب الأعداد إذ يكون العددان المزدوجان الأولان من السطر الأول هما الأول والأخير من السطر الأول الجديد والعددان اللذان يقعان في المنتصف من السطر الثاني السابق هما نفسهما سيتحولان إلى السطر الأول الجديد أي سيصعدان فقط، والعددان الثالث والرابع من السطر الأول السابق هما العددان الأولان من السطر الثاني الجديد والعددان الأول والأخير من السطر الثاني السابق هما العددان الثالث والرابع من السطر الثاني الجديد سنحصل على الوفق الآتي:

16	12	21	8
12	8	29	20

وبات العم عباس يرسم شكلاً جديداً مُغيراً مواقع الأرقام بطريقة هندسية مذهلة، وكأنها تسيرُ على وفق ترتيبٍ خاص بها؛ ونسق جميل وهو يتلاعب بالأرقام وكأنه يحرك الملك ووزيره والجنود المحيطين بهما على رقعة شطرنج.. ثم نظر لي وقال:

- **هل فهمت شيئاً؟ ..**

كنتُ مشدوداً نحوه وهو يتلاعب بالأرقام، وقلتُ:

- **نعم إني أفهمك جداً فهذا جزءٌ من فلسفة جميلة ورائعة، أكْمِل..**

بينتُ له ذلك وأنا أنظر لأوراقه البيضاء التي امتلأت بحروفٍ وأرقام وهندسة لذيذة جميلة، ثم أردف:

لو لاحظنا الوفق السابق والجديد نرى أنه نفسه لكن تم قلب الخطوط من الأعلى للأسفل ومن الأسفل للأعلى فقط مع تغيير لمواقع الأعداد وهذه الطريقة تسمى بـ (مزاوجة الوفق) للحصول على الوفق المطلوب وهذه المزاوجة لا تصلح إلا مع المدن التي تكثر فيها الأعداد الزوجية، أي لو كانت أعدادك الأكثر فردية لا يجوز مزاوجة الوفق بتاتاً، الآن سنرى بأية جنة ستحلق مع من تريد، سنضع الأعداد مع بعضها بالترتيب بسطر واحد بدءاً من العدد الأول للأخير ونستبدل هذه الأعداد التي أرهقتنا بالحروف الموجودة في الجدول الأول الذي ترجمنا منه عبارتك (أحبك ولا أدري أين سنلتقي) وجعلناها تحت طاولة التشريح العددي الرقمي للحصول على أعداد وأرقام المدينة وبعد كل هذه الخطوات التي حصلنا منها على الشكل النهائي الآن نعود لاستبدال الأعداد بالحروف لنعرف المدينة التي ستكون ملاذاً لك للالتقاء بها، لكن تيقن أن المدن الثماني كلها جميلة، ثمة فوارق بسيطة ومميزات بين مدينة وأخرى، الآن سنعرف أية المدن ستكون لك..

العدد	8	21	12	16	20	29	8	12
الحرف	ا	ي	س	ك	و	ل	ا	س

ثم نقوم بتجميع الأحرف.. (إيسكولاس)، إنها مدينتك التي ستسافر إليها..

في هذا المكان ستلتقي بمن تحب وتهوى، بمن أرهقت فكرك وبالك ومخيلتك، إنَها...

وصمت العم عباس شاه ولم يكمل ما أراد التفوه به...

(29)

كانت هذه هي اللحظة الأولى للدخول إلى عالمٍ غريب، والولوج في سرّ هذا الكون، وبادرتهُ قائلاً:

- **تحدث يا عم أراك سكتَّ، لقد أردت أنٍ تقول شيئاً.**
- **نعم أردت أن أبوح لك بسرّ هذه المدينة، لكن لا حاجة للبوح، إنها أكبر من أن أبوح لك بها، إنْ أردتْ السفر إليها ستتعرف عليها بمفردك من دون الرجوع لي مرة أخرى.**
- **لكن كيف سأسافر لها وأنت بعد كل هذه المشقة والعناء التي أتعبتنا حتى الساعة المتأخرة من الوقت، لم تستخلص سوى اسمها.**
- **نعم هناك طقوس خاصة للسفر إليها لا تستعجل يا بني، فما زال الطريق طويلاً للوصول إليها، عليك الصبر، تحتاج إلى الكثير من المشقة والعناء. ستنصهران سوية وكأن روحيكما تحلقان في فضاء غرائبي بعيد عن هذا العالم المليء بالقتل والخراب والدمار.**
- **(إيسكولاس) اسم غريب، ما يعني هذا الاسم؟**
- **قلت لك لا تستعجل السؤال ستعرف كل هذا بمفردك حينما تدخلها.**
- **أنت قلت لي أن هناك مدنًا أخرى غير (إيسكولاس)، يشدني الفضول لمعرفة أسمائها فقط، فبي شغف وحب كبير لمعرفتها.**
- **(إيسكولاس)، (ميلانجست)، (خوسينستا)، (غسهانيست)، (همازروشت)، (قفرجينيش)، (ويستردزن)، (إيسلاولِت)، هي أبواب خلفية للجنة لا يكتشفها أي شخص ولا يمكن للبسطاء من الناس الوصول إليها وهي تزول بموت الإنسان، ولا يصل إليها إلا من يعرف سرّ الشيفرة العددية الرقمية لهذه المدن.**

أيّ مدن تلك التي لا تتفق إلا مع نية خالصة وشهقة تخرج من القلب...

- **يا عم.. ألا تلاحظ شيئاً بهذه الأسماء؟**
- **ما قصدك من كلامك هذا؟**
- **ألا تلاحظ أن عدد المدن ثمانية، وأنها مكونة من ثمانية أعداد، وأن الأعداد التي استخدمتها لاستخراج اسم المدينة أيضاً ثمانية.**
- **نعم هو التطابق العددي وهذا يتفق مع النظام الكوني المكون للكون بأجمعه فمثلا كل شيء خلقه الله في هذا العالم بانتظام لا يقبل الشك والريبة، فكل شيء أراده الله بمقاييس معتمدة وأرقام مطابقة جداً.**

وبات يسردُ لي أسراراً غريبة جداً وهو يتحدث عن فلسفة خاصة قائلاً: عدد الأيام والشهور متفق عليه بأمر الله لا يزيد على ثلاثين ولا ينقص عن تسعة وعشرين، على وفق بزوغ الهلال واختفائه، وأن الليل والنهار أراده الله بانتظام فكلاهما ينصف البعض فيقسم اليوم إلى نصفين يأخذ الليل منه حصة ويأخذ النهار منه حصته هو الآخر، وحتى الفصول الأربعة تأتي على مدار السنة بنظام إلهي منتظم فكل شيء خلقه الله بانتظام، وهذه الأرقام والأعداد تتفق مع ما يريده الله لنا، ولو طرحت عليك أسئلة عدة، مثلاً لماذا لم يجعل الله فصلاً خامساً يضاف إلى فصول السنة؟ فهذا ليس صعباً طبعاً على

الله لكن الله يعلم أن تطابق العدد (4) مع هذه الفصول يمنح الكون انتظاماً خاصاً، لماذا لم يجعل الله عدد الشهور ثلاثة عشر شهراً؟ وهو القائل أن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً، ولو كان أكثر من اثني عشر أو أقل من ذلك لسبب إرباكاً في الميزان الكوني لهذا العالم، وقس على ذلك كل الأعداد والأرقام. لا أريد أن أربك مخيلتك بالأرقام والأعداد، لكن ستعرف فيما بعد أن هذه الأرقام لغزٌ إلهي عظيم لا يمكن الاستغناء عنه في حياتك الدنيا فهي سرّ المعرفة الحقة لله، ويقول أيضاً في كتابه الحكيم (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّام) لِمَ اختار العدد ستة وهو قادر على أن يخلقهما في لمح البصر وهو القائل (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) ألا نحتاج إلى التفكر قليلاً، عليك بالتفكير والتحليق بفضاء الأرقام والأعداد وستعرف كم هي ممتعة جداً، فمن يملك هذا الفضاء العددي يستطيع أن يجاري هذا الكون بأسره وستعرف لِمَ أنا حين تنفجر بالقرب مني سيارة مفخخة تحيل مَن حولي إلى كومة جثث متفحمة وأخرج منها كنسمة باردة تهب مع الريح، ولِمَ تأكل النيران المحلات الفخمة الكبيرة ومحلي البسيط لا تصله النار، وستعرف وقتها كيف أعيش بسوق كبير أمتهن بيع بضاعة بخسة على الرغم من أني أعيش كما تعيش الناس، وستعرف وقتها بعد برهة كيف أعلم ما تخفيه بداخلك من أسرار، وكيف تفكر، ستعرف الكثير، لا تستعجل لئلا تفقد نعمة هذه الأعداد والأرقام التي تحيلك في النهاية إلى شُعْلةٍ متقدة في الكون أو تذهب بك في النهاية أدراج الريح إن لم تحسن استخدامها، الآن أنت ستأوي إلى مدينة (ايسكولاس)...

كان الوقت يحاصرني وهو يمرُّ سريعاً بينما أنشغلُ أنا بالمتعة واللذة الفكرية التي قدمها لي العم عباس شاه وهو يتحدث برشاقة وطلاقة في سرّ الأرقام والأعداد، كانت الشمس تودع السماء راحلةً إلى قسمٍ آخر من العالم المقابل لنا، رحلتْ إلى الضفة الأخرى من هذا الكون الكبير.

- **يا عم، الوقت يداهمني الآن، هل ما زلت تحتاج للكثير لتفصح لي عن سرّ المخطوطات؟!!**
- **نعم، نحتاج إلى وقتٍ طويل لنتحدث، اتصل بأمكَ وأبلغها أنك ستبيت الليلة بالعمل، وقل لها بأنك ستتأخر قليلاً وستعود للبيت في الصباح الباكر.**
- **هل تعلم يا عم أنني نسيت أن أتصل بها ظهراً لأبلغها بتأخري، لكن الأفكار أنستني كل هذا.. فأمي امرأة بسيطة لا تُجيد حتى استخدام الهاتف، فهي من الجيل القديم الذي يتعامل مع التكنولوجيا الحديثة بصعوبة وبمشقة وعناء..**

وحين اتصلتُ بها، لم تجب، كررتُ الاتصال مرة وثانية وثالثة لكنها لم تجب، وشعرتُ بقلقٍ شديد اتجاهها، في المرة الرابعة ردتْ على هاتفي..

- **(ها.. يمه شلونچ)..** قلتها لها بلهفة وشوق.
- **(هلا يمه شلونگ.. وين أنت لحد هسه ما أجيت للبيت خيرك ابني إن شاء الله ما گو شي)..**

كانت تتحدث وهي تشعر بقلق وخوف، شعرتُ بهذا حين سمعتُ أنفاسها تتدفق عبر سماعة الهاتف وهي ترتبُ كلماتها بارتباك شديد..

- **أمي لا تقلقي سأبيتُ الليلة بالعمل فلدي عمل كثير وسأعود في الصباح بمشيئة الله.. أنا بخير وسأبيتُ الليلة عند العم عباس، لا تخافي أو تقلقي..**

ودعتُ أمي وانشغلتُ بالعم عباس وهو ينتظرني أن أغلق هاتفي لأعود للحديث معه..

- **يا عم بعد معرفة المدينة، هل انتهى كل شيء؟ أم مازال هناك نفقٌ مظلمٌ لا بد من المرور منه، أو ثمة حاجز لا بدَّ من عبوره والجواز من خلاله.**

- **ها نحن الآن فقط عرفنا اسم المدينة الخالدة، لكن عليك الآن أن تنظر للمخطوطات، فقد جاء دورها، فلكل مخطوطة من المخطوطات الثماني التي بين يديك طقوس خاصة منها سهلةٌ جداً ومنها صعبٌ جداً، لكن عليك بالصبر والشجاعة والتحلي بالقوة والمثابرة للوصول إلى ما تصبو وتطمح إليه.**

وبدأت أُقلبُ في المخطوطات لأشاهد ما لم أشاهدهُ من ذي قبل، كلماتٌ مبعثرة وحروفٌ ملتصقة غير مفهومة وأرقام رُتِبتْ بشكل منتظم جداً ومربعات تتبعها دوائر ومثلثات وعدتُ للوراء وكأنني الآن بدرس من دروس علم الرياضياتً، ما رأيتهُ لم يكن وصفاً عادياً أو سهلاً، لم يكن غريباً أو غير مفهوم بل كان شيئاً أكبر من هذا عجزتُ تمام العجز عن وصفه أو السؤال عنه... قلبتُ المخطوطات الواحدة تلو الأخرى، كنتُ أقلبُ بها بينما كان العم عباس يكتفي بالنظر لي وهو يلوذ بصمتهِ منتظراً أن أتفوّه بكلمة واحدة على الأقل وسط ذهولي وحيرتي وصمتي..

(30)

المخطوطة الأولى

كان يكرّر كلمة غريبة مرة واثنتين وثلاثاً ويكمل خلف هذا.. عبارات تحمل مودة ومحبة باسمي واسمها ثم يردف كلمات بلغة عجيبة، وثمة أحرف متقطعة وأخرى طويلة ورموز ونجمات غريبة لا سداسية لا خماسية أو رباعية لا شيء من هذا مجرد نجمة رسمت بشكل غريب، ويكرر خلف هذه الأشكال كلمة أخرى لمرات أربع ويستمر بكتابتهِ.. ويرفقها بعد هذه الكلمات برموز أخرى جديدة يقسم الرموز إلى ثمانية أقسام، نجمة، وخطين، ورمز لا يوصف، ورقم فارسي مكرر، وثلاثة أحرف للعين، حرف ميم، حرف فاء، وثلاثة أحرف للألف فوقهما مدة، ثم يكمل بعد هذا كلماتٍ غير مفهومة.

المخطوطة الثانية

رسم أشبه بدمية أو تخطيط لطفلٍ صغير رأسهُ خالٍ تماماً من الشعر، عيناه مدورتان، وحاجبان رفيعان خطا بإتقان كحاجبي فتاة تتأنق لعشيقها وتخطهما كهلال في بداية بزوغه أول الشهر القمري، لا شيء غريبٌ بوجههِ سوى فمه الذي عبارة عن عينٍ برموشٍ سفلية، فاتحاً ذراعيه ورجليه، في يده اليمنى أربعة أصابع وفي اليسرى الخمسة كاملات، وكُتِبَ على ذراعه الممدودة اليسرى كلمة مبعثرة وعلى ذراعه الممدودة اليمنى حرف (ش)، وعلى رجله اليسرى كلمة غير مفهومة، وعلى رجله اليمنى كلمة غريبة، وثمة دائرة كبيرة تربط اليدين بالرجلين كُتب بداخلها كلمة (الحق) باتجاهين متعاكسين، ولكن بطريقة هندسية، لم تكن بخط النسخ أو الثلث أو الرقعة أو الديواني ولا بالخطوط المتعارف عليها، بل ربما أقرب للكوفية، يحاط الرسم كلّه من جهاته الأربع بكلمة غريبة وجديدة مكررة ثماني مرات.

المخطوطة الثالثة

خط طويل في الأعلى مُقسمٌ إلى ثمانية أجزاء أغلبها مكونة من الأعداد، رمزٌ وكلمة، ففي بداية الخط، الرقم (91) ثم رمزٌ أشبه بعلامة (أكس) في رؤوسه الأربعة المتخالفة والمتقاطعة دوائر وكأنها عبارة عن تسعتين متقاطعتين من الأعلى، وكذا تسعتين متقاطعتين مقلوبتين من الأسفل وحرف (ط)، ثم رقم (119)، ثم رقم (919)، ثم (18)، ثم (19)، وأخيراً كلمة غير مفهومة وأسفل هذه الرموز المنسكبة على الخط الطويل بصورة مائلة، كُتِبَ.. سطرٌ غريب فيه فراق وغياب وشوق وهياج وانشراح صدر وراحة بال.

المخطوطة الرابعة

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ)

اللهم بحق النور الساطع، وحملة عرشك، والملائكة المقربين منك، أن تذيب البرزخ ما بين الاثنين. وأسفل هذه الكلمات كُتِبَ سطرٌ غريب وتكرر هذا السطر ثماني مرات.

المخطوطة الخامسة

طلسم مربع مقسم إلى ثمانية صفوف وثمانية أعمدة، الوتران المائلان للشكل المثمن أي قطرا المربع يتشابكان فيما بينهما ليكونا على شكل حرف (أكس) متقابلين بالرأس بداخلهما رقم (8) وعند النظر إليهما من بعيد ترى هذه الحقول التي كُتبا بداخلهما رقم (8) على شكل رقم (8) متقابلان بالرأس يتحدان في المنتصف بأربعة حقول متراصة وثمة حقلان قريبان من بعضيهما مجموعهما يساوي (8) وفق نسق عددي لا يقبل التشويه وكأنَّ هذه الأشكال والأرقام خلقت من أجل هذا الطلسم.

المخطوطة السادسة

ما هي إلا دائرة وفي داخلها دائرة أخرى مقسمتان بالتساوي إلى ثمانية أقسام، في كل قسم من هذه الأقسام الثمانية كتبت حروف وأسماء ففي الأقسام الثمانية العليا التي تنتمي للدائرة الخارجية الكبيرة كُتِبتْ وبالتسلسل أسماء، باري، باسط، بصير، باعث، باطن، برّ، بديع، باقي، ثم كُتِبتْ في الأقسام الثمانية الصغيرة الأخرى التي تنتمي للدائرة الصغيرة حرف (الباء) أي ثمانية حروف متقطعة لـ(الباء) المنفردة.

المخطوطة السّابعة

ثمَّة طلسم على شكل مربع وفي داخله مربع صغير، وخطان مائلان يخترقان المربعين على شكل حرف (اكس)، في منتصف الخطين وفي نقطة التقائهما دائرة كُتِبَ بداخلها رقم (8)، أمّا المثلثات المكونة من تقاطع الخطين بالمربعين في داخلهما رقم (4)، وأسفل هذا الشكل ثمَّة كلمات أخرى لا

تنتمي إلى العربية قط ولا إلى العبرية ولا إلى الإغريقية ولا شيء من هذا القبيل، كأنها أشكال لا كلمات، تحتاجُ إلى رسامٍ متفنن بالخط والرسم ليكتبها كما هي، وفي الأسفل بعد كل هذا دونتْ كلمات غير مفهومة.

المخطوطة الثامنة

رسمٌ كما الرسم الطفولي السابق لكنه يختلف عنه تماماً، وجهٌ مدور، وعينان على شكل حرف نون مقلوبة نحو الأسفل، وأنف على شكل حرف (طاء)، بلا فم ولا أذنين ولا شعر، ماداً يديه بقوة، في كفه اليمنى خمسة أصابع وفي اليسرى أربعة، وكُتِبَ فوقَ اليمنى رموز (1511ع) وفوق اليسرى رقمان فارسيان وثلاثة أشكال غريبة ونجمة عادية ورقمان عربيان بنفس قيمة الرقمين الفارسيين، ومن صدرها حتى عجزها تتخذ شكلاً مثلثاً رأسه للأعلى وقاعدته للأسفل، وفي داخله كتابات كثيرة.

وأسفل هذا التخطيط طلسم عددي بضرب أعداد وجمعها متسلسلة تبتدئ بالعدد تسعة وتضرب مع أعداد متسلسلة لا تقبل البعثرة أو العشوائية ليكون الناتج النهائي هو عبارة عن رقم واحد يتكرر بعدد الخطوات ففي الخطوة الأولى يكون الناتج واحداً، وفي الثانية يكون الناتج أحد عشر وهو عبارة عن واحد إلى جانبه واحد، وفي الثالثة مئة وأحد عشر وهو أيضاً عبارة عن ثلاثة أعداد للواحد تصطف بصف واحد، وفي الرابعة يضاف واحد إلى الصف ليكون أربعة تقف بصف واحد، وهكذا حتى الوصول إلى التسع خطوات، عندها استخرجتُ هاتفي لأتأكد من العمليات الحسابية ونواتجها من خلال استخدام الحاسبة الموجودة به، وشرعتُ بالضرب والجمع بين الأعداد وحتى الخطوة الأخيرة لأجد كل الأعداد الموجودة بهذا الطلسم لم تكن عشوائية أبداً، بل كانت مكتوبة بحرفية وفنّ لا يعلمه إلا أصحاب هذا العالم الغريب..

اتكأتُ على الحائط وأنا أتجاذب أطراف أنفاسي الراكضة خلف شوق الحديث الخارج من فم العم عباس شاه، سائلاً إياه:

- **ما هي الطقوس الخاصة بالمخطوطات؟!**

(31)

وبات يسردُ لي العم عباس شاه طقوس الرحلة...

- **أستمع لي...**

قالها بعد أن غَيّر جلستهُ ماداً قدميهِ إلى الجهة الأخرى..

ثم استطرد بالحديث متواصلاً بشرح الطقوس الخاصة بالمخطوطات السحرية وطبيعة عملها، فالمخطوطة الأولى لا بدّ من إحراقها عند المغرب مع بعض الحرمل حين تتلوّن السماء بالحمرة ولا بدَّ من تجميعِ رمادها وإلقائِهِ في ماءِ نهر جارٍ، محذراً أن يتطاير من رمادها أي شيء، وأما المخطوطة الثَانية.. فلا بد من أن آخذ قطعة قماشٍ من ثوب فتاة ولا يهم من أن تكون حسناء أو غير

ذلك المهم أن تكون أنثى وترفق مع المخطوطة وتربطان ببعضيهما بعد طويهما بشكل صغير برجل عصفور ليحلق بهما وسط السماء، وأما الثالثة فلا بدَّ من دفنها في عينٍ للنملِ جارية، وأما الرابعة فتلقى في ماءِ نهر جارٍ بلا حرق أبداً، والخامسة تُدفن بين قبرين أحدهما قديم والآخر جديد، والسادسة تطوى بقطعة قماش خضراء ثم تربط بالذراع الأيسر محذراً من عدم خلعها حتى الانتهاء مما جاء بطقوس السابعة والثامنة، أما المخطوطة السابعة فلا بدّ من إلقائها في البئر الذي سُجِنَ به الملكان ببابل هاروت وماروت في معبدِ ننماخ، والثامنة لا بدّ من الذهاب إلى مدينة سومرية فهناك مجموعة من الجنِّ تحرس سومر منذ قديم الزمان وما زالت حتى يومنا تقفُ على بواباتها..

- **بعد الانتهاء من نجاح المخطوطات السبع الأولى سأحدثك بتفاصيل المخطوطة الثامنة فإنَّ بها عملاً كثيراً، صعباً وشاقاً، عليك الآن باجتياز البوابات السبع والاختبارات لتؤهلك إلى الثامنة فهي الخاتمة التي من خلالها ستحصل على مفاتيح إيسكولاس، ومن دون الاجتيازات السبع لن تصل للثامنة، فالطريق إليها صعبٌ جداً..**

بيّن ذلك العم عباس وهو يسرد تفاصيل المخطوطات باستثناء الأخيرة

كان الوقت يشارفُ على الرابعة صباحاً، وبعد الانتهاء من شرحه أعد لي فراشاً، وتمددتُ تلك الليلة مرتاحاً وكلّي شغف بالعمل الذي أوكلهُ لي، وحين استسلمتُ للنعاس تماماً أغمضتُ عيني وانقطعتُ عن العالم كلّه بلا أحلام أو كوابيس أو أي شيء من هذا، نمتُ نوماً هادئاً ما صحوت إلا عند السابعة صباحاً، حين وجدتُ يده وهي تعبثُ بوجهي، قائلاً لي وأنا أرتبُ بقايا النعاس المتجمع فوق جفني:

- **قم واغسل وجهك واستعد للفطور.**

كنتُ أتمغط لاستجماع قواي للحركة بعيداً عن فراش نومي، خرجنا سوية، هو ذهب لدكانه الصغير وأنا استأذنته للذهاب لمنزلي لئلا تقلق أمّي فقد وعدتها بالعودة صباحاً حاملاً بيدي أغراض أم فاضل التي أوصتني عليها..

(32)

صباح الكاظمية المشمس يختلف عن يومها الغائم الملبد بالغيوم السوداء، يومٌ بارد مصحوبٌ بشمس دافئة، وقبل الدخول في زقاقنا مررتُ بطريقي على أم فاضل، وقبل أن أطرق بابها سمعت بعض النسوة وهن يتحدثن إليها.. وصوتٌ اخترق مسامعي..

- **(خالة.. أني معمولي عمل)..**

وكانت تقصدُ بعبارتها أنَّ شخصاً ما عمل لها سحراً لإبطاء قسمتها ونصيبها، كنتُ أسمعُ من خلف الباب صوتاً ناعماً لأنثى حسناء، فالصوت الخارج من خلف الباب يدللُ على أن الصوت الملائكي لحسناء فاتنة، لكنها لن تكون أجمل من ماريا أبداً، وما أن طرقتُ الباب حتى بزغت بوجهي أم فاضل مستفسرةً عن عدم جلب الأغراض لها البارحة مساءً.. فتبسمتُ بوجهها قائلاً:

- **كنتُ منشغلاً بساحر عذب أيتها الساحرة الجميلة..**

ممازحاً إياها وهي تنظر لي:

- **هيا اذهبي واعتني بالفاتنة التي عملوا لها عملاً وعليك باستخراج السحر منها لتجد رجلاً يتزوجها قبل أن تفتك بها العنوسة، ويذهب العمر في محطات الانتظار الباردة..**
- **نعم هذا شيء مؤلم..**

أجابتْ وهي تتلقف الأغراض من يدي، لتردف وهي تغلق الباب بوجهي..

- **أذهب فلدي عمل كثير..**

وحين وصلت للبيت وجدتُ أمي منهكةً وهي تلتقط الحصى الناعم من حفنة عدس نثرتها بصينية بلاستيكية، وما أن سمعتْ وقع أقدامي وفحيح حركاتي حتى استقبلتني بعبارات تنعش روحي وتنسيني كل هموم الدنيا..

- **(هلا بيك وليدي)..**

بهذه الكلمات تلقتني أمي وهي ترفرف بيديها كحمامة بيضاء، مستقبلةً إياي، زارعةً على وجنتي قبلتين شفافتين هادئتين، وكأن الجنة حطتْ على وجنتي بقبلتيها..

وحين صعدتُ لغرفتي وجدتُ بعضاً من رسائل ماريا وهي تبعثُ لي برسائل إلكترونية عبر صفحتها الشخصية..

- **مساء الورد أيها الشقي..**

ثم أردفتْ خلفها رسائل عدة...

- **الحب بذرة في القلب لا تنمو إلا بالوصال.. أين أنت يا وصالي، أراك مختفياً الليلة تماماً، لا بد من أن الحنين ساقك لأيام طفولتك وتريد أن تلعب معي لعبة (الغميضه)..**

  سأزعل منك جداً، كأنك مشغولٌ الليلة بغيري.. لا يهم تصبح على ورد..

كانت تختتمُ حديثها بزعل جميل، فللمرة الأولى أشعر بزعلها، ربما هو جزء من دلال، وفكرتُ في كيفية التحضير للمخطوطات، فالمخطوطة الأولى بسيطة جداً، فاليوم الجو مشمس وحتما سأجهز لحرقها مع تلون الشمس بالحمرة، لكن الثانية تحتاج إلى قطعة من ثوب فتاة، إذن عليّ أن أذهب للسوق للبحث عن قطعة صغيرة من ثوب فتاة، أما العصفور فاقتناؤه سهلٌ جداً، سأحصل عليه من سوق الغزل ففيه أنواع شتى من الطيور.. وأخذتْ هذه الأفكار مني مأخذها، كانت أمي تصيح عليّ لتناول طعام الغداء بينما أغرق أنا بالتفكير بصمت وبالتحضير للمخطوطات.

بعد الانتهاء من الغداء خرجتُ لسوق باب الدروازة، ففي هذا السوق تحتشد الكثير من النسوة، لعلي أقتنص لحظة من اللحظات لأسترق قطعة صغيرة من ثوب فتاة جميلة، أخذتُ مقصاً صغيراً بجيبي ورحتُ أفتشُ عن لحظة مناسبة أسترق بها ما أبحث عنه، تهتُ كثيراً وأنا أتلصص بوجوه الحسناوات والفتيات الجميلات، كلما أتقربُ من إحداهن أشعر بالحرج يقتلني، لذا أبتعد، وكلما هممتُ وأنا أمسك المقص بيدي وهو يختبئ في جيبي، أتراجعُ وأشعر بخجل يمنعني من ذلك، ثمة قوى خفية كانتْ ترصدني وتحاول مساعدتي، ما شعرتُ بهذا إلا حين أمسكتْ قطعة حديدية خارجة من إحدى المحال بثوب حسناء من أطرافه الطويلة وهي تسير بزحمة الناس لتجره بقوةٍ، حين شعرتْ الفتاة بشخص وقح يلاحقها يمسك بأطراف ثوبها، التفتت للوراء بغضبٍ شديد لكنها لم تجد سوى قطعة من الحديد تتشبَثُ به، وحين عادت ملامحها لطبيعتها، توجهتُ لها وعلى الفور بمساعدتها، فجذبتهُ بقوة لتبقى قطعة صغيرة معلقةً بالحديد، قدمتُ لها اعتذاري لأنني مزقتُ ثوبها، لكنها ابتسمتْ بوجهي قائلةً:

- **لا يهم..**

ومضتْ في طريقها، وحمدتُ الله والقدر الذي ساعدني للحصول على قطعة القماش بعد أن شعرتُ أنها مهمة صعبة المنال، أخذتُ القطعة ووضعتها بجيبي وعدتُ للبيت قبل مغيب الشمس لأتمم طقوس المخطوطة الأولى، صعدتُ إلى سطح الدار حاملاً بيدي الحرمل والمخطوطة وآنية معدنية لئلا أفرط برمادها كما أوصاني العم عباس برميه في ماء نهر جارٍ، وحينما اقتربت الشمسُ من المغيب وقبل أذان المغرب باتت تتلون بلونٍ أحمر كعلامةٍ على غروبها ودلالة على رحيلها للقسم الآخر من هذا العالم، وضعتُ المخطوطة بالآنية وأشعلتها حتى تعالت النار بها لتنهشها، زججتُ الحرمل فوقها وسمعتُ طقطقةً له، وكأنهما حينما امتزجا تراقصا على سمفونية من نوع خاص، تعالى خيطٌ من دخان أبيض ورائحة جميلة ملأت المكان، وحين تلاشى كل شيء المخطوطة والنار والحرمل والدخان، وضعتُ الرماد بكيس صغير على أمل إلقائه في الصباح بنهر دجلة...

- **(شممتُ رائحة عبقة لحرمل يا بني)..**

تساءلت أمي وهي أسفل الدرج رافعةً رأسها للأعلى..

- **نعم أمي أنا أحرقتُ قليلاً من الحرمل لأطرد السحر من هذا البيت**..

قلتها وضحكت..

كان المساء يحلُّ كالبرق الخاطف، توجهتُ لحاسوبي لملاقاة من أحب وأهوى، وحين فتحتُ صندوق رسائلي ما وجدتُ أي شيء منها وانتظرتها حتى اقتربت الساعة من المنتصف ليلاً، ثم مرّ الوقت حتى الواحدة فالثانية، شعرتُ بحاجة ورغبة ملحة تلك الليلة للحديث معها، لكن من دون جدوى، وخلدتُ للنوم بعد أن أطفأتُ حاسوبي.

(33)

حين جنّ الصباح يحمل بين يديه نسمات عذبه شبه باردة تذيب برودته شمسٌ خجولة، وما أن وصلت ساحة الميدان حتى مررتُ على شارع المتنبي ومنهُ إلى ساحة حافظ القاضي، ومن هناك اتجهتُ صوب جسر الشهداء ماراً بالمتحف البغدادي، صعدتُ الجسر ومن منتصفهِ نثرتُ رماد المخطوطة الأولى حتى غار الرماد في بطن الماء بعد أن حلّق لمسافة ليست بالبعيدة في الهواء الطلق، عدتُ بنفس الطريق للدخول لسوق الشورجة والمرور على العم عباس..

- **طاب نهارك يا عم..**

ألقيتُ التحية عليه وهو يتشمسُ بباب دكانه.

- **أهلاً يا ولدي..**

رد مرحباً بي وهو يبددُ رطوبة ملابسه الباردة بشمسٍ تغازل باب دكانه بخجلٍ شديد..

- **لقد أنهيتُ مخطوطتي الأولى بنجاح وبعد قليل سأشتري عصفوراً صغيراً من سوق الغزل وأنجز طقوس الثانية بنجاح..**

كنتُ متفائلاً جداً بسرعة الإنجاز.

- **أنتظرُ منك أن تنجز ما تبقى بأسرع وقت لأطلعك على سرّ وتفاصيل المخطوطة الثامنة فعملها يحتاجُ للوقت..**

بيّن لي ذلك متلهفاً وهو يرفع نظره صوبي واضعاً يده فوق عينيه ليتقي شرّ شمس الصباح التي تخترق ناظريه.

- **أسعد.. أسعد..**

قالها خالد وهو يكدس أكياساً من حمولة لملابس باعها بالجملة على زبون واقف بالقرب من محلّه، أحملها للزبون وأوصلها لنهاية الشارع بالقرب من سوق الغزل المليء بالطيور والحيوانات الأخرى ووجدتها فرصة في المرور بطريقي إلى هناك، عدتُ مرة واثنتين وثلاثاً وأربعاً حتى شعرتُ بالتعب الشديد من الأكياس الثقيلة، وما أن أنجزتُ عملي حتى ذهبتُ بطريقي إلى سوق الغزل وعند بائع العصافير، اشتريتُ عصفوراً بألف دينار، كان العصفور يقفزُ هارباً داخل القفص خائفاً من العصافير التي ترحل من القفص ولا تعود إليه مرة أخرى، وبالقرب من جامع الخلفاء أدرتُ وجهي صوب الجامع وأخرجتُ من جيبي المخطوطة الثانية التي خيطتها بخيطٍ بعد أن لففتها بقطعة قماشٍ من ثوب الفتاة، وأخرجتُ خيطاً رفيعاً قوياً ربطتهُ بالمخطوطة ورجل العصفور ملقياً إياه للأعلى نحو غيمة بيضاء، فرَّ العصفور محلقاً صوب السماء الزرقاء يحمل برجله المخطوطة الملفوفة ذاهباً إلى أماكن لا نعرفها ربما سيحملها إلى ليون، أو عالم الأرواح أو إلى مكان لا نعرف عنه أي شيء، وبهذا العمل أكون قد أنجزتُ المخطوطة الثانية وفي الطريق مررت بالأزقة المظلمة القديمة للشورجة وبجانب حائط قديم وجدتُ عيناً للنمل تخرج من خرم صغير في باطن الأرض يسرن بمسار منتظم، وجدتُ ذلك إنجازاً كبيراً بالنسبة لي أن انهي طقوسَ ثلاث مخطوطات، فاتكأت على الحائط وجلست أفتعل قضية ربط حذائي بيدي لئلا يشك المارة بي أو أثير انتباههم داخل الزقاق، فحين أتأكد من عدم وجود أي شخص لا من بعيد أو قريب، أحفرُ بيدي العين التي تتخذ من هذه البقعة مكاناً ومدينة لها، لففتُ المخطوطة الثالثة جيداً وحفرتُ لها حفرةً صغيرة لا بأس بها تسعُ لإخفائها ثم ردمتُ الحفرة والمخطوطة معاً، وهنا أكون قد أنجزتُ الثالثة على الترتيب، أما الرابعة فلا صعوبة بها لأنني سأرميها بنهر ماء جارٍ، في نهر دجلة ومن منتصف جسر الشهداء لأعود بنفس طريقي الذي جئت منه صباحاً، وبهذا أكون قد أنجزتُ نصف طقوس المخطوطات، وفي طريقي أثناء تجوالي بالسوق باحثاً عن رزقي، مررتُ بعلاء وهو يفترش ملابس الأطفال الملونة..

- **مرحباً أيها الصديق الساخر من هذه الدنيا..**

بوجهٍ باسم قلتها بعد أن ضحكتُ قليلاً على سخريته التي لا تنقطعُ أبداً، لكنه فاجأني ببروده وشكله ولحيته الطويلة، وحين استفسرتُ عن سبب تغيره المفاجئ، علمتُ منه بوفاة أمه المتوفاة قبل شهرين، اعتذرتُ منه لأنني لم أكن أعلم بذلك.

- **سأذهب غداً لزيارتها في مقبرة النجف..**

انزلقت من عينيه دمعة تختزل كل همومه والأسى غاسلةً سخريته وضحكاته ونكاته التي كانت تملأ أرجاء السوق، بل في كل مكان، وقلتُ في نفسي هي فرصة جميلة أن أبحث عن قبرين أحدهما قديم والآخر جديد، وبادرتهُ على الفور..

- **سأذهب معك غداً لقراءة سورة الفاتحة لأمك، سنتفق كلانا على الوقت للذهاب إلى مدينة النجف..**

- **عليك بالتواجد عند الثامنة صباحا في گراج العلاوي..**

أجابني وهو يمسح بقايا البلل المتجمع من دموعه فوق جفنيه، ودعتهُ عائداً لبيتي بعد أن أشرفتْ الساعة على الثالثةِ عصراً وعدتُ بطريقي الصباحي نفسه ومن فوق الجسر ألقيتُ بالمخطوطة الرابعة في دجلة، أطالعها وهي تتطاير في الهواء لتستقر بعيداً في النهر، رأيتها كالعصفور الذي طار محلقاً بعيدا ليتوارى عن الأنظار، فكانت تبتعد محلقة بالهواء حتى استقرّت على أكفّ الماء، وبذلك أكون قد أنجزتُ النصف من طقوس هذه المخطوطات.

كانتْ أمي تتوضأ لقراءة القرآن قبل أذان المغرب بساعة واحدة.

- **أمي. غداً صباحاً سأذهب لمقبرة النجف لزيارة أم صديقي علاء التي توفيت من غير أن أعلم بذلك..**

قلتها لها وهي تمسح يديها بمنشفة معلقةٍ على المرآة.

- **لا عليك يا بني أذهب وقم بالواجب، فمواساة الناس من أخلاقيات المجتمع وأنا أؤيدك بذلك..**

أجابتني بعد أن أعادت المنشفة مرة أخرى لمكانها.

(34)

حين بدأ الليل يتسلق عبر بوابات هذا الكون الكبير، فتحتُ حاسوبي لمشاهدة الرسائل الواردة من ماريا.. لكن لم يردني منها أي شيء، وشعرتُ بالكآبة تسري إلى نفسي بعد أن كنتُ فرِحاً بإتمام طقوس مخطوطات أربع، ولم يتبقَ أمامي سوى الأربع الأخريات، وبعثتُ لها برسالة غزل عبر الدردشة..

- **حبيبتي ما زلتِ لا تعلمين أنَّ الاشتياق**
  لايكون اشتياقاً إلا بالعناق
  وأنَّ الحب لا يكون حباً
  إلا حين أن نتبادل الشفاه
  خلف أسوار المساء
  حبيبتي ما زلتِ لا تعلمين أن شعرك المنثور
  هو بداية ليلي.. وهو بعضٌ من ذاك اللقاء

وما أن بعثتُ لها الرسالة حتى ردتْ وعلى الفورِ وكأنها كانت تنتظرني بالجهة الأخرى من الحاسوب..

- **مساؤك عشق.. ما هذه الكلمات الحلوة؟**
- **أحبّك يا مجنونة، ما سرّ ابتعادكِ عني هذه الأيام، انتظرتكِ البارحة طويلاً، لكنك لم تأتِ وهذه الكلمات جاءت لتعبر لك عن صدق ما كان يخبئه قلبي.**

- **ومنذ متى وأنا أهمك، وأنت تبتعدُ عني.**
- **والله أحبكِ..**

خرجتْ الكلمات من قلب صادق، لا غش أو خداع لا تزييف، لا أي شيء من هذا، فعلاً أحب هذه المرأة، أحبها لأنها رضعتْ من دجلة والفرات أيام طفولتها وصباها.. لأنها عراقية شامخة كالنخيل، لأنني وجدتُ بها بابل وسومر، رأيتها كسميراميس، أو الملكة شبعاد وهي تعزفُ على أوتار قيثارتها لحن حبها الأزلي... لا يهمّ لأي الديانات أو الطوائف تنتمي، المهم أنها عراقية وكفى..

- **أحياناً يغزوني الحبّ بين الحين والآخر فأستسلم لموت صامت..**

أجابتني وهي تنظر لي بنصف وجه، وعينٍ واحدة وشعر أخاذ يسلب لب القلب وهو يتحرك بخفةٍ على وجهها

- **سلامتكِ من الموت أيتها الأميرة الجميلة.. دعينا نبعثر حروفنا ونلملم بعثرتها سوية.**
- **من حرفكَ تمطر الأحاسيس أعذب المعاني.**
- **أخشى أن نلملمَ هذه الحروف ونغرقَ بصمت العيون.. لا تنظري بعيني ولن أنظر بعينكِ، أخشى أن نتعانق روحياً من غير أن نشعر.**
- **أخشى عليكَ يا ملاكي مني، عليكَ بالخوف على نفسكَ فقد تحترق لو جربت رفع بصرك والنظر للشمس يا صاحب القلب الرقيق.**
- **وها أنا الآن بتُّ أخشى أكثر من ذي قبل أن أقترب من الشمس، لكن لا يهم سأذوب احتراقاً بلهيب حرارتها.**

يا لها من أنثى ساحرة تنثر على ضفاف المساء عطر همسها، تسكرني بلهيب كلماتها، أستنشقها كرشفةٍ من فنجان صباحي، أتلذّذ بحرق لسان بوحها كعودٍ كلّما احترق ألهب المكان رائحة عبقة، تتساقط المشاعر منها كرذاذ المطر، لن يكفيني قرطاسي والورق لتدوين هذه اللحظات القدسية المفعمة بالجمال، فهي دوماً ما تخطط لاحتلال مساءاتي، وتعزف على ملامحي بلمسة من سراب، هي نجمة تسكن في الركن البعيد.. نعم تسكن الركن البعيد من هذا العالم؟..

ثم أردف قائلاً:

- **أنا أقربُ من حبل وريدكِ إليكِ، أعانقكِ فينفجرُ الكونُ بالضياء، أنتِ نجمتي التي لا تغيبُ أبداً، سآوي إلى سماءٍ تعصمني من كل النجوم.. سواكِ.**
- **أنا الأميرة الهاربة من مشاعرها ألم تقرأ وجوهي الألف بين فصول السنة الثمانية، أزهر وأمطر، مني تستمدُ الحياة عذب مائها بعد جفاف دام ألف خاطرة وقصيدة..**

كم أحتاج من السجود والركوع لله شاكراً له وهو يمنحني الأميرةَ التي كنتُ أبحثُ عنها منذ ألف ألف عام، قلبتُ كُتب الأولين، بحثتُ في سنن العاشقين، ونثرتُ ألف قصيدة وقصيدة على عينيها اللتين يقطرُ منهما الحنين، كم أحنُّ لرشفةٍ من رضابٍ يخرج كما الشهد من جوفٍ يضجُ برائحة معتقةٍ من زهرك المنثور كما الياسمين، إني أحبك وكفى، هذا ما جاء في نشرة أخبار العاشقين، فحين تمنحني الأنثى كلماتها أنفجر بوجهها عشقاً وأنثرُ كلَّ حروفي على عفويتها وسجيتها وفطرتها، سأستفزُ كل مشاعرها وأجعلها تخرج الشهد الذي يتغلغل في جوفها، فأنا النحلةُ التي تتنقّل بين الأزهارِ لتبحثَ عن الشهدِ المخبوءِ بين طياتها..

ثم قالت..

- **واثقٌ من حرفكَ، وأنا القادرةَ على جعلكَ تنثرُ على ضفاف السطور أروع ما سطرت أحاسيسك، سأبقى بين قلمك والنبض، كلّما اختلست من الوقت لحظات تكتبني بها عطرا تتنشق إبداعه.**
- **وها أنا أستنشقُ بقايا عطرك المتراكم على أرصفة الذكريات، فعطرك لم يفارقني قط، عطرك يملأ أنفاسي وروحي، يملأ كياني وعقلي، إني متيمٌ يا سيدتي فارحمي رجلاً بالعطر بات مقتولا.**
- **جميلٌ حرفك بل أكثر.**
- **من أنتَ؟**
- **رجلٌ عاشق، دوماً ما يقترب قلبي من سريرك يسمع همسكِ وحسيسكِ، لكنه يعود أطراف الليل حاملاً بوحك لي.**
- **وأيّ رجل أنت.. تختال بهامتك أمامي، تنثرُ رذاذ حرفك كالغيم، تلفني هالة من هذيان ترفعني نحو الأعلى، هنا تبدأ قصة الهمس، لغة العيون.. أعشقها، خجلي يمنعني من النظر لأبعد من أنفك الشاخص، أعود نحو الورق أكتبكَ قصيدة طويلة المواجع، أعزفك على كل المقامات، أرقص كمخبولةٍ مجنونةٍ على أطراف أصابعي، أقتبس خطواتي من بحيرة البجع، تتهادى معي على وجه الماء، فتختفي الأماكن وتتلاشى، كلٌّ منا يتنفس الآخر، ربما هكذا سنولد من جديد.**
- **أعدكِ الليلة بأنني سأراقصكِ على أنغام الحرف فاستعدي يا أميرتي، فتزيني وتعطري فأنفي لن يفارقك، سأستنشق عطر القرنفل، من رأسك حتى أخمص قدميك، فأنا المهووس لغةً وعذوبةً وحبا، فافتحي ذراعيكِ واستعدي الليلة..**

الله هل سأبدل أيامي الرتيبة، ببعض لحظات من جنونها، وهي تقايض قلبي الخاوي، لتقرضني ورقة بيضاء، أعبثُ بها، أكتب فيها أبجديتي التي لا تنتهي، أبجدية لا يفهمها سوانا، ترسمني وردة حمراء، وأرسمها وردة بيضاء، أكتبها قصيدةً عبثيةً، وتكتبني سمفونية عشق، حروفي تدّعي الرزانة، وهي المشاكسة التي تخطّط للقاء سرمدي، أسرق فيه من الشمس خيطاً، ومن القمر إبرة، أغزل لي فستاناً مشرقاً يليق بالملكة، وتهديني ربطة عنق تحيلني بها إلى الهاوية..

تردّد وهي باسمة بوجهي..

- **لا مجال ليراك أحد سواي فالغيرة قاتلة لا تبصر أبداً، وأنت ملك لي، بل أنت الملك، تدارك الأمر، وانفذ بجلدك إن أردت، لستَ بقادر.. أعرف ذلك، ساحرةٌ أنا، كذبتُ عليك، قلت لن أسلبك ما تمتلك.. اششششش.. الكذب حرام سأبدل المفردة، أعتقد أنني أوقعتك في الغرام، وأصبحت كل ما أملك.**

كنتُ أنتفض من رأسي حتى قدمي غراماً..

كان الوقت يتقدم بنا بسرعة الضوء، وحملت الريحُ بين طياتها تراتيل المؤذنِ وهي تعلو تارة وتبتعدُ تارة أخرى، تختلط البسملة أحياناً بصرير الريح فيذهب صوت المؤذن بعيداً وأخرى تهدأ محركات الهواء الغاضبة بهذا الكون فأسمع تماماً ما يقوله وبوضوح، ونسيتُ وأنا أتحدث لها أنني على موعد مع صديقي علاء للذهاب إلى مقبرة النجف.

لم أتفوه لها بأي شيء لئلا تصفني بالمعتوه أو المخبول وأنا أمارس الطقوس السحرية لمخطوطات الشيخ عبد الرحمن، لا بدّ من الرحيل، فبعد ساعات عليّ الذهاب إلى گراج العلاوي، عند الثامنة

صباحاً لا بدّ من تواجدي هناك لنصل إلى المقبرة بوقت قريب، وقبل أن أستأذن منها، سبقتني بالقول..

- **أريد أن أفصح لك عن شيء كنتُ أحتفظ به حتى نهاية حديثنا لئلا أنغص عليك ليلتكَ الجميلة هذه ولئلا ننشغل بغير مناجاة بعضنا البعض.. أعلم أن الوقت يتقدمُ بنا، لكني أردتُ أن أقول لك إنني سأسافرُ غداً مساءً للسويد حيث خالتي تقيم هناك فابنتها بيسان ستتزوج من صديقها جوزيف، فهما يحضران للزواج منذ مدة، سنذهب لأيام معدودات، حتماً سأتواصل معك من هناك، حين أعود أريدك كما أنت لا تتغير أو تحاول استّبدالي بأخرى..**

كنتُ أشعرُ بالخيبة والانكسار وهي تخبرني بنبأ سفرها للسويد، لكني لا أستطيع منعها، لذا عليّ أن أتحمل كل هذا، لكني بالمقابل قلتُ في نفسي هي فرصة لإكمال طقوس المخطوطات وحدي.. ليكون كل شيء جاهزاً بعد عودتها، سيكون اشتياقي أكثر من ذي قبل.. ودعتها، ثم ودعتني وافترق كلانا، كنتُ أشعر بالضيق وأنا أتمددُ على فراشي، كيف سأقضي وقتي؟ لأسبوع أو أكثر..

استسلمتُ لنوم عميق تلك الليلة وما صحوت إلا بعد أن وردني اتصال من علاء، فصوت الهاتف لم يسكت عن الضجيج طوال الوقت وحين صحوتُ وجدتُ الموعد قد فاتني، كان علاء يتصل مستفسراً عن سبب تأخري عن الموعد، لكني كذبتُ عليه قائلاً له أنني قادم في الطريق، لبست ملابسي على الفور، ودعكتُ وجهي ببقايا صابونة صغيرة، خرجتُ من البيت راكضاً متجها صوب الگراج في العلاوي، لم أتصور أنني سأؤخره لساعة ونصف أخرى، كان ينتظرني بها بعد أن أشار عليّ بأكثر من اتصال عن عدم المجيء ومرافقته لئلا يتعبني لكنه لم يكن يدرك أنني بالأصل كنتُ ذاهبا لإتمام طقوس المخطوطة الخامسة التي لا بدّ من دفنها بين قبرين أحدهما جديد والآخر قديم.

(35)

عند العاشرة صباحاً انطلقتْ بنا السيارة متجهة صوب النجف، كانت تسيرُ ببطء في زحام السيطرات التي تصطف بها المركبات لأكثر من ساعة بغية التفتيش وعدم اختراقها من قبل السيارات المفخخة، كان الضجر يتملكنا ونحن نقف بلا حراك في طوابير طويلة من السيارات، بعض السائقين كانوا يجلسون على الأرصفة، يتذمرون، يلعنون حظهم العاثر، سيارات تحمل توابيت وجنائز تقف بطابور لا نهاية له، أي نهاية تلك التي تحمل الناس إلى حتفهم رغماً عنهم، ثمة جنائز لُفت بعلم عراقي وأخرى بقطعة قماش سوداء وأخرى بقطع مختلفة وشراشف ملونة زاهية، وحين وصلنا للمدينة كان الوقت يقترب من الثانية ظهراً، كانتْ الشمس تبثُ دفئها فينا عبر خيوطها الصفراء.

الدخول للمقبرة يحتاجُ لوقت كثير، كنتُ أنا منشغلاً بالمخطوطة الخامسة والبحث عن قبرين إحداهما حديث العهد والآخر تهاوى وتساقطت أركانه وأصبح مجرد علامة رثّة بين القبور، وما إن وصلنا إلى قبر أمه التي غادرتْ هذه الدنيا قبل أشهر، كنتُ أرفع يدي بالدعاء وقراءة سورة الفاتحة لها بينما تنشغل عيني بالنظر إلى تواريخ القبور القريبة منها، لم أكن أدرك أن الحظ هذه المرة يحالفني وأنا أرى قبر جدّ علاء بالقرب من قبر أمه وقد خُط عليه (كل نفسٍ ذائقة الموت، هذا قبر المرحوم خلف شندل جياد، المتوفى عام 1972)، كنتُ أرفع يدي بالقراءة والدعاء وأبتسم لهذا الحظ الذي جنبني المتاعب، لكني لم أتصور أن المتاعب يسوقها القدر هو الآخر من دون أن نعلم، انشغل علاء بالبكاء

وهو يحتضن قبر أمه الأخضر بعد أن أغرقه بماء الورد وأشعل حوله شموعاً بيضاء، وبات يبكي بألم وحسرة على جنتهِ التي فقدها، انشغلتُ أنا بمخطوطتي التي حفرتُ لها بيدي بين قبر أمه وجدّه، كنتُ أتكئ على قبر جده وأحفر ما بين قدميّ من حيث لا يدري بكل هذا، وما أن عملتُ شقاً صغيراً لا بأس به، لا عميقاً، لا كبيراً، لكنه يستطيع أن يبتلع المخطوطة، قمتُ بدفن مخطوطتي وأهلتُ التراب عليها، وغاصت بصمت المقابر تلوذ بين ترابها...

لم أكن أعلم أنَّ المقبرة بشعة ومخيفة إلى الحدّ الذي يكاد يحكمُ ذراعيه حول رقبتي، بالكادِ أنا الآن أستنشق عبير الأموات ورائحة العالم السفلي، المقبرةُ تبتلع الشمس رويداً رويداً والوقتُ يقترب من الليل، وعمّا قريب ينشر الظلام أجنحته بهذه المقبرة الكبيرة التي لا حدود لها، كانتْ أمي تقول لي لا تدخلْ مساءً للمقبرة فإنّها مليئة بالأشباح والوحوش، قالتْ هذا حين كنتُ صغيراً، فتكاد قدميّ اليسرى واليمنى لا تحملاني وأعود مرعوباً صارخاً من شكل هذا الشبح الذي كانت تصفه جدتي برأسه الطويل وأذنيه الكبيرتين وأسنانه المرعبة التي يفتك بها وعينيه الحمراوين، وقرنين طويلين فوق رأسه، كنت أتصوره كلما مررتُ بالعتمةِ والظلام، أشعر برجفةٍ تجتاح جسدي وخوفٍ يتملكني، أصواتٌ تبدأ بالبزوغ كلّما اعتلى الظلام، ألتفتُ يميناً يساراً، يكاد قلبي يهرب منّي تتزايد دقاته وأشعر أنّي بحاجة للهروب من مكانٍ يغتال خيالي بغتة لكن من دون جدوى، يعلو الصفير والضحكات العالية وكأن شيئاً ما يقترب مني، أركض، أهرب، أصرخ، لكن لا أحد يسمعني، قهقهتُ وأنا أتذكر صباي وفترة طفولتي وقلبي الذي ما كان يحتمل كل هذا الخوف...

الليل بات يحطُّ بجناحيه على المقبرة، ومن بعيد لاح لي ضوءٌ خافت، أمسكتُ بعلاء من قميصه وهو منكبٌ على القبر يمرغُ دموعه به..

- **انظر لهناك..**

وأشرتُ بيدي نحو الضوء الذي بات يبرق بين القبور.

- **ربما أحدهم يزور ميتاً له..**

رد وهو يمسحُ جفونه المبللة بدموعه:

- **لا أعتقد ذلك فالفضول يشدني للذهاب هناك..**

قلتها له وأنا أتطلع نحو معرفة السرّ الذي يكمن ببزوغ الضياء، وأسرعنا كلانا تجاهه علّنا نجدُ ما يخففُ عنا آيات الرعب التي باتت تجتاحنا، شيءٌ غريب استوقفنا، فالضياء يخرج من بوابة مفتوحة لقبور عتيقة، توقفنا وتنهدنا، وازداد فضولي بالتعرف على الشيء المتوهج المنبعث من داخل هذه القبور، فكلما اقتربتُ ازداد الضياء أكثر وأكثر، كان القبر ينزوي بين بقية القبور المهدمة والخاوية على عروشها في سرداب يضمُّ أسفله قبوراً عدة وبعض سلالم للنزول إلى الأسفل، ألصقت أذني على الباب لعلي أهتدي لسرّ هذا الضياء، صكَّ أذني صوتٌ مرعبٌ..

- **آهيا، شراهيا، أدوناي، أصباؤت، آيل شداي .. أيها الجن أجمعون أيتها الأرواح الموكلة بهذه الروح أخرجيها طائعة، خانعة، ذليلة...**

كان الصوت أجشَّ لم يكن لرجلٍ أو امرأة لكني لم أرَ خلف هذا الصوت ثمة إنساناً يعي ما يفعل أو يقول، ارتجفتُ كثيراً وأنا أحاول النزول عبر سلالم السرداب كاشفاً عن رغبتي في معرفة السر، كلّما اقتربتُ من قعر القبر ازداد خوفي وازدادت ضربات قلبي، تلعثمت قدماي وما شعرت إلا اني بالقرب من جثة.. وامرأة صرخت فزعاً لكنها تشبثت بقميصي خائفةً قائلةً:

- **من أين أتيت أيها اللعين أفسدتَ عليّ سحري كلَّه، تباً لك وللقدرِ الذي ألقى بك على قارعة طريقي..**

ازداد انفعالها وعلامات الغضب تعتليها، كان منظرها مخيفاً جداً تعتلي وجهها غبرة وسمرة، تضع الجثة المتخشبة على فخذيها وتَقْلبُ رأس الجثة ليسيل الصديد منها في آنية كانت تضعها أسفل فخذها، ارتجفتُ وخفتُ وأنا أشاهد الجرأة التي تحملها هذه المرأة، خفتُ من هول المنظر، لكني حقدتُ عليها، وهي تعبثُ بأرواح هذه الجثث التي تسكن بأمان في عالم منسي وهادئ، لم أكن أتصور ذات يومٍ أنني سأقع بشراكِ الأيام وهذه المحنة المقلقة جداً، اشتد غضبي وأنا أمسك بشعرِ رأسها ...

- **تباً لكِ..**

قلتها والشررُ يتطاير من عيني، وكررتُ قولي وأنا أتشبثُ برأسها

- **سأدفنكِ هنا لأنكِ تبعثرين الأمان والهدوء والصمت.**

- **يا لكَ من وغد، لقد أفسدت عليّ ما كنتُ أهيئ له منذ شهور..**

قالتها وهي تحاول أن تفلتَ شعراتها من بين يديّ.

حاولتْ الفرار بكل ما أوتيتْ من قوةٍ لكنها لم تستطع وأصررتُ وقتها على دفنها مع الجثة الملفوفة بالكفن، لم أكن أتصور أني سأصل لهذه الحالة من الهستيريا، بكتْ.. صرختْ.. حاولتْ الإفلات مني إلا أن أصابعي كانتْ تنغرسُ برقبتها وشعرتْ بأصابعي كالسكين تحزُّ وريدها..

- **سأقتلكِ وأخرجُ الصديدَ من رأسكِ أيتها اللعينة..**

أفلتُ زمام رقبتها وتسلقتُ السلالم خلفها بقوة كبيرة وركضتُ سريعاً صوب بوابة القبر وهي أمامي.

كان علاء يشعرُ بالخطر يتقدم نحوه وهو يسمع طقطقة الأقدام على السلالم، يحاول اقتناص الحدث وما يجري أسفل السرداب الذي يحوي أرواحاً آمنة نائمةً بهدوء وسلام، وما أن بزغتْ بكتلتها اللحمية الكثة وعباءتها السوداء حتى صرخ مذعوراً هو الآخر، كان يتصور أن روحاً عادت للحياة مرة أخرى، كان علاء والمرأة يهربان باتجاهين متعاكسين.

- **توقف.. توقف..**

صرختُ خلفه وهو يركض فزعاً، بينما تاهت هي بزحمة القبور المتراصة المزدحمة فيما بينها لتتوارى وتتلاشى عن الأنظار.

كنتُ أركض خلف علاء محاولاً اللحاق به، حاولتُ التقاط أنفاسي المتصاعدة بشدة من صدري لكنه لم يلتفت لي، وركضتُ وركض أمامي وما توقف إلا حين خرج من المقبرة متمدّداً على الأرض، يجرُّ نفساً عميقاً تلو آخر.

- **ما بك؟ أركض خلفك وأناديك فلا تستجيب لي..**

أخرجتُ الكلمات بصعوبة وأنا ألهث:

- **شعرتُ بالخوف حينما رأيتُ كتلةً سوداء تخرج من السرداب، تصورتُ أن روحاً تخرج لي من هذا المكان المتهالك..**

قالها وهو ينفث الزفير بقوة، وأردف:

- **هل رأيتَ ما رأيتُ أنا؟**

قهقهتُ عالياً وأنا أرى علاء يتشبثُ بأنفاسه المتصارعة ووجههِ الشاحب الأصفر وهو يتصببُ عرقاً، كانتْ عيناه تتقدمان إلى الأمام مع كل شهيق ساحباً بمنخريه هواء الكون كلّه..

- **أنا الذي رأى كل شيء ولست أنت!!**

بعصبية قلتها له وهو يتكئ على يديه ملقًى على الأرض.

وهدأ قليلاً وتوقف منخراه اللذان كانا ينتفخان وينغلقان بطريقة غريبة، ثم قال:

- **نعم ماذا رأيت داخل السرداب؟ فحين كنتُ واقفاً ببابه وأنت بداخله شاهدتُ كتلة سوداء تخرجُ منه، وقلتُ في نفسي أنَّ روحاً من الأرواح التي تسكن هذا السرداب خرجتْ لتقتص منّا، وأدركتُ أنّها بعد أن نالت منك، جاءت لأصبح بين يديها لقمة سائغة، فحين انساب إلى مسمعي وقعُ أقدام تتراكض على السلالم مددتُ رأسي ففوجئتُ بمخلوقٍ غريب أشعث الرأس بملابسهِ السوداء وهو يتقدم نحوي، لم أستطع وقتها أن أمسك دقّات قلبي المتسارعة فهربتُ لاشعورياً من غير أن أعلم الحقيقة.**

صمت علاء وهو يستعيدُ وعيه مبدداً الخوف عنه.

- **خلينا نروح..**

قلتها له بعد أن استعاد نشاطه.

(36)

كان الليلُ ينشرُ عباءته السوداء فوق هذا الكون ونحن نمتطي صهوة الطريق عائدين صوب بغداد، الوقتُ يقتربُ من العاشرةِ مساءً، وما أن دقتْ الحادية عشرة والنصف حتى وصلتُ الكاظمية، كانت أمي مستغرقةً بنومها وهي تودع الحلم الأول لتغرقَ بحلمها الثاني وتمرَ بذلك إلى الثالث، لم أستطع تلك الليلة أن أُشْعِل حاسوبي فقد أفرغتُ طاقتي بيومٍ مضنٍ متعب في مقبرة وادي السلام.

لم أكن أدرك أن الليالي مظلمة بلا ماريا هي الليلة الأولى التي تغيب فيها عني، يا لحظي العاثر هل كان لزاماً على بنت خالتها أن تتزوج في هذا الوقت، حاولت أن افرغ شيئا مما يجود به قلبي، بحثت طويلاً عن صديق يشغل مكانها لكن من دون جدوى، واستسلمتُ تماماً لقدري وانشغلتُ بالمخطوطة السادسة بعد أن أغلقت حاسوبي مودعاً إياه بحزن شديد، طويت المخطوطة مرات عدة ثم لففتها بخيط أخضرَ وربطتها بزندي لأكون بذلك قد أنجزت المخطوطات الستّ الأولى ولم يتبقَّ لي سوي المخطوطتين السابعة والثامنة لأحصل على غايتي ومرامي في التمكن من الوصول إلى إيسكولاس.

نمت تلك الليلة نوم طفل صغير بلا أحلام ولا هلوسات ولا تعب، وما نهضتُ إلا فجراً وأنا أشعر براحة كبرى.

عند السابعة صباحاً توجهتُ لسوق الشورجة الكبير ماراً بطريقي على العم عباس شاه بعد أن أبلغته باجتياحي البوابة السادسة من المخطوطة، ولم يكن عائقاً في طريقي سوى البوابتين السابعة والثامنة وبالخصوص أن السابعة لا بدّ من إلقائها في البئر التي ينتظر بها هاروت وماروت في معبد ننماخ، الصعوبة تكمن في أن هذا المعبد مغلق لئلا تقام به طقوس السحر من قبل الوافدين، لذا قام المسؤولون بإغلاقه إغلاقا تاماً ولا يفتح إلا للمعروفين من قبل حارس المعبد.

كان هواء شباط يلفح وجهي ويلصق على وجنتي رذاذ الندى المثلج البارد وأنا استخدم معطفي الأسود

غطاءً لي، وأعتمر قطعة قطنية فوق رأسي، كان أنفي أشدَّ احمراراً ووجنتاي أشبه بقطعة جليد وردية اللون، فكرتُ كثيراً بالمخطوطة السابعة وبكيفية الوصول لمعبد ننماخ.

في الصباح يكاد يكون السوق هادئاً إلا من حركة أصحاب المحال التجارية، بينما أنشغل أنا برزقي الذي يبدأ مع بداية الفجر وبعده بساعات، وحين تصارعُ الشمس الغيوم الملبدة المتجمعة وتزيحها بضوئها الوهاج لتحتضن السوق ويعمّ الدفء، يكون لي متسعٌ من الوقتِ للقاء العمّ عباس شاه، ثمة زبائن بملابس بسيطة وشاب بدشداشة بيضاء ولحية خفيفة مقطعة وشارب صغير رفيعٌ كالخيط، يقف بالركن الداخلي للدكان الصغير، من مسافة ليست بالبعيدة ولا القريبة من الدكان رمقني العم عباس مشيراً لي بإصبعه قائلاً:

- **انتظرني، لا تذهب..**

وهو يحاسب بعض الواقفين الوافدين من وزارة السياحة والآثار ليقتنوا كلّ بضاعته القديمة البالية لتوزعها الوزارة على السياح الأجانب، أفرغوا المحل كلّه.

- **هيا اذهب وساعدهم بتحميل البضاعة واقبض على ذلك أجرا..**

أشار لي وهو يدسُّ ثمن بيعته في جيبه وينفض غبار البضاعة عن يديه، ثم أردف:

- **بعد أن تنجز عملك عدْ على الفور فثمة شخص ينتظركُ وأنت تنتظره بفارغ الصبر..**

قالها وهو يبدّد التراب المتجمع فوق بنطاله بيديه كان وجههُ خالياً من أي تعابير، لا ابتسامة لا أيّ شيء من هذا مطلقاً، كان منظر الشاب ذي اللحية المتقطعة شبه مريب وهو يقف بالدكان الفارغ من البضاعة، وما أن أنهيتُ نقل البضاعة بسيارتهم التويوتا البيضاء حتى أومأ لي الشخص الصاعد بالمقعد الأمامي من السيارة مادًّا يده في جيبه ليخرج لي قطعتين حمراوين من فئة الخمسة والعشرين ألف دينار..

- **لكن هذا كثير...**

قلتها له وهو يعيد ترتيب سترته الرمادية اللون.

- **أخذ هذي من بركات الحجي، لا تخجله أخذ واسكت..**

أجاب السائق وهو يمسك بمقود السيارة المغلف بقطعة جلدية حمراء تبرق وتشع نضارة، وعلى الفور عدت للعم عباس أضرب أخماساً بأسداس مفكراً بالشاب الذي يتخذ من ركن الدكان الفارغ مقراً له.

- **السلام عليكم..**

ألقيتُ التحية عليهما وهما يجتمعان ويتحدثان فيما بينهما.

- **اقترب.. أعرفك بصديقك سجاد من مدينة الحلة وهو يسكن بالقرب من آثار بابل في منطقة برنون وله معارف هناك وعلاقات جيدة سيساعدك حتماً في الوصول للبئر التي يُسجَن بها كلّ من هاروت وماروت في معبد ننماخ..**

أوضح لي العم عباس ذلك وهو يجلس على كرسي مصنوع من جريد النخيل اليابس مبدِّداً استغرابي..

مددتُ يدي مصافحاً سجادًا معبراً له عن شكري وامتناني لكرمه ومساعدته إياي في التعرف على البئر التي تحوي الملكين ببابل.

- **هو فقط يريد أن يرى البئر وأن يتعرف على هذا المعبد..**

بيّن العم عباس لسجاد غامزاً لي بطرف عينه أن لا أتحدث من بعده قط، وأدركتُ أنّه لا يريدني أن أتحدث ما دام سجاد موجوداً هنا، وأردف: وهو يكشرُ عن أسنانه الناعمة بوجه سجاد.

- **سيتصل بك يوم الخميس لتلتقيا الجمعة القادمة أتمنى أن تساعد أسعد في الوصول لما يريد فلديه فضولٌ كبير فقط في الوصول لهناك..**

تبادلنا أنا وسجاد أرقامِ الهواتف ثم استأذن راحلاً لمدينة الحلة، كنتُ أنتظر الجمعة بفارغ الصبر، وما أن حلَّ الخميس خاتماً نهاية أسبوع شاقٍ من العملِ والتعب، حتى ذكرني العمّ عباس بالاتصال بيني وبين سجاد للذهاب يوم الجمعة لآثار بابل وصولاً للبئر، وحين اتصلتُ به اتفقتُ معه على الذهاب كلانا للمعبد.

كانت المساءات مظلمةٌ جداً بلا ماريا، لم أكن أتصور أني أحبها لهذه الدرجة، فكلّما تذكرتها شعرت بعودة روحي إلى جسدي، كنتُ أحتاجها كشخصٍ يحتاج إلى صدمة كهربائية لينعش قلبه الخاوي، أين أنت الآن أيتها الحبيبة الغائبة؟ سؤال يراودنيَ كلما هاج الشوق إليها، يتصاعد الشوق في رأسي وأشعر بالثمالة بفكري كمن يحتسي كأساً من الخمر حتى القعر الأخير منها، وتحلّق روحي هناك بعيداً عن ليون راحلةً صوب السويد، أين أنت يا أميرتي؟ ماذا تفعلين؟ ليتني أستنشق عبيركِ الآن، كم أتمنى أن أتحدث معكِ لدقائق فَقَط أو أراك لبضع لحظات، آه يا لهذا الفكر المشوش، واستسلم للنوم من غير أن أعلم عند أيّ لحظة مشوشة كنت وقتها قبل ذلك.

(37)

في الصباح الباكر استأجرت صديقاً لي كان يتخذ من السوق مقراً لرزقه، يقف بالجهة الأخرى من الشارع المقابل لدكان العم عباس شاه المكتظ بالمارة ليذهب معي لآثار بابل بنزهة سياحية، لم أفصح لأحمد سائق التاكسي عن سرّ المخطوطة السابعة بل تحججتُ بالنزهة والسفرة للاطلاع على آثار بابل والاستمتاع بموطن بداية الخليقة على هذه الأرض، ولرؤية معابد الآلهة وآثارٍ بقيتْ حتى الآن منذ آلاف السنين، وانطلقنا كلانا في يوم مشرق وجميل من صباحات الجمعة الهادئة، كان مذيع النشرة الإخبارية الصباحية يوزع الأخبار السيئة عبر أثير الهواء ونحن نستقبل مدينة المحاويل التي تقع على مقربة من محافظة بابل، قتلٌ، دمارٌ، عبوة ناسفة تحصدُ أرواح العديد من الشهداء، وثمة سيارة تنفجرُ على رتل عسكري بالقرب من مدينة الضلوعية، وانتحاري بحزام ناسف يتشظى في الهواء الطلق بعد أن تمكن من اصطياده رجل في الشرطة الاتحادية في مدينة الرمادي، موسيقى مزعجة أشبه بضجيج وصخب تظهر دوماً في فواصل الأخبار ونهايتها.

- **أدر جهاز مذياعك على قنوات أخرى، لقد سئمنا الأخبار النشاز والأصوات الصاخبة، دعنا نستمتع بالحياة..**

بنظرة حادة قلتها لأحمد وهو يجلس خلف مقوده بلا حركة ولا حديث كتمثال صامت..

- **أدرهُ أنت كما تحبُ وتشتهي فلا أحب المذياع ولا الأخبار..**

أجابني ممتعضاً..

وبتُ أقلبُ بالمذياع يميناً ويساراً، لا أشعرُ بالتفاؤل سوى بصوت فيروز، فهو يبعث في نفسي الأمان والاطمئنان، وأنا أنتظر صوتها الصباحي الناطق بلغة الحب والشهد، واستوقفتني وهي تغني (يا طير.. يا طاير على أطراف الدني.. لو فيك تحكي للحبايب شو بني يا طاير..) وتنفستُ نفساً عميقاً وأنا أتلذذ بصوتها الذي يسحرني كلما ملأ أذني، وتذكرتُ الحبيب الغائب في السويد، وما صحوتُ من سكرتي وماريا تراودني إلا حين توقف المذياع عن صوتها العذب، من بعيد لاحت لي تلة أثرية ونحن نقترب من بابل، وشاهدتُ لائحة حديدية على جانب الطريق تشير إلى المدينة الأثرية التاريخية، وما أن دخلنا الطريق الوحيد المؤدي للآثار اتصلت بسجاد الذي كان ينتظرني عند البوابة الداخلية للمدينة، كانت الشمسُ تبثُّ دفئها رغم تيارات الهواء المتذبذبة التي تتصاعد بين الفينة والفينة.

- **أوقف سيارتك هناك، وتجول على راحتكَ في هذه الآثار التاريخية..**

قلتها لسائق التاكسي وهو ما زال ممسكاً بمقود سيارته ناظراً بزجاجها الأمامي غير مكترثٍ لأمري.

- **لا بل سأجلس في سيارتي، لا أحب هذه الأماكن، فهي أرضٌ نجسة لأقوام لا يعرفون الله أبداً ولا يعبدونه، فمعابدهم لا تمتُّ للدين بصلة وهي تنافي تعاليمه في الهدَاية، أذهب أنت واستمتع برحلتك وأنا سأنتظرك في سيارتي فلا أطهر منها في هذا المكان، هيا اذهبْ..**

قالها وهو يكشر عن أسنانه ممتعضاً للمجيء إلى هذا المكان غير راضٍ عن قدومه..

كان سجاد ينتظر مع شخص آخر يقفُ إلى جواره يرتدي بنطالاً عادياً وقميصاً بسيطاً وسترةً لا قديمة ولا جديدة تحمل بين طياتها شيئاً من التواضع.

- **صباح الخير..**

حييتهما وهما يستقبلانني ببساطتهم الصادقة النابعة من طيبة قلوبهم النظيفة الخالية من أي شيء.

- **أُعرفكَ بصديقي صادق هو من دور الآثار، المنطقةُ التي مررتَ عليها بطريقكَ قبل قليل، فلديه معارف كُثر وهو يعمل منذ زمن في هذا المكان، ويعرف أشياءَ غريبة ومعلومات سرية، وأصدقاء يعرفون أغلب الدهاليز التي لم تكتشف حتى الآن، ولا يفصحون عنها لأي شخص كان بل يحتفظون بسرها..**

قالها سجاد وهو يشير إلى زميله الواقف إلى جواره.

وانطلقنا ثلاثتنا داخل المدينة التاريخية نتفحص الأماكن الأثرية القديمة شبراً شبراً، وبالقرب من شقوق عميقة بالأرض ودهاليز تفصل جدران هرمة متآكلة، أشار صادق بيده نحو الدهليز قائلاً:

- **في مثل هذه الشقوق توجد ممرات سرية تحت الأرض لا يراها أو يعرفها إلا عائلة الحاج محسن العلي الذين توارثوا المعلومات عن طريق أجدادهم القدامى الذين كانوا يقطنون هذه الأرض منذ زمنٍ بعيدٍ جداً، فهم لا يفصحون عنها إلا لأولادهم ويوصونهم بعدم إفشاء سرّها.**

قالها صادق وهو يشير بأصبعه نحو شقّ كان بمثابة نفق أسفل الأرض..

ثم توقَّف لبرهة عن الحديث وهو يجرّ أنفاسه المتلاحقة، وكأنه يسحبُ ثقلاً كبيراً طالما أرهقه، فأراد التخلص من أسراره التي أحتفظ بها طويلاً بالاعتراف بها دفعة واحدة وأردف متسارعاً:

- **كان صديقي حيدر يحدثني عن أشياء غريبة ما كنتُ أصدقها في البدء، إلا حين أخذه الأمريكان الذين كانوا يستخدمون المدينة الأثرية مقراً لهم أيام الاحتلال، فحين تمركزوا هنا لم يعد بمقدورنا الدخول طيلة فترة تواجدهم داخلها، كنا نتأوه ونحن ننظر لها من بعيد، فهي مدينتنا التي لا نفارقها قط.**

قاطعته قائلاً:

- **كيف أخذ الأمريكان حيدر؟ ولِمَ؟..**

واسترسل بحديثه وهو يلوح بيده لي، وكأنه يريد أن يقول لي تمهل فأنا في الطريق إليك لمواصلة الحديث..

- **لقد كان حيدر يعرف دهاليز سرية وممرات أرضية داخل هذه المدينة تعود لأزمان سحيقة، لا يعرف تفاصيلها سوى عائلته، فقد كان يروي لي كل شيء لكنه لم يفصح لي عن هذه الممرات وأماكنها، أنا لم أصدق ما قاله لي إلا حين غاب للأبد واختفى داخل المدينة، ولم يعرف عنه أي شيء بعد ذلك، فقد كان الجميع لا يستطيع الوصول لهذه المدينة طيلة تواجد الأمريكان بها سواه وحده هو من كان يتنقل بحرية تامة من خلال الطرق الغامضة، فقال لي ذات يوم مفصحاً عن شيء عجيب..**

تنفس نفساً عميقاً وهو يكمل قصته الغريبة التي سمعها نقلاً عن صديقه..

- **بينما دخلتُ المدينة من أحد الممرات كان الأمريكان ينتشرون بأماكن خاصة بهمراتهم العسكرية التي لا تستطيع الدخول للأماكن الوعرة سوى بالطرق المعبدة وأماكن معينة من بوابات المعابد القريبة التي تصلها مركباتهم العسكرية، لكن بقية المناطق يقيمون بها كأماكن بشرية، فقد كان يجلبُ بعض الأغراض التي يتركونها وأحياناً كثيرة يسرقُ من مقراتهم الفارغة بعض أجهزة الحواسيب والهواتف الجميلة التي لم تدخل وقتها للعراق إلا بعد حين، وأشياء غريبة، قسمٌ منها ثمين وآخر لا يعرف عنه أيّ شيء..**

كان يصف الاختفاء الغامض لحيدر بنبرات تمثيلية تليق بانفعالات الموقف بوجهٍ يحمل قناعاً إغريقياً يزيد من غموض الحادثة غموضاً شائكاً، زفر زفرة حارة تقطع حديثه مرة بعد مرة محاولاً إكمال قصته المثيرة.. قائلاً:

- **في يوم صيفي حار هادئ شاهد ثمة جنوداً كُثراً على مقربة من معبد ننماخ في إحدى التلال البعيدة، أضواء وأصوات، اقترب أكثر، كان يشاهدهم وهم يحفرون حفراً سرية بالأرض متفرقة بمعاول صغيرة، كان يظنهم بادئ ذي بدء ينقبون عن آثار ليسرقوها، كان يقول لي: كنتُ أفيض غضباً وأنا أشاهدهم يسرقون تراث أجدادي، فحددتُ المكان بالتحديد لأعرف ما يدور هناك، ومن خلال الاختباء خلف بعض الجدران القديمة أدركتُ أن ثمة دهليزاً بالقرب منهم يمكن أن يقربني وأشاهد ما أستطيع مشاهدته، وما أن دخلتُ الدهليز حتى خرجتُ من طرفه المقابل الذي كان يندثرُ بالقرب من جدار قديم، كانوا يضيئون المكان بأضواء صفراء قوية عبر أسلاكٍ بعيدة من مولدات كهربائية، وما أن بدأتْ عيني ترى كل شيء، حتى شاهدتهم يلبسون ملابس موحدة ليست عسكرية أبداً، أشبه ببدلات عمال التنظيف، ويحملون على أكتافهم علامة صغيرة لم يستطع تميزها وبظهر البذلة الزرقاء علامة كبيرة دائرية بوسطها كأسٌ تتراءى من بعيد، وحين يقترب أكثر يشاهدُ الكأس بسبعة رؤوس وقاعدة من ستة أوجه وحول الكأس عبارات لا عربية أو إنكليزية لا كردية لا أيّ شيء من هذا كله، ربما عبارات صينية أو أجنبية..**

قطع حديثه بنفسٍ عميق ثم تبعها بحسرة طويلة ليكمل ما ابتدأ به من حديث وهو يحدق بعيداً نحو آفاق بابل، خلتهُ في تلك اللحظة ملكاً بابلياً قديماً يقص حكاياته علينا، ليواصل حديثه..

- **كان يراقبهم وهم يكشفون عن أكياس شفافة بداخلها أصنام صغيرة وأشياء لا يميزها كانوا يدفنونها بالحفر التي حفروها وما أن انتهوا من الدفن حتى رحلوا وكأن شيئاً لم يكن، كان حيدر يشاهدُ كل شيء، في اللحظة التي اطمأن بها لذهابهم اقترب من تلك الحفر، كانت الأرض رخوة كقطعة اسفنجية واستطاع أن يحفرها بيده بسهولة ليستخرج من بعض الحفر مخطوطات بحروف غريبة نقشت على جلد غزال، وأصنام صغيرة أشبه بالتماثيل، لم يعرف وقتها ما المغزى من دفن هذه الأشياء بحفر ليست بالبعيدة، رفعها كلها وخبأها بأماكن أخرى بعيدة عن هذا المكان لكنه لضيق الوقت لم يستطع أن يهيل التراب مرة أخرى ليدفن الحفر بعد استخراج ما تحويه من مقتنيات خبؤوها هم بداخلها، خبأ قسماً منها وجاء ببعض المخطوطات والتماثيل التي يستطيع حملها لصغر حجمها معه، عائداً من نفس الدهاليز والممرات السرية في باطن المدينة..**

هكذا كان دليلنا صادق يصف الحالة وصفاً دقيقاً ويعطينا صورة تفصيلية لأسرار كنا نجهلها، بينما كان وميضٌ غريبٌ يشعُ من عينيه، السؤال الذي راودني وقتها، هل كان هذا الرجل يتخيل أم يضيف للواقعة من خزينه الأثري كعادة أهلنا في أسطرة الأحداث وتغليفها طابعاً فنتازياً ساحراً؟! هل كان متأثراً بالخرافة والأسطورة وهو يقرأ الكثير عن زمن الآلهة والمعابد، ثم استرسل في حديثه المذهل بانسيابية حكائية مؤكداً..

- **بلا أدنى شك تبين فيما بعد أن الشعار كان للموساد الإسرائيلي وجهاز مخابراته..**

مبيناً ما قاله العجوز المتقاعد أبو أمجد المختص بالدراسات العبرية الذي ما أن شاهد المخطوطات حتى ذهل لرؤيتها، قائلاً:

- **لقد صدقتْ الرؤيا هم الآن يحاولون أن يثبتوا عائدية هذه الأرض لهم على اعتبار أن بني إسرائيل هم أساس هذا الكون..**

ثم أردف:

- **هم يسرقون الأرض من خلال دفنهم هذه الأشياء في بابل ليقولوا بعد سنوات طويلة كأن تكون خمسين سنة أو أكثر من هذا أن هذه الأرض هي لهم..**

ثم قال مكملاً حديثه:

- **هم سرقوا زبور داود الذي كان يخبئه النظام السابق في خزنة من خزائنه المذهبة بعد أن أخرجه من مقام نبي الله ذي الكفل في ناحية الكفل القريبة من آثار بابل، وهم يفتشون عن صحائف سليمان وخاتمه الذي ملك به العالم كله، فهم على شكٍ دائم بأن الخاتم والصحائف تكمن تحت قبة الصخرة عند حائط المبكى في أورشليم، فهم يسعون باستمرار لمحاولات فاشلة لتهديم أو تجريف جزء بسيط من جدار لينقبوا أسفله باحثين عن الخاتم والصحائف لاحتلال العالم بالسحر والجن..**

تأمل قليلاً ليرى أثر تصريحاته النارية علينا، ثم أكد قوله صائباً..

- **ستفكر إسرائيل كثيراً في كيفية تصدير التراث العراقي في قادم الأيام، لا تتعجب إنْ رأيتها تُفرغ العراق من حضارته وشخوصه وتراثه، فقد ذكر في العهد القديم في سفر إشعياء: (لا تخف من آشور يا شعبي الساكن في صهيون لأن بعد قليل جداً يتم السخط وغضبي في إبادتهم)، وقد أكدت كل الأسفار على ذلك فهي السرطان الذي يسعى لاحتلال الشرق كله..**

ثم توجه لحيدر قائلاً:

- **هل هناك أشياء أخرى؟..**

ليؤكد له حيدر أن هناك مخطوطات أخرى وتماثيل أكثر خبأها بمكان آمن من المدينة داخل بابل، ووعدهُ بجلبها مساءً بعد الدخول للمدينة، كان حيدر يدخل المدينة في أي وقت يشاء من غير أن يعلم أي شخص به من الممرات السرية، وحين حاولنا تقصي أثره حال خروجه من باب بيته، علمنا أنّه يخرج من مكان آخر..

ثم نظر إلينا مستغرباً قوله متفرساً بوجوهنا ليرى وقع كلماته وتأثيرات استنتاجاته الغرائبية على وجوهنا الحائرة والمرتبكة من هول الصدمة مكملاً حديثه الشيق..

ربما هم يقيمون منزلاً على مدخلٍ من المداخل لئلا يشاهدَ الناس من أي الطرق يدخلون للمدينة، احتفظ أبو أمجد بالمخطوطات والتماثيل التي جلبها له حيدر لمعرفة ما تحوي بداخلها من كتابات عبرية غريبة، وعند المساء تسلل حيدر عبر ممراته السرية لبابل لكنه ما عاد من وقتها واختفى حتى يومنا هذا، ربما كانت المنطقة التي ذهب إليها مراقبة بعدما اكتشفوا أن الحفر قد حفرت بفعل فاعل، ربما هم لم يتصوروا أن شخصاً من خارج السور البعيد لهذه المدينة يمكن له أن يدخل بحرية من دون افتضاح أمره أو اكتشافه..

ووضع صادق خياراً لا ثاني له من خلال قراءته لكل هذه الأحداث قائلاً:

لم نعرف أين اختفى، لكننا نشكُ بأنه وقع بيدهم من خلال كمين أو شيء من هذا نصبوه له لأنه لم يخفِ ما نبشه بيده أو حاول أن يعيد التراب بعد أن أخرج التماثيل والمخطوطات.

بعد يومين من اختفاء حيدر المريب داهمت القوات الأمريكية المنطقة التي يسكن بها أبو أمجد باحثة عنه، لكنه هو الآخر هرب بالتماثيل والمخطوطات التي لا يعلم بها سوى حيدر إلى جهة مجهولة غير معروفة، وقلبتْ القوات الأمريكية المنطقة رأساً على عقب باحثةً عنه، لكنها لم تعثر عليه واختفى كلٌ منهما حتى اليوم.

كان صادق يسرد لي القصة وأنا أفكر بالذهاب إلى معبد ننماخ للوصول إلى البئر التي يقطن فيها هاروت وماروت لألقي المخطوطة السابعة بداخلها، وأكون بذلك أنجزتها ولم يتبقَ أمامي سوى الثامنة التي لم يفصحْ عنها العم عباس شاه حتى الآن ربما لصعوبتها، لكني كنتُ مشدوداً جداً لإكمال السابعة والتفكير بعد ذلك بالثامنة.

(38)

- مشتاقٌ جداً للدخول لمعبد ننماخ يا صديقي..

قلتها لدليلنا السياحي صادق وهو مازال مواصلاً حديثه عن سر اختفاء حيدر وأبي أمجد.

- **هيا دعنا نذهب..**

كررتُ الحديث عليه للحاق قبل انتصاف النهار وضياع الوقت وعدم الوصول لمرادي، وتوجه بي صادق نحو المعبد الطيني وبابه الحديدي الكبير الأسود.

- **هذا باب تم صنعهُ مؤخراً، بابه الرئيس من الخشب وهي بداخله، كسرها الأمريكان للدخول للمعبد..**

قالها صادق وهو يفتح قفل المعبد بيديه.

وما أن دخلت حتى رأيت معبداً طينياً من الداخل بفنٍ معماري جميل وبئر تستقبل باب الدخول.

- **هذه هي البئر التي سُجن بها هاروت وماروت.. رأساهما أسفل البئر، معلقان من رجليهما.**

شرح لي وهو يشيرُ بإصبعه نحو البئر، ثم قال:

- **من ماء هذه البئر كانتْ النساءُ تغتسل لطهارته لتكون جاهزة للارتباط بزوج قوي من مملكة بابل العظيمة، وفي هذا المعبد يتم الطلاق والزواج، وهو المحكمة الشرعية الخاصة بذلك. وتعدُ الآلهة ننماخ هي آلهة العدل والمساواة، فمياه هذه البئر الغائرة في باطن الأرض كانتْ أنقى وأصفى وأبرد من كل مياه العالم، فلها طعمٌ يختلف حتى عن المياه المعدنية.**

هكذا كان يصف لنا صادق ماء البئر المنطمسة في أعماق الأرض برؤية فنية مدهشة.

- **دعنا نذهب إلى هناك وهناك وهناك..**

كررها صادق بعفوية وهو يشير بإصبعه إلى بواباتٍ عدة داخل المعبد وكأنه لم يصدق أن يكون في يوم ما مرشداً سياحياً يرشد السواح ودليلاً يتقدم الناس.

- **هيا تقدماني..**

أوهمتهما وأنا أحاول سحب نفسي إلى الخلف تدريجياً لأكون على مقربة من البئر، وما أن مددتُ يدي بجيبي مخرجاً المخطوطة السابعة، حتّى انساب صوتٌ لمسمعي، احذر لا تفعلها، لا تقترب، ستحترق بنيران المخطوطة ذاتها، كلما هممتُ بالتقرب من البئر سمعتُ الكلمات نفسها تخترق أذني، كلماتٌ تحذرني من أن أرمي المخطوطة في البئر، وحاولتُ أنا أكون قوياً بالاقتراب منها أكثر فأكثر، لكن ثمة شخصاً ما يمنعني أو أشخاصاً موكلين بهذه البقعة يحرسون البئر نفسها.

- **صادق.. سجاد توقفا..**

وأردفتُ العبارة نفسها مكرراً النداء نفسه.

التفتا إليّ مستغربين من صراخي وندائي خلفهما، كمن يشعرُ بالغرابة أو الاندهاش أو الخوف.

- **إني أسمع أصواتاً تخرج من البئر، ونداءات غريبة تحاول تحذيري من عدم الاقتراب..**

قلتها لهما.

- **إنها مسألة طبيعية يا صديقي، في هذه البئر يسكنُ هاروت وماروت وهما منذ آلاف السنين هنا..**

بيّن لي صادق وهو يبتسم بوجهي، ثم أردف قائلاً:

- **هيا لنذهب، كي أريك البوابات المتعددة في المعبد..**

وما أن انصرفا حتى سحبتُ نفسي مرة أخرى للخلف (لا تقرب هذه البئر فتكون من الظالمين).. كنتُ أسمع هذه العبارة تملأ يافوخ رأسي، بل تملأ المكان برمته، وحين التفتُ إليهم وجدتهم لا يعبأون بالصوت بل لا يسمعون أيّ شيء من هذا، كنتُ أنا وحدي من يسمع كل هذا، وتشجعتُ للاقتراب من البئر، كان الصوتُ يصرخُ، لا تقترب، لا تحترق، ابتعد، كنتُ لا أهتم به، أتقدم، أستجمع قواي لرمي المخطوطةِ في البئر، أخرجتها وصرتُ قوياً، وما أن ألقيتها في البئر حتى سمعتُ صوتاً يشقُ أذني وصراخاً عالياً أشبه برعد في ليلة عاصفة ممطرة، ورأيت ناراً تخرج للأعلى، ناراً كبيرة، كانفجار قوي، سقطتُ على الأرضِ خوفاً من أن تُمْسِكَ بي النار الصاعدة، صرختُ بصوتٍ عال، جاؤوا يتراكضون، أمسكني صادقَ من كتفي اليمنى وسجاد من الشمال وأسنداني وأجلساني، فعلى الرغم من تيارات الهواء الباردة التي تظهر بين الحين والآخر إلا أن وجهي بات يتصببُ عرقاً، وشعرتُ بشيء من هبوطٍ في ضغط دمي، صادق مسح جبيني المتعرق بقطعة قماش كانت في جيبه وأما سجاد فبات يدلكُ يدي، يحاول تنشيط الدورة الدموية من خلال فرك جبيني بأنامله الخشنة التي باتت تأكل رأسي..

- **شبيك؟..**

قالها سجاد وهو يفرك يدي بيده الخشنة وبقوة..

- **ألم تشاهدوا النار التي خرجت من البئر حتى عنان السماء؟..**

قلتها مرعوباً وهما ينصتان لي.

كانا يتبادلان النظر فيما بينهما، تقوس فمهما نحو الأسفل ومالا برأسيهما قليلاً إلى الجهة اليسرى دلالة على الاستغراب.. ثم قالا:

- **نااااار، عن أي نار تتحدثُ أنت؟!!..**

- **النارُ التي خرجت من البئر قبل قليل..**

أكدتُ لهما وأنا أحاول أن أعيدَ لملمة جسدي المبعثر في المعبد..

- **ربما تأثرتَ بقصص الجن والمعابد والمدن المسكونة بالأرواح وبات يتراءى لك كل هذه الأشياء، لا تخف لا شيء هنا في هذا المكان..**

بيّن لي صادق وهو يحاول أن يخفف عني هول الصدمة.

لكني علمتُ أنهما لا يريان ما أراه أنا، ربما المخطوطة التي تحوي طلاسم وتعاويذ هي من استفزت الأرواح الموجودة داخل البئر، أو الأرواح الموجودة بالقرب منها والتي لا نراها بالعين المجردة،

لكني كنتُ سعيداً بقرارة نفسي وأنا أنجز طقوس المخطوطة السابعة، فلم يتبقَ لي الآن سوى الثامنة التي لا أعرف عنها أي شيء، نفضت التراب من على بنطالي ونهضتُ على قدميَّ وأخذتُ أتجول في المعبد وأتفحص جدرانه الطينية العتيقة شاخصاً ببصري إلى أزمنة بعيدة من هذا العالم الغريب، فقبل آلاف السنين كانت ها هنا أناس تعبد غير الله، لا تعرف أي شيء من تعاليم الدين لكنها كانت تعتمد العدل والمساواة، شكراً لك ننماخ وأنت تمنحين الأنثى سرّ الطهارة والعفة بماء هذه البئر المقدسة الذي يغسل الأنثى من الأدران ويطهرها تطهيراً، شكراً لك لأنك تمنحين الأنثى مكانة منذ آلاف السنين..

- **علينا الرحيل والذهاب الآن لئلا نتأخر عن العودة إلى بغداد..**

قلتها لهما وهما يرغبان بأخذي إلى معبد الآلهة عشتار ومردوخ في القسم الآخر من الآثار، لكني اعتذرتُ لهما مبرراً ذلك بضيق الوقت.

كانا يسيران معي حتى نهاية البوابة التي دخلنا منها منذ الصباح وما أن وصلنا أحمد حتى رأيناه فاغراً فاه مستسلماً لنوم عميق متخذاً من المقعد الخلفي للتاكسي مضطجعاً له، فزّ هو الآخر مرعوباً وأنا أمسك بكتفه محاولاً إيقاظهُ من منامه.

- **يا ستار يا الله.. يا ستار يا الله..**

وبات يكررها أكثر من مرة، وقلبه ينزُّ وجعاً.

- **لقد أخفتموني، لا أشك بأن هذه البقعة من الأرض تسكنها الأرواح، كنتُ أغرق بكابوس مزعج وحلم مخيف، مخيفٌ جداً، أقطعُ يدي إنْ لم تكن هذه البقعة من الأرض تُعشعشُ فيها الأرواح وتسرح وتمرح كيفما تشاء، كلما استيقظت من كابوس، يمسكُ بي الكابوس الآخر رغماً عني، صرختُ تحت غطائي ملتحفاً بطانيتي، شيء يمسك بي من عنقي، حاولت النهوض لكني لم أستطع أن أنهض أبداً، حاولتُ بكل ما أوتيتُ من قوة لكني شعرتُ ثمة بأيادٍ خفية تمسكُ بي تقيدني، أقسمُ لكم بأني لن أعود مرة أخرى إلى هذا المكان...**

كان يقولها وهو يزجُ كلماته المتتابعات المتلاحقات بسرعة وينفثها مع الهواء الخارج من صدره المتسارع الممزوج بدقات قلبه.

ودعتُ دليلنا صادقاً الذي كان يبحر بنا نحو مجاهل مجرات المدينة الأثرية بحرفنةٍ وشكل ممتع، وسجاداً الذي كان ودوداً جداً معي، مقدماً شكري وامتناني لهما على هذه النزهة الجميلة التي تجولتُ بها في ربوع بابل حيث الغرابة والسحر والأرواح تسكنُ هنا، وانطلقنا أنا وأحمد متوجهين عائدين إلى بغداد، لم يكن كالآلهة مردوخ وهو يقود عربته الإلهية إلى سماوات عشتار بغطرسة وهيبة ووقار تليقٍ بالملوك والآلهة، يسابق بسيارته الريح مبتعداً فاراً عن هذا المكان الذي سبب له عقدة نفسية وهو يرتلُ في قلبهِ بعضاً من سور القرآن الكريم وينفخُ عن يمينه وشماله ومن أمامه ومن خلفه ومن تحته ومن فوقه.

- **ماذا تفعل؟**

قلتها له مستغرباً من تصرفهِ هذا..

- **أحاول بهذه التعاويذ طرد السحر والأرواح الملتصقة بي والتي جلبتها معي بالسيارة.**
- **ربما أكون أنا أحد الأرواح التي جلبتها معك بالسيارة، متنكراً بشكل أسعد..**

وحملقتُ بعيني ناظراً له نظرة غضب، حتى رأيتُ وجههُ تجعد وانكمش واصفر ودخل في دوامة الخوف المستمر التي جاء بها من بابل وهو يتمتمُ بشفتيه حتى وصولنا لمدينة المحمودية، ضحكتُ من

كل قلبي وأنا أراه على هذه الحالة..

- **لا تخف فأنا أسعد، لستُ روحاً غريبة ولا جنًّا.**

وضحتُ له وهو يحدق بي بطرف عينه.

كانت الشمس أشبهَ بحبةِ برتقال وهي تميلُ تدريجياً نحو الأفق البعيد لتتوارى عن الأنظار، وتختبئ بين طيات هذا الكون الكبير.

(39)

عند السابعة مساءً كنتُ أشدُ أزري وأنا أجر أذيال التعب ماراً بأزقة الكاظمية الضيقة وصولاً حيث بيتي، وقبل الوصول للبيت تفقدتُ أم فاضل فهي منذ مدة لم تمرَّ عليّ أو تحاول أن توصيني بجلب حاجياتها من بخور وزعفران، وهي التي لم تنفك مطلقا بين الحين والآخر من جلب هذه المواد لها، كان مروري لغرض إلقاء التحية والتفقد فقط، طرقتُ الباب مرة وثانية وثلاثة، وببطءٍ شديد جاءت تتعكز على عكازها وهي تغطي رأسها بشرشفٍ سميك..

- **من الطارق؟..** قالتها وهي تتجه نحوي.
- **أنا أسعد. افتحي الباب.**
- **(ها وليدي)..**

أجابتني وهي ترتجفُ من شدة البرد.

- **(خالة إچيت اطمئن عليچ من زمان ما شفتچ)..**

أجبتها وهي تلملم الشرشف الذي يغطي رأسها وتنتفض من البرودة.

- **(والله يا ابني تعبانة صار لي كم يوم ما اطلع من البيت)..**

قالتها وهي تحاول أن تمسك بأطراف شرشفها لتغطي وجهها وعنقها.

- **(خالة آخذچ للطبيب)..**

قلتها لها بعد أن تيقنت بمرضها وعجزها عن عدم الذهاب.

- **(لا ابني اشوي اشرب ينسون وزهورات وأصير زينة لا تشغل بالك روح ابني الله يرضى عليك أمك أكيد تنتظرك)..**

أكدتْ ذلك وهي تسحبُ أنفها للأعلى وتكورهُ بمنتصف وجهها.

لا أدري لِمَ أشعر بالحزن عليها، ربما لأنها امرأة بلا رفيق أو قريب أو من يطمئن عليها في الزقاق سوى أمي وأحياناً أنا حين أذكرها وتمرُّ على بالي مرور الكرام، كنتُ أقترب من باب بيتنا الهادئ الذي لا تقطنه سوى والدتي التي تنام مع بداية المساء دوماً، أمي كما هي لم تتغير قط، تنام مبكراً لتصحو فجراً على نغمات تراتيل مؤذن الحضرة الكاظمية، وكلما أسلك الطريق المؤدي لغرفتي محصياً عدد السلالم في الوصول لها تنتابني رعشة وقشعريرة أشعرها بجسدي وأنا أقترب من باب غرفتي الخشبي وصولاً لحاسوبي الذي تكمن فيه حبيبتي الغائبة، يشدني الحنين إليها وأشعر برغبة ملحة للبكاء لافتقادها، أضغط على أزرار حاسوبي كعازفٍ لمقطوعات مونامور تراقص أناملهُ آلة البيانو، وأنتظر لحين الدخول لصفحتي باحثاً عن رسائل ربما ترسلها لي لأطمئن عليها أو على أقل تقدير أكون على بينةٍ من أخبارها المنقطعة عني، ووجدت في صندوق رسائلي رسائل جديدة وما توانيت عن فتحها قط، وعلى الفور وجدتُ بعض الرسائل الواردة منها، لم تسعني الفرحة، بل خُيّل لي أنّي أطير بجناحين في السماء من شدة فرحتي، وما أن فتحتهما حتى وجدتُ..

أعلم أنك لا تدخل إلا في المساء لذا سأقول لك مساؤك ورد ومحبة.

أعدكَ بالدخول حينما يكون لي متسعٌ من الوقت.

استمع لهذا الرابط واذكرني

كان رابطاً لأغنية فيروز (اديش كان في ناس)، وبتُّ أغمض عيني وأستمع لها، عابراً عبر كلماتها وموسيقاها وحروفها لأيام جميلة كنا نقضيها أنا وماريا عبر الدردشة وكاميرات التكنولوجيا الحديثة

- (اديش كان في ناس عالمفرق تنطر ناس

وتشتي الدنيي

ويحملو شمسية

وأنا بأيام الصحو ما حدا نطرني)

وذكرتني بساعات الانتظار طويلاً، أنتظر بزوغها كقمرٍ يعلو هامات المساء، ذكرتني بساعات الليل المملة الطويلة وأنا أصلب نفسي عبر شاشة إلكترونية أنتظِرها كمن ينتظر قرار الإفراج عن جنحةٍ أو تهمة قضائية، كنتُ أنتظرها كمن ينتظر ساعات الفرح التي لا تحين بسهولة ويسر، ذكرتني بليالي الشتاء الباردة، وأنا ألتحف بطانيتي وأرسل لها حروفي التي لا تنقطع عن المشاكسة دوماً، ذكرتني بأيام المطر وأنا أضع على رأسي كيساً من النايلون أحتمي به راكضاً عبر طرقات ساحة الميدان متنقلاً بين برك المياه المتناثرة، ذكرتني بالشمس حين تزاحم الغيوم تدفعها ليكون كل شيء هادئاً وأنا ألتصق بجدارٍ تطبعُ الشمس قبلاتها عليه مبدّدة الرطوبة المعانقة له متشمساً سارح الفكر والخيال بها.

(صار لي شي مية سنة مشلوحه بهالدكان

ضجرت مني الحيطان ومستحيه تؤول

وأنا عيني عالحلى والحلى عالطرقات غنيلو غنيات وهو بحالو مشغول

نطرت مواعيد الأرض و ما حدا نطرني).

وتذكرتها وهي تُسمعني أغاني قحطان العطار وتداعب رأسها بغنجٍ ودلع ودلال (ايگولون غني بفرح وأنا الهموم غناي) وسرحتُ في الخيال طويلاً أتذكر بياضَها الساحر وهي تجلس على كرسيها الجذاب وتسلبُ قلبي كلما نظرتُ إليها... آآآخ يا ربي كم أشتاقها الآن أن تكون بين ذراعيّ وأمطرها بالقبلات.

(صار لي شي مية سنة عم ألف عناوين مش معروفة لمين ووديلن أخبار

بكرا لا بد السما ما تشتيلي عالباب شمسيات وأحباب يخدوني بشي نهار

واللي ذكر كل الناس بالآخر ذكرني)

وقلتُ في نفسي ألا تعلمين الآن كم أتذكرك بكل أنفاسي اللاهبة التي تخرج من صدري، بفكري بروحي وعقلي، ألا تعلمين الآن كم أريد القول لك (لو خُيرتُ بينك وبين الكون كلّه على أن أستبدلكِ ما استبدلتكِ بكنوز الدنيا كلها).

وقضيتُ الليل نصفه أستمع لصوت فيروز ولهذه الأغنية الرقيقة وأنا أستعيدُ بذلك ذكرياتي كلها، كنتُ أغمضُ عيني وأسرحُ في الخيال بعيداً صوب ماريا التي لم أتحدث إليها طيلة فترة سفرها إلى السويد، وما صحوتُ إلا فجراً على ترنيمة صوت المؤذن، وطقطقة أمي في المطبخ وهي تعد الفطور لها ولي قبل ذهابي لعملي.

(40)

ما بين التيه الذي أعيشهُ باحثاً عن حبي الافتراضي عبر شاشات الحواسيب وبين واقعي الصباحي حين ذهابي إلى عملي أشعرُ برغبة جامحة إلى لقاء العم عباس شاه كي يخلصني من هذا التناقض والتيهان الذي بتّ أعيشه وأصبح يشغل تفكيري، هل كُتِبَ علينا أن ندور في حلقات مفرغة كما كُتِبَ على الذين من قبلنا من ضياع بني إسرائيل أربعين عاماً في التيه قرب جبل طور سيناء حيث تجلّى الرب لكليمه موسى، أم يا ترى مكتوب علينا السبي والضياع انتقاماً لسبي بني إسرائيل في بابل نبوخذنصر أو كما تقول العجائز انتقاماً لدم الحسين المسفوح في كربلاء؟

أسئلة غامضة تراودني وأنا أخرج صباحاً من قدس الكاظمية ذاهباً إلى السوق الكبير طالباً لرزقي فيه وقبل الدخول في متاهاته الكبرى أمرُّ على العم عباس شاه أخبره بإنجازي المخطوطات السبع كلّها، باستثناء الثامنة التي لم يفصح لي عن طقوسها إلا حين إكمال السبع الأولى.

- **أبشركَ .. لقد أنجزت السبع كلها ولم يتبقَ لي سوى الثامنة التي أنتظر منك أن تفصح لي عن طقوسها، ويبدو لي أنها أصعب من السبع كلها وإلا لما تركتها للنهاية..**

قلتها هامساً بأذنه.. ابتسم وهو يسألني:

- **ماذا حدث لك عندما أنجزت المخطوطة السابعة؟!**

أجبته وعلامات الذهول بدت على وجهي..

- **يا عم لقد حدث أمرٌ لا يصدق، أمرٌ غريبٌ جداً!!**
- **حدثني ماذا حدث؟**

سألني بلهفة واندهاش..

وتباطأتُ بالردِ عليه قائلاً:

- **ليس الآن يا عم سأخبرك بعد العودة لك فثمة قصة غريبة وطويلة أنتظرها..**

قلتها له وهو يشعرُ بشغف الاستماع لما حدث لي.

- **مسعود ينتظرني الآن لحمل بضاعته لشركة النقليات الخاصة بإيصالها وتوزيعها على المحافظات الجنوبية، حال العودة والانتهاء من ذلك سأعود لأقصّ عليكَ قصة لن تصدقها قط..**

قلتها له وهو يمسكُ بيده مكنسة يكنسُ بها باب دكانه الصغير.

- **قبل الذهاب أجب عن سؤال صغير بنعم أو لا ثم أذهب..**

تفحصني العم عباس سائلاً ممعناً النظر في وجهي.

- **تفضل..** قلتها له.
- **هل احترقت البئر بنارٍ خرجت من باطنها نحو الأعلى؟**

ووضعتُ يدي على فمي مندهشاً، وتغيرتْ ملامح وجهي، وكأنه يعرف كل شيء، فكيف عرف بالنار الخارجة منها؟! بينما لم يرَ النار من أحدٍ سواي..!! ضحك وهو يرى الدهشة تطفو على وجهي.

ثم أردف قائلاً:

- **هيا اذهب ومارس عملك وعد حال الانتهاء منه، ولنا حديث طويل عن المخطوطة الثامنة..**

بابتسامة قالها وهو يزيحُ التراب المتراكم عند باب دكانه.. وكأنه علم بكل شيء.

يا له من رجلٍ غريب، من يدري .. ربما يعلمُ بأدق الأشياء التي حصلت معي، فلا هو قارئ للفنجان ولا عرّاف، لكنه يعرف كل شيء، وكأنه يعلم بتفاصيل وأسرار العوالم الغريبة..

- **السلام عليكم..**

قلتها لحكمت وهو يجلس كالعادة بباب دكانه ويحصي حبات مسبحته السوداء ذهاباً وإياباً، لكنه لم يكترث لي واكتفى برفع يده، بينما ينشغلُ سمير بتصفيف الملابس النسوية وتعليقها عالياً بواسطة عصا رفيعة وطويلة متكئاً على أطراف قدميه للوصول إلى حلقات حديدية في أعلى الباب، وعند الوصول لدكان مسعود أنقل الحمولة منه حتى مكتب النقليات الكائن خلف السوق العربي لغرض رصف البضائع وتهيئتها لتوزيعها على المحافظات الجنوبية.

وما إن انتصف النهار حتى أنجزت عملي، عدت متوجهاً صوب دكان العم عباس لأقص عليه ما وعدت بقصهِ صباحاً له، وفي الطريق حاول سمير قطعه عليّ محاولاً جري للدكان للحديث معي لكني اعتذرتُ منه مبرراً ذلك بانشغالي وعملي، كان دكان العم عباس فارغاً من البضاعة تماماً، وحين اقتربت منه كان يجري اتصالات هاتفية مع شخص يناديه أبو علي اتفق معه على توريد بعض الأعمال المصنوعة من الخوص، وعند الانتهاء من محادثته الهاتفية تبسم بوجهي قائلاً:

- **صف لي سفرتك لمعبد ننماخ، ماذا حدث لك في بابل؟..**

وبتُّ أسردُ عليه كل شَيْء..

- **هل تعلم أن النار الخارجة من البئر دليلٌ جيد؟ فأنت الآن أنجزت كل شيء بطريقة صحيحة، وهل تدرك أنَّك الآن حررت ثمانية من الجن كانوا مسجونين بالقرب من البئر؟،هؤلاء الثمانية ستجدهم عند تنفيذ المخطوطة الثامنة وسيقدمون لك اسم المدينة الأعظم، بهذا الاسم ستدخل المدينة، وهذا الاسم إن أعطيته لشخص آخر سيدخل معك أيضاً بلا تعب؛ لأنك تملك الاسم وحدك لكن احذر ممن تعطيه الاسم، فَإِنْ أشيع لأكثر من اثنين ستفسدُ بذلك كل أتعابك وتذهب أدراج الريح، من تعطيه الاسم الأعظم يجب أن تتأكد منه وتكون واثقاً به كل الوثوق وعلى درجة عالية من الاطمئنان له، غداً سيأتيني شخصٌ هو طريقك ودليلك للمخطوطة الأخيرة..**

كان يقولها وهو يطوي ردن قميصه ليكشف عن ذراعه البيضاء الناعمة متوجهاً بذلك لمقام الحسين بن روح لأداء فريضة الظهر، قاطعته وهو يحاول النهوض من كرسيه الخشبي..

- **ومن هذا الذي سيأتي غداً؟ وكيف سيكون طريقي ودليلي للمخطوطة الأخيرة وأنت لم تفصح لي حتى الآن عن الطقوس الخاصة بها، فقد تحدثت بصورة عامة، ولم تسلسل لي الطريق للوصول لهذه المخطوطة..**

- **لا تستعجل. غداً أو بعده ستعرف التفاصيل كلَّها، دعني الآن أتوجه للصلاة..**

أكد لي العم عباس ذلك وهو يستعينُ بيديه للنهوض والذهاب بينما انشغلتُ أنا بالتفكير بالمخطوطة الثامنة والكلام الذي قاله بثمانية من الجن واسم المدينة الأعظم وطقوس لم يفصح لي عنها حتى الآن وآخر هو دليلي وطريقي إلى المخطوطة الأخيرة، يا له من سر عجيب وغريب، وانتظرتُ أحدثُ نفسي بنفسي لحين مجيئه والتفرغ من أداء صلاة الظهر، وبينما أغرق بوساوس التفكير وهلوسة

العقل الباطن الذي يبحثُ عن موضع إبرة سالمة غير مشغولة بالتفكير بـ(إيسكولاس) أفزُّ منتبهاً من يدٍ تمسكُ كتفي من الخلف.

- **لا تفكر، كل شيء يسيرُ على ما يرام..**

قالها العم عباس وأنا ألتفتُ نحوه من الجهة اليمنى..

كان الوقت يسيرُ بعشوائية، فتارة تجدهُ كالبرق الخاطف بل بسرعة الضوء وأخرى على مهلٍ بهدوءٍ كبير.

- **غداً سيأتي شخص لدكاني يجلبُ معه بضاعة من مدينة الناصرية، سيجلبُ سلالاً بأحجام مختلفة وأطباقاً منوعة ملونة جميلة مصنوعة من سعف النخيل..**

قالها العم عباس وهو ينفخُ التراب عن فخارياته الطينية القديمة الصغيرة والكبيرة التي تتخذ من رفٍ قديم في دكانه مقراً لها والتي لم يبعها على موظفي وزارة السياحة والآثار الذين يبحثون عن مصنوعات قديمة لتوزيعها كهدايا على القادمين من دولٍ أوربية والسياح العرب الوافدين للاطلاع على آثار العراق، ثم أردف قائلاً:

- **أنظر لهذه وهذه..**

وأشار بأصبعه للفخاريات الطينية.

- **هل تعلم كم سعر الواحدة؟!**

وزممتُ شفتي قائلاً:

- **لا تساوي حتى بضعة دنانير، بل لن تجد من يشتريها هي فخاريات قديمة وطينية وقد عفا عليها الزمن وأصبحتْ مجرد خردة لا تغني من شيء ولا تسمنُ من جوع..**

هزّ يدهُ ساخراً مني:

- **أنت لا تعلم، بل كل الناس لا تدرك بأن هذه الآنية الفخارية تساوي وزنها ذهباً، بل أجزم أنها أغلى من الذهب..**

واستغربتُ من حديثهِ مستفسراً عن السرّ في هذه الآنية.

- **هذه الفخاريات من جوخا عاصمة مدينة أوما السومرية، جلبها لي رزاق من المدينة التي تبعد مسافة عن قضاء الرفاعي، لكن لا أحد يعرف سرها سواي وحدي والشيخ عبد الرحمن، أنظر لهذه الآنية التي تقع في المنتصف..**

قالها وهو ينظرُ نحوي بعينين مقلوبتين صاعدتين نحو الأعلى وبحاجبين مرتفعين من الأطراف متحدين أعلى الأنف.

- **نعم أشاهدها فهي ليست بالكبيرة ولا الصغيرة بل هي بين بين، فحجمها مميز من دون أقرانها..**

أجبتهُ بتلقائية.

- **ستأخذها معك، ستفيدكُ، وستكون طوق نجاة لك إنْ حاول أي شخص من بني البشر أن يخترق عليك الطقوس أو يحاول إفسادها..**

أكد لي ذلك وهو يحكُ عينه اليسرى بيده اليمنى..

- **يا عم أراك تشوش تفكيري ببعثرة معلوماتك هنا وهناك، وكأنك تمارس معي لعبة الكلمات المتقاطعة، ما تقصدُ بكل هذا، دعني أكُنْ على بينة من أمري..**

قلتها والدهشة تملأ تفكيري!!

- **لا تستعجل. غداً أو بعد غد ستعرف التفاصيل كلّها..**

كررها أكثر من مرة وهو يتنفسُ نفساً عميقاً، ثم أردف:

- **عليك أن تأتي غداً للتعرف على رزاق فهو دليلك وطريقك للمخطوطة الأخيرة، هو لن يعلم بكل شيء، لكني سأبعثك معه بحجة أنك طالب تحاول كتابة بحثٍ عن المدن التاريخية وقد اخترت مدينة جوخا الأثرية موضوعاً للكتابة وهذا الموضوع قد يتطلب منك وقتاً طويلاً، ربما تحتاجُ للوقت الطويل يا أسعد، فعليك الصبر، هي البوابة الأخيرة لتحقيق مناك..**

بين لي العم عباس وهو يهز برأسه مؤكداً..

- **كم أحتاج مثلاً من الوقت!!..** سألته مستفسراً.

- **غداً ستعرف كل شيء وبالتفصيل الممل، فغداً لا بدّ من أن تبيت ليلتك عندي..**

تحدث العم عباس وهو يضحك من كل قلبه ليزيدني شوقاً في معرفة سرّ المخطوطة الأخيرة، ثم أردف منهياً حديثه بنبرةٍ محببة:

- **عليك أن تخبر أمك بأنك ستبيت عندي لعمل مكلف به لئلا تقلقها عليك..**

كان الوقتُ يسير كالوهج الخاطف وأنا أحاول تجميع ما قاله من عبارات استفزازية مبعثرة، كنتُ أحاول اقتناص لحظة صفاء لترتيب ما تحدث به لئلا أتفاجأ بطقوس المخطوطة والتي ربما ستفسد عليّ تعبي إنْ كانت صعبة التحقيق والمنال، تودعنا ثم افترقنا هو باتجاه عگد النصارى متوجهاً لساحة الخلاني وأنا للميدان متوجها لباب المعظم ومن هناك للكاظمية.

كنتُ أفكر طوال الطريق بهذه المخطوطة، وعن أيّ طقوس يتحدث العم عباس، هل هي صعبة؟ أو سهلة التطبيق والعمل، لكن خلف كلامه أشياء غريبة وطرق الوصول إليها صعبة جداً، وحين وصلتُ لمنزلي انشغلتُ تلك الليلة بالتفكير بالمخطوطة لكن ما غابتْ ماريا عن تفكيري قط، فكانت هي الأخرى تشغلُ فكري وتحلق بي صوب فضاءات من الخيال مسيطرةً على مخيلتي، كنتُ أتمنى في حينها أن أصعد البساط السحري وأطير حيثُ تسكن هي، أو يحملني عفريت على كفه إليها، أو أصعد فوق مكنسة الساحرة العجوز لألكزها بقدمي لتحلق بسرعة جنونية كحصانٍ هائج يجوب الفضاء يسابق الريح وصولاً إلى السويد، وما أن ألبثُ بالتفكير بها حتى تأخذني عشوائيتي للمخطوطة وطرق السفر إلى جوخا وماذا سأفعل؟ وما هي المحاولات التي سأقوم بها لفك طلاسم المخطوطة الأخيرة؟ وكم يوماً سيستغرق سفري وبقائي هناك؟! كل هذه الاستفسارات تبحثُ عن إجابات شافية، وباتت الأفكار تقلبُ كياني رأساً على عقب، حاولت النوم لكني ما استطعت وصممتُ أذني وأغمضتُ عينيّ وحاولتُ طرد الأفكار كلّها من رأسي لحين الالتقاء بالعم عباس شاه، واستسلمتُ للنوم وما صحوت إلا بعد الآذان بساعة، عندها أخبرت أمي بنية المبيت عند العم عباس شاه لغرض العمل، كانتْ أمي كعادتها تعدُ فطورها الصباحي لي ولها.

الضياءُ يبددُ الفجر والسادسةُ صباحاً تدقُ معلنةً بداية يومٍ جديد بتوقيت بغداد.

(41)

كنتُ أنتظر قدوم الوقت بسرعة، فشغفي يزدادُ شيئاً فشيئا لمعرفة الطريق السالك للمخطوطة، كان الصباح مثل أي صباح عادي لكن ما ميزه عن الصباحات الباقية أني سمعتُ صوت فيروز بلا منغصات من الركاب الذين يتذمرُ أغلبهم، فبعضهم يصرخ:

- **(يمعود فيروز من الصبح اتقي الله... خلينا نسمع عبد الباسط.. ويا ريت محمد صديق المنشاوي).**

كانت السيارة تسير بلا ركاب من كبار السن لذا لم يتفوه أي منهم باستبدال فيروز بالمنشاوي أو عبد الباسط، الدقائق تمر كالعادة بين ازدحام للمارة في الباب المعظم ورجال المرور الذين يقطعون الطريق للطلبة الراغبين بعبور الشارع لمدينة الطب، أترجل من السيارة لأسير من ساحة الميدان وصولاً للسوق الكبير، تكاد خيوط الشمس تلامس الأرض وتداعبها بازغةً من بين العمارات الكبيرة العالية وعمارة الضمان الاجتماعي، بعض العمال يحملون البضاعة الجديدة للعم عباس القادمة له من الجنوب عبر عربات خشبية ليقوم هو برصفها بانتظام داخل دكانه الصغير لتتسع لعدد أكبر من السلال والأطباق المصنوعة من الخوص خفيفة الحمل، العربة تكدس البضاعة بباب دكانه لتغلقه تماماً بينما يبقى هو في الداخل ليصففها بانتظام وبنسقٍ جميل يدهش الرائي، أزيح البضاعة لأكشف لي عن موضع قدم أحاول مساعدته في الترتيب والتصفيف للبضاعة المتكدسة عند باب محله، وما أن يصفف كل شيء بانتظام رائع، حتى يعمد لإشعال مدفأته ليضع على فوهتها المتواضعة إبريق الشاي وهو يستعر فوقها بهدوء ليصدر بعد برهة صفيراً وينفث من أنفه الطويل دخاناً يندفع بقوة نحو الأمام، كقطارٍ يتوقف بمحطات خاوية..

- **هل جاء رزاق..**

استفسرتُ من العم عباس وهو يمسك بإبريق شايه النحاسي الأصفر، يصمتُ ويملأ كوباً من الشاي يقدمهُ لي، ثم يملأ الثاني ويعيدُ الإبريق واضعاً إياه فوق الفوهة مرة أخرى، يرفع كوبه من الأرض يرتشفُ رشفة قوية منه ساحباً نفساً عميقاً مصدراً صوتاً عالياً أثناء الرشف، يكرر رشفتهُ مرة أخرى، كنتُ خائفاً من عدم مجيء رزاق لئلا يذهب شغف انتظاري سدى، بينما أنتظر أنا بأن يتفوهَ ويجيبَ على سؤالي، يضعُ كوبه على الأرض..

- **نعم لقد جاء..**

نطقها وهو يرفعُ الكوب مرة أخرى، ثم أتم حديثه:

- **ذهب ليشتري بعض الحاجيات لكنه سيعود إلى هنا، عليك التواجد بعد ساعة أو أكثر بقليل، لا تذهب بعيداً.**

ثم واصل حديثهُ قائلاً:

- **عليك أن تكون قريباً من هنا وتراقب دكاني، فإن شاهدت شخصاً يلبس دشداشة بيضاء وسترة سوداء ويضعُ على رأسه العقال والكوفية، فذاك هو عليك بالمجيء للدكان..**

قالها وهو ينهض من مكانه مودعاً إيايّ.

كنتُ ألتقط رزقاً بسيطاً وأرفض الابتعاد عن الدكان لأراقبه بين الحين والآخر، غفلتُ بعض الشيء

منشغلاً ببعض الأصدقاء في محالهم، وما أن انتبهتُ لغفلتي حتى شاهدتُ هيئة الرجل الذي وصفهُ لي جالساً على كرسيٍ من الخشب بباب الدكان فعرفتُ انه الشخص المطلوب وهو يمسكُ بيده كوباً من الشاي.

- **السلام عليكم..**

وجهتُ لهما التحية وهما يتقابلان على كرسيين من الخشب يحتسيان الشاي معاً، نهض رزاق بوجهي وهو يمدُ يدهُ مصافحاً إياي.

- **سيكون دليلك هناك لإنجاز مشروعك الكتابي في التعرف على آثار جوخا..**

قالها العم عباس وهو ينظر إليَّ مشيراً بإصبعه إلى رزاق.

- **قبل الذهاب لهناك بيومين أو ثلاثة سيتصلُ بك على رقم هاتفك ليتفق معك على اللقاء..**

شرح العم عباس لرزاق.

بعد ذهابه إلى مرآب النهضة بقيت أنا بالقرب من العمّ عباس، الذي قال:

- **الليلة سأطلعك على كل شيء..**

استأذنتهُ متجولاً بالسوق باحثاً عن رزقٍ لي، وما عدت له إلا عند الثانية ظهراً وأنا أحاول استجماع قواي بعد عمل متعب بتفريغ حمولة قادمة من أربيل عبر الشاحنات الكبيرة، كان ينتظرني بباب دكانه مستعداً للمغادرة ذاهباً للبيت، انطلقنا سوية، كانت صفية زوجته تنتظره بالباب، وما أن وصلنا حتى رحبت بنا أجمل ترحيب، وعلى عجلٍ أعدتْ لنا مأدبة الغداء المتواضعة، وما أن أنهينا الغداء حتى كادت الشمسُ تسيرُ نحو الضفة الأخرى من هذا الفضاء العجيب الذي كنتُ لا أهتم به إلا حين أدركتُ أن هناك علوماً ومعاجز لا يدركها الإنسان البسيط الذي لا يفقه من فنون هذا العالم أي شيء، أشار لي العم عباس بالذهاب للحضرة القادرية للسلام على الشيخ، فالشمسُ تودعُ الكون رويداً رويداً ونحن نقتربُ من الحضرة ندخلها، وقبل الأذان بدقائق توجهنا إلى المكان ذاته الذي يتواجد به الشيخ، وحين رآنا نُقْبِلُ تبسم ابتسامة خفيفة هادئة ثم قَبَلَ القرآن وألتفت إلينا قائلاً:

- **ثمة شيء ما يراودني وصوتٌ يُجلجلُ بي معلنا قدومكما، وها أنا ذا أنتظركما..**

ثم التفت لي قائلاً:

- **أنا أطمئن عليك باستمرار سائلاً العم عباس عنك وهو بدوره ينقل لي تقدمكَ باجتياز البوابات السبع، وأنت الآن على مقربةٍ من الأخيرة، كن شجاعاً قوياً لتجتاز المخطوطة الثامنة، فلم يتبقَ سوى القليل لترى ما يذهلُكَ، فالكثير من البشر لا يعرفون عن أسرار ومفاتن هذا العالم إلا القلة القليلة منهم، هيا اذهبا وصليا، ثم ادعُ بهذا الدعاء، احمله في جيبك وبعد الصلاة اقرأه لييسر الله أمرك..**

فسر ذلك وهو يدس بجيبي قصاصة ورقية صغيرة تحمل مضمون الدعاء؛ مستعداً لأداء صلاتهِ.

كان مؤذن الحضرة القادرية يودع العبارة الأخيرة من الآذان.. (لا إله إلا الله)، بعد التفرغ من صلاة المغرب، حاولتُ النهوض لكني تذكرتُ الدعاء، أخرجته من جيبي وقرأته على الرغم من صعوبة قراءة خطه إلا أنّي استحضرت الكلمات وتتبعتها على مهلٍ، كان العمّ عباس ينتظرني وهو يداعب بأنامله الناعمة الحبات الصغيرة لمسبحتهِ الزرقاء.

بعد العودة للدار كانت الحاجة صفية تعدُ لنا نقيعاً لتمر الهند الحامض المحلى بالسكر، كان هذا الشراب بمثابة وجبة كاملة لم نتناول بعدها أي شيء، وانطلق يحدثني عن غرائب طقوس المخطوطة

الثامنة.

(42)

لم أعرف عن أي شيءٍ يتحدث، تصورته يستهزئ بي أو يسخرُ مني وهو يتطرق إلى أشياء لا يمكن للعقل أن يصفها مطلقاً..

- **هل سمعتَ ما قلته لك، هذا كل ما لدي، عليك بعدم الإفراط بلحظة من اللحظات الممتعة والشاقة في سفرك وعليك أيضاً أن تكون بطلاً لتحقق غايتك ومناك..**

بيَّن ذلك وهو يبلعُ ريقه.. متنهداً مواصلاً حديثه:

- **لقد أتعبني الحديث الطويل..**

تبسمتُ بوجهه ابتسامة عريضة جداً حتى بان بياض أسناني، مستدركاً:

- **سأتعبك قليلاً يا عم..**
- **وكيف؟..**

استفسر العم عباس رافعا أحد حاجبيه، مستغرباً من كلامي..

- **لم أنتبه لكل الحديث.**

أطلقت تصريحي بسرعة كبيرة وأنا منكس الرأس خجلاً من ردة فعله لحماقتي وعدم انتباهي لحديثه.

- **أووووف يا أسعد، وكيف لي أن أعيد كل هذا بالتفصيل..**

بضجر أجابني متذمراً من طلبي الأحمق، لكني أطلت الابتسامة كالأبله لأبدد امتعاضه نحوي..

- **انتبه لي واترك ماريا هذه اللحظة لا تفكر بها وفكر بما سأسرده عليك الآن، عليك الانتباه لي لئلا تُضيعَ ما سعيت من أجله طوال تلك الفترة التي سعيت بها للوصول إلى المخطوطات السبع الأولى واجتياز البوابات والاختبارات الخاصة بهن..**

كررها العم عباس بعد شعوره بمأساة الإعادة مرة أخرى، وأردف:

- **انظر.. لا تجعلني أكرر، أنتبه لي وحسب..**

ورحتُ أصغي له بكل دقة، وجوارحي تنبض بالدهشة وأنا أتابع تفاصيل حديثه الممتع...

- **عندما تذهب لرزاق سيوصلك لمدينة جوخا الأثرية عليك بالتهيؤ للأيام التي تبدأ بالعدد 9 ففي هذه الأيام فقط تخرجُ الآفة الكبيرة التي تحرس المدينة عليك باصطيادها وقتلها..**

وقاطعتهُ مستفسراً:

- **ماذا تعني بالأيام التي تبدأ بالعدد 9؟..**

أوضح:

- **أقصد اليوم التاسع من الشهر الهجري والتاسع عشر والتاسع والعشرين منه، فهذه الأيام**

تبدأ بالعدد تسعه، وفيها بالتحديد تخرجُ الآفة الكبيرة، عليك باصطيادها وقتلها..

ثم قاطعته متسائلاً مرة أخرى..

- **وكيف لي أن أصطادها وأقتلها؟!**

أجابني:

- **هذه تعتمد على شطارتك حينها..**

وشعرتُ أني في حيرة وورطة، أي شطارة، ما نوع الآفة؟ ما شكلها؟ كبيرة أم صغيرة؟ ثمّة أسئلة باتت تضج برأسي، ثم بيّن لي:

- **هذه الآفة تخرج بهذه الأيام التي تبدأ بالعدد 9 من الشهر الهجري فقط، عليك باستثمار هذه الأيام للقضاء عليها وإلا ستؤجل للشهر الذي يليه، إن اصطدتها عليك بتقطيع جزء من لحمها ومن ثم طبخها بقدرٍ واضعاً المخطوطة بداخل القدر، عندها تناول من اللحم المطبوخ..**

شعرتُ بمذاق مقزز على أطراف لساني، كيف لي أن آكل من لحم آفةٍ؟ ما شكلها أو لونها؟!، يقولون أن الآفة هي أفعى كبيرة مخيفة قد تكون بحراشف مرعبة، أيّ طبق سيكون جاهزاً للأكل هذا، هل للحب ضريبة تقتاتُ على أرواحنا حتى نرغم على أن نفعل كل هذا؟، إني أشعرُ برغبة للاستفراغ..
ثم أردف وهو يشيرُ بإصبعه محذراً إياي:

- **لكن قبل التناول عليك بقراءة جزء من الآية (22) من سورة ق (بسم الله الرحمن الرحيم فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) سترى ما لم تره عيناك من ذي قبل، سترى المدينة على حقيقتها، ابحث عن صندوق مذهب أصفر يلتمعُ ويبرقُ شديد الصفرة، لن تجد به أي قفل، لكنك لن تستطيع فتحه إلا بعد أن تقرأ عليه الآية (52) من سورة الأعراف (وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)، سيفتح لك الصندوق، ستجد به ورقة لا تفتحها أبداً وعظم هُدهد أصفر قديماً خذّهما، أحرق الورقة، ستهبط عليك ثمانية من الجن، وهؤلاء هم الذين حررتهم من بئر هاروت وماروت سيحيطونك من جهاتك الأربع، سيتقدمُ نحوك كبيرهم اسمه مازر، وخلفه السبعة الباقون..، قسورة، طيكل، محرز، برقان، شمهورش، ميمون، ابانوخ..**

اقشعرّ جلدي وأنا أسمع هذا وانتابتني لحظة خوف مريبة، أيعقلُ أن أتعامل مع الجن؟، هل هم كما وصفتهم أمي بأشكال مريبة مخيفة عندما كانتْ تقصُ عليّ حين كنتُ صغيراً؟ أيّ امتحان هذا يا ربي؟ لكن حين حضرت ماريا أمام مخيلتي حتى تبدد الخوف كله، وشعرتُ برغبة لمواصلة الطريق حتى النهاية.. وأكمل مواصلاً حديثهُ:

- **سيأخذون منك عظم الهدهد، ويعطونك ورقة مكتوب بداخلها اسم المدينة الأعظم، وما أن تقرأ هذا الاسم حتى تحلق صوب مدينة (إيسكولاس) هناك سترى عالماً جديداً مغايراً عن عوالمنا هذه، عليك بالاحتفاظ بهذا الاسم، كما على ماريا الاحتفاظ به، لأن المدينة كما قلت لك في بداية المخطوطات تقبل زوجاً من البشر لأن الأرقام الزوجية تسود الفردية، فالشخص الثالث العارف بهذا الاسم سينهي كل شيء، ولن تستطيعا بعدها الدخول إلى المدينة مرة أخرى، هذا تقريباً كل شيء..**

أدركتُ تماماً أن هذا الحلم لم يكن سهلاً يسيراً أبداً، لكنه قد يتحقق بالصبر والمثابرة وتخطي الصعاب وتنفيذ ما جاء بتوصيات العم عباس وهو يحذرُ وينصحُ ويرشدُ وصولاً إلى بوابات مدينة لا يعرف عنها الناس أي شيء!!، لكنه في نهاية حديثه تدارك الأمر محذراً قائلاً:

- **احذر من أي شخص يمدُ يدهُ على القدر محاولاً الأكل منه، لأنه سيرى المدينة على حقيقتها، حاول جاهداً أن لا يعرف أي شخص عن ذلك، لذا ستأخذ معك الفخارية التي رأيتها في دكاني التي تقع بين الكبيرة والصغيرة، تضعُ بها لبن بقرة وتتركه، لا تشرب منه لأنك بعدها لن تستطيع أن ترى أي شيء، فقط دع الشخص الآخر يشرب لئلا يرى ما تراه.**

أكد العم عباس ذلك وهو يحاول أن يتكئ على حائط الغرفة ماداً قدميه محاولاً الاسترخاء بعد طول الحديث، وتبسمتُ بوجههِ مرة أخرى قائلاً:

- **إن قلت لك أعد هذا الحديث مرة ثالثة هل ستغضبُ مني؟**

قلتها والابتسامةُ تزين محياي، وكرر عبارته السابقة متذمراً..

- **أووووف يا أسعد وكيف لي أن أعيد كل هذا بالتفصيل..**
- **فقط ليكون كل شيء راسخاً في مخيلتي..**

أجبتهُ وأنا ما زلتُ أحتفظ بضحكتي، وبات يعيدُ كل شيء عليّ بالتفصيل المملّ حتى داهمنا مؤذن الحضرة القادرية، صلينا سوياً، ثم استقبل ما تبقى من الساعات الصباحية بعفوية وكأنه لم يكن سهراناً حتى الصباح، أما أنا فكانت فترات النعاس تحاول السيطرة عليّ بين الفينة والأخرى، وحاولتُ إشغال نفسي قليلاً حتى أصبَحَ طعام الإفطار جاهزاً، كانت الساعة تقتربُ من السادسة صباحاً وما أن أكملنا طعامنا حتى توجهنا صوب السوق الكبير، وصلت مبكراً بسبب قرب المسافة ما بين السوق وساحة الخلاني، كان يفتتحُ باب دكانه وهو يدير موجة مذياعه على صوت تراتيل محمد صديق المنشاوي ثم يلتزم الصمت طوال فترة دعاء الصباح، لا يتكلم، لا يتفوه، وحين ينهي المذياع فترته القرائية الصباحية حتى يتمتمَ بشفتيه مردداً تسابيح خاصة أجهلها لكنه يعرف تماماً ما جدواها، يبدأ السوق بالازدحام شيئاً فشيئاً حتى يمتلِئ بالمتسوقين من الناس، وأهرع متنقلاً بين المحال بنقل البضائع والتحميل وأبقى مشغولاً أحياناً بالعمل وتارة أخرى أفكر في كلامه وهو يقصُ عليّ شيئاً من الخيال، لكني الآن بتُ أعلم تماماً أن ما يقوله هو عين الحقيقة بأن هناك أشياء لا يدركها الإنسان البسيط العادي في معرفة أسرار هذا الكون، وازداد يقيني بعدما تبين لي الأشياء الغريبة التي حصلت معي في المخطوطة السابعة بالقرب من بئر هاروت وماروت.

(43)

عند حلول المساء عدتُ متعباً منهكاً للبيت، استقبلتني أمي باشتياقها العفوي لابن هو كل ما تبقى لها من أسرتها التي بددتها الأيام وفرقها الزمن، لا شيء يشدني لحاسوبي كما كنتُ من ذي قبل بسبب غياب من أحب وأهوى، لكن ثمة شعوراً يراودني وانجذاباً نحو حاسوبي هذه الليلة، ربما حاستي السادسة هي من أوحت لي بأن ثمة رسائل معلقة ما بين سماء السويد وأرض الكاظمية، هذا الشعور أكدهُ لي قلبي حينما رفَّ كحمامة صغيرة ترفرفُ بجناحيها تحاول الطيران، ومثلما قال قلبي فرسائلها كانت تنتظرني على أحرّ من الجمر...

- **مساؤك أو صباحك معطر بالحب ورائحة العشق وبساتين الأشواق ولياليها الملاح..**

اشتقتُ لكَ كثيراً بعمق أنفاسي.. انتظرتكَ طويلاً طيلة ليلي، لكنك لم تأتِ، كنتُ أنتظرُ طلتكَ

بفارغ الصبر، لكن للأسف، لا أعلم بعد غيابي بأخبارك التي أردتُ سماعها منك شفاهاً بعد أن أصبح لي بعض الوقت، بعد زواج بيسان وجوزيف بحفل رسمي بهيج رائع.

أي حظٍ أملكه أنا فحين أتواجد تختفي هي، وحين تتواجد أختفي أنا، أيّ حب ذاك الذي يرتبط بالروح وبعمق النفس، كلما أقرأ لها حرفاً تنتابني الرغبة بالتشبثِ بالحرف الذي يليه، أتنفس عذوبة حرفها وهي تحلق بي نحو سماوات قلبها.. لتردف قائلةً:

- **هل تعلم كنتُ أتمنى أن نكون بدلاً منهما، كلانا أنا وأنت نضعُ يداً بيد ونتجول في كنيسة فوربي كورد بيرغ والأبِ إدريس حنا يعقد بيننا قسم الزواج الأبدي مطلقاً عبارته الشهيرة ونحن ننظر لبعض قائلاً: (لا شيء يفرقكما سوى الموت)، قالها لهما لكني شعرتُ بهذه العبارة تلصقني بك حتى الممات، وأخذني الحلم دقائق بسيطة لكنها كانت جميلة جداً وأنا أتصور نظرات الجميع صوبنا ونحن نكلم بعضنا البعض بلغةِ العيون، نتبادل القُبل على صوت كاظم الساهر وهو يتغنى بكلمات نزار (علمني حبك سيدتي أن أرسم وجهك بالطبشور على الحيطان) كم تمنيتُ أن نكون نحن الزوجين.. ونحلق بعيداً عن كل الناس متجهين صوب فندق سكانديك تريانجيلن لنتجول صباحاً بلا مرافق أو أي شخص ينغص علينا خلوتنا بكنيسة القديس بتري وقلعة مالمو.**

الله، أي وجعٍ يجتاحني وأنا أحتسي حلمها المزروع بقلبها، هي الأخرى تحلم مثلي، تتمنى لقائي، أفكرُ أحياناً كثيراً، هل هذا صعبٌ جداً على الله أن يحقق لقاءَنا في بقعة من هذا الكون؟!!، ثم تواصل كلامها..

- **كان زواج بيسان من جوزيف زواجاً جميلاً رائعاً مذهلاً، ربما أنا رأيته هكذا لأنني كنتُ أتمنى أن أكون أنا بيسان وأنت جوزيف ....**

  أن وصلتك رسائلي رد عليها..

  أكرر حبي واشتياقي يا أسعد..

  إلى اللقاء..

  ماريا..

وما أن أنهيتُ قراءة رسائلها حتى شعرتُ بالأسى، لهذا الحظ الذي لا يجمعنا، كانت تلصقُ رابطاً إلكترونياً في نهاية كلماتها وتذيلهُ بعبارة (استمع وتذكرني)، كان الرابط الإلكتروني ينقلني إلى صوت فيروز (بحكي عنك يا حبيبي لأهالي الحي.. تحكي عني يا حبيبي لنبعة المي) وغرقتُ بصوتها الصباحي الذي زين مساءاتي، كنتُ أنا أيضاً أنتظرها، وانتظرتُ طويلاً حتى ساعة متأخرة من الليل، لكن بلا جدوى، وتركتُ لها رسائل أغرقتُ بها صفحتها الإلكترونية..

- **حبيبتي التي لا تغيبُ عن بالي وفكري وخيالي**

  كل الكؤوس والشموع والكراسي

  هي من تنصتُ لهمسنا

  إني الآن أشم عطرك

  احذري أن تقولي لي

  لا تقترب..

  الآن أغمض عينيّ

وأتنفسكِ

فعطرك يحرق أنفاسي

يلهب إحساسي

أعلم بأنك تشعرين بالغربة هناك

لكن اعلمي أنّك لن تشعري بأي غربة وأنا بالقرب منك

أيتها الملكة، سأجلسكِ على كرسي الملوك

وسأجثو على ركبتيك

يا سيدتي..

وأنا عبدكِ المطيع

اطلبي وتمني

سأطوي كل المسافات لأصل حدود إحساسك

فأنا لست قوياً

لكني أملك قلبا وإحساسا لا يملكه أي إنسان

اقتربي.. ففي الاقتراب الذوبان والتيهان

في الاقتراب نلوذ بمتاهات بعضنا

اقتربي ودعينا نذُبْ

كقطعة سكر في كوب واحد

نمتزج كلانا..

مدي يدك

هيا..

تشبثي بيدي

لن أبتعد

ولن أكون سراباً

بل أنا الزورق الذي يقترب من شطآنك

ليحملك بين ذراعيه

إلى العالم البعيد..

إلى اللقاء أتمنى أن نلتقي ذات مساء..

الصباح يفتتحُ أبوابه وأنا ما زلتُ أنتظر هطولها كغيمة ماطرة تبحثُ عنها أراض يابسة خاوية، أشعرُ باليأس حين يتقدم الصباح كاشفاً عن ضوئه المنير، أغلق حاسوبي وأستعدُ للذهاب للعمل.

(44)

كان الربيع يقتربُ منا وكنا نتجاوز الأيام الأولى من آذار المعطر برائحة طلع النخيل وأزهار الأشجار المثمرة وعطر الجوري في الحدائق الصغيرة على جانبي الطريق، كنتُ أستعدُ للذهاب لمدينة الرفاعي لزيارة رزاق وإتمام مخطوطتي الأخيرة، وما أن أصل السوق حتى أقترب من العم عباس قائلاً:

- **يا عم اليوم هو الرابع من شهر آذار الجميل وقد اتفق التاريخ الميلادي مع الهجري وبعد خمسة أيام سيكون بمقدوري أن أصل للطريق الخاص بتنفيذ المخطوطة الثامنة والأخيرة، ربما سأتصل عليه اليوم أو غداً للذهاب لمدينته حيث تقام طقوس المخطوطة..**

بينتُ للعم عباس ذلك بعد أن ألقيتُ التحية والسلام عليه.

- **لا بل عليك أن تتصل به اليوم لتذهب غداً، تحتاجُ إلى الوقت الكافي لتكون على مقربة ودراية بمدينة جوخا، فالآفة تحتاجُ منك إلى الوقت للقضاء عليها، وعليك بأخذ الآنية الفخارية والاحتفاظ بها ووضع لبن بقرة بها فإن رأى أحدهم المدينة الأثرية التي ستنقبُ عنها، دعه يشرب من اللبن لتتكون غشاوة على عينيه، وعندها تستطيعُ البحث عن الصندوق من دون منغصات.**

قالها مكرراً كلامه السابق، محذراً إياي أن لا يرى أي شخص أو يعرف ما أقوم به**!!**

كانتْ عقارب الساعة تسير بسرعة جنونية ونحن نستقبلُ العاشرة صباحاً، اتصلتُ برزاق لأحدد موعداً معه لكنه اتفق معي على صباح اليوم الثاني أو تأجيل المجيء لمنتصف الشهر لاستعدادهم لموسم الحصاد الزراعي، فأجبتهُ قائلاً:

- **لا.. سأكون عندك غداً..**
- **إذن سأنتظرك في المرآب الرئيس للمدينة، انتظرني هناك حالما تصل، واتصل بي سأكون بين يديك بغضون دقائق معدودة..**

قالها وهو يودعني بإنهاء الاتصال..

عدتُ قبل الظهيرة لأبلغ العم عباس بالاتصال الذي جرى بيننا.. استبشر خيراً وقال:

- **خذ الآنية واحتفظ بها وحاذر أن تنكسر أو تقع من يدك فإنها ثمينة جداً، كما أريد أن أقول لك شيئاً لن أحيرك بالقضاء على الآفة الكبيرة، جهزتُ لك سماً قاتلاً صنعته بنفسي من خلال مزج سموم متعددة، فقط أبحث عن شقٍ أو فتحة فوق التل وحاول أن تشمَ رائحة أشبه برائحة الثوم، حاول أن تحصل على فخذً شاة فهو يحب اللحم، أدلكها بهذا السم ثم انتظر لعشر دقائق حتى ينزل السم بالفخذ بعدها رش عليه هذه البهارات التي تُذهب الرائحة النفاثة للسمّ وثم ادلك لحم الفخذ بزيت الزيتون ليكون جاهزاً..**

كان القلق ينتابني كلّما اقترب موعد إتمام المخطوطة هذه، فهي تختلف عن السبع الباقيات، فيها جن وسفر بعيد وتلٌ غريب ما سمعتُ به قط، ومدينة سومرية تحرسها آفة قد تكون أسطورية لا أعرف شكلها، هل يا ترى هي عشبة الخلود التي كان يبحث عنها كلكامش في متاهات الأرض لتحرس مدينته، هل يتوهم العلماء بأن النصوص المسمارية التي توثق فيها للعشبة لم تكن نباتاً بل هي آفة

حيوانية وبدلاً من أن تمنحه الخلود مدى الدهر منحت أرضه الخلود حتى الآن، بل مدى الدهر كله!!، ثم أكمل حديثهُ قائلاً:

- **لا تقتطع اللحم من أي مكان في جسم الآفة، لأنَّ السم سينتشر بسرعة فيها، عليك بالأخذ من سنامها، فهذا المكان الوحيد الذي لن يصله السمُ أبداً، فإذا عزمت فتوكل على الله، خذ هذه الأغراض معك واذهب للبيت وعليك بالسفر غداً صباحاً..**

أوضح لي ذلك وهو يجمعُ الآنية والسم والزيت وكيس البهارات بكيسٍ أكبر يتسع لجميع الحاجيات، ودعتهُ هذه المرة لأيام وليست لساعات، وحين ابتعدتُ مسافة بعيدة صاح خلفي..

- **سأدعو لك بالتوفيق وإنجاز مهمتك في كل فرض من فروض صلاتي..**

هززتُ بيدي له من بعيد شاكراً له مساعدته منذ البداية وحتى الآن.

(45)

في باب المعظم كان المؤذن يصدحُ بصوته معلناً دخول وقت الظهيرة، أنباءٌ عن انفجارٍ في السيطرة الرئيسة لمدخل شارع عبد المحسن الكاظمي..

- **أوووف يا ربي ستزدحم الطرقات وتقطعُ علينا..**

تفوهتُ بذلك وأنا أتذمر من الوضع المأساوي الذي نمرُ به بين الفينة والأخرى، وانطلق بنا السائق حتى شارع المغرب، تحدث سائق سيارتنا مع سائق آخر لإرشاده لطريق مفتوح للوصول إلى الكاظمية، لكنه أبلغه بأن لا طريق للدخول، عندها التفت سائق مركبتنا قائلاً:

- **(اخوان أوصل لغاية جامع الإمام أبو حنيفة ومناك انتم اعبروا الجسر)..**

قالها وهو يرفعُ زجاج نظارته ناظراً للركاب، وقبل أن نصل لساحة عنتر في الأعظمية أنزلنا بعد أن أوقف سيارته على جانب الرصيف بالقرب من الساحة قائلاً:

- **(راح ارجع للگراج.. انزلوا هنا..)**

كنا نسير متجهين صوب الجامع عابرين جسر الأئمة للوصول إلى الكاظمية، كان الوقتُ يقترب من الثالثة عصراً، وحين وصلتُ للبيت أبلغتُ أمي بسفري التي امتعضت في البدء لكنني أقنعتها بأني ذاهبٌ في عمل وسينتهي ربما بأسبوع أو أسبوعين، مانعتْ في البداية لكنها رضختْ للأمر الواقع في النهاية بذهابي إلى جنوب العراق، عبأتُ أغراضي بحقيبة متوسطة سهلة الحمل ونمتُ تلك الليلة مبكراً بعد أن بعثتُ برسائل بسيطة أبلغتُ بها ماريا بغيابي لبضعة أيام ليتسنى لي الذهاب صباحاً بعد أذان الفجر.

في لحظة هدوء وصفاء جلستُ أنظر لساعتي التي كنتُ أنتظر فيها كلاً من ديك أم محمد ومؤذن الحضرة الكاظمية ليفتتحا صباحهما، كان الوقتُ يقتربُ من الرابعة صباحاً، نهضتُ ولململمتُ كل أغراضي وحاجياتي التي أحتاجها في سفري وما أعطاني إياه العم عباس شاه، وانتظرت الوقت بعد الأذان الذي تنتشرُ به الناس وتفتح الطرق الصباحية بعد أن تغلق عند منتصف الليل تحت مسمى منع التجوال، كنتُ أتوجه صوب گراج النهضة ومنه إلى مدينة الرفاعي، رؤيتي لهذه الطرقات الهادئة

الجنوبية التي تمتاز بعذوبتها الساحرة وأنهارها التي عبرتها مواصلاً السير بعد أن سارت بنا المركبة تخترق الهواء النقي الداخل عبر نافذتها جعلتني لا أشعر بالمسافة الطويلة للطريق، وبعد مرور أربع ساعات من السير المتواصل للمركبة.

- **(منو ينزل بالرفاعي) ..**

صاح سائق السيارة وهو ينظر للراكبين من مرآته الأمامية.

كنتُ أنا بـ(سابع نومه) لا أدري بأيّ شيء، ثم كرر عبارته نفسها، حتى وجدتُ أحدهم يضرب كتفي..

- **(أنت يا ولد)..**

وما أن نظرتُ له حتى صاح بوجهي:

- **(مو تريد للرفاعي)..**

وانتفضتُ كسعفةٍ قائلاً:

- **(أي أريد للرفاعي)..**
- **(أنزل هنا، مو صحنا لمن ملينا)..**

رد السائق وهو ينظر لي بتذمرٍ وغضب..

(46)

الجو لطيف وهادئ وأناس بسطاء وحياة عادية، لم أكن أدرك أن رزاق ينتظرني هو الآخر بالقرب من موقف نزول الركاب القادمين للمدينة، وما أن اتصلتُ به حتى قال:

- **انتظرني أنا الآن بالقرب منك، سأصلك بأقل من خمس دقائق..**

ما اكتملت الدقائق الخمس حتى رأيتهُ وهو يلوح بيده من بعيد راكباً سيارة قديمة نوع تويوتا، لا أدري كيف تسير لكنها تفي بالغرض، وتجاوزنا المدينة وعبرنا عبر جسرٍ حديدي إلى الضفة الأخرى من منطقة ريفية، وسرنا باتجاه العمق حتى وصلنا إلى طريق ترابي وكنا نتقدم عابرين قناطر طينية مصنوعة من جذوع الأشجار، يتدفقُ النهر بقوة وتتكاثر الأعشاب على ضفتيه ونستمر بالدخول في العمق، كنتُ أستغرب من بعد المسافة عن مركز المدينة، ثمة بيوتٌ طينية هنا وهناك وبساتين للنخيل تنتشر بالقرب منها، يا لجمال هذه المناطق الهادئة وبساطتها المعهودة، على ما يبدو إني سأعيش فترة نقاهة رائعة في هذه الأماكن لكن ما ينقصهم الإنترنت والاتصال بالعالم الخارجي، أعتقد لا علاقة لهم بالعالم الخارجي قطعاً، هم يحبون البقاء هكذا بلا منغصات أو شوائب، يا للروعة والجمال.

كان رزاق يقترب من بيوت طينية مجتمعة وغرفة بالمواصفات نفسها تبتعد عن البقية.

- **هناك بيتنا..**

أشار بيده صوب البيوت الطينية ذات البناء البسيط.

توقفتْ السيارة على مقربة من الغرفة الطينية المنعزلة وهي تنفض غبار الطريق عن ساقيها الدائريتين، وأردف وهو يفتح باب سيارته المترهل الصدئ:

- **تفضل انزل..**

كنا نسير باتجاه الغرفة المنعزلة، وبطريقي رمقتُ الغرف المجتمعة مع بعض ثمة صبية صغار يلعبون ويمرحون، بناء آخر مسقف بداخله كوزٌ للماء وكلبٌ أسود يقف على مقربة من الصغار ودجاج بريشٍ ملون، شدني الحنين كثيراً لديك أم محمد الذي ينغصُ عليّ إغفاءة الصباح الجميلة.

- **تفضل هاي ديوانيتنا، ببغداد تسمونها استقبال..**

قالها وهو يبتسم بوجهي، ورددتُ خلفه ديوانية يعني استقبالاً جميلاً.. مفردة جنوبية جديدة تضاف إلى سلسلة المفردات الأخرى، اليوم هو الخامس من الشهر الهجري وبعد أربعة أيام لا بدّ من البحث عن الآفة التي ستكون بداية تنفيذ طقوس مخطوطتي، كانت "الديوانية" واسعة جداً وتغلف جدرانها الأربعة بمادة النايلون المنقوش بالورد وتدق من الأعلى بمسامير لتحمي الشخص المتكئ على الجدار من التراب الذي يلتصق بظهره، مسقفة من الأعلى بجذوع خشبية منتظمة، وباب خشبي بسيط، ما يميز المكان، الهدوء الكبير الذي يحيط به، لم تكن سوى دقائق حتى اقترب إخوته نحوي يلقون التحية والسلام.

- **هذا علي، وهذا عيسى، وهذا حسن، وهذا كرار، وهؤلاء الصغار هم أولادي..**

وأشار بيده نحوهم.

وجوه الجميع تحمل براءة ما رأيتها قط في حياتي.

- **لا تأكل كثيراً سنأكل القليل أنا وأنت واحتفظ بجوعك للعشاء فأنا أقيم الليلة مأدبة عشاء فضل ثوابها يعودُ لوجه الله ودعوتُ إليها كل القريبين منا..**

قالها وهو يضع مجموعة من الأطباق أمامي من الرز والحساء وبعض الفواكه، كان ينظر لفمي محذراً إياي من كثرة الأكل، وما أن بدأت الشمسُ بالمغيب، حتى رأيتها وهي تنزلُ رويداً رويداً عبر الفضاء المفتوح وكأنها تلامس الأرض بل شعرتُ أنها تعانقها وتذوب فيها، تغرق بهدوء غائرة تدريجياً، كانت في غاية الجمال وأنا أراها برتقالية اللون.

جموع من الناس كبار وشيوخ وشباب تملأ المكان، المأدبة فخمة جداً أطباق معدنية كبيرة تمتلئ بالرز وعليها فخذ شاة، كان المساء يمر بعذوبةٍ ونسمة جنوبية هادئة شفافة، نمتُ تلك الليلة بلا حاسوبي ولا ماريا، بلا صوتٍ للمؤذن يخترق أذني لكني وجدتُ عوضاً عن ديك أم محمد أكثر من ديك كانوا يخترقون جمجمتي في بداية الصباح..

تبدأ أصواتُ الماشية وأصواتُ الناس مع بداية الفجر، يتحركون بلا طرق مقطوعة، كل شيء هنا مختلف عن بغداد، كل شيء هادئ وجميل، الناس تسير وتعمل بعفويتها البسيطة، يذهبون للحقول فجراً وما أن تبزغ الشمس حتى يعود رزاق حاملاً بيده الفطور الصباحي.. لخبزهم طعم خاص فهو يحمل نكهة الجنوب التي ما أكلتها أبداً ورائحة ما شممتها قطعاً في خبزنا البغدادي، الشمسُ ترتفع شيئاً فشيئاً متقدمة نحو الأفق بارتفاعها، اصطحبني رزاق إلى تل جوخا عاصمة مدينة أوما السومرية، كان التلُّ يبتعد مسافة نصف ساعة مشياً على الأقدام عن البيوت الطينية المتفرقة للأهالي الساكنين المنطقة..

- **إنه هناك..**

أشار رزاق بإصبعه نحو تل ترابي فوق الأرض، ثم أردف:

- **هنا كان الملك لوكال زاكيزي ملكاً على العالم، تحت هذه التلال الترابية كانت إمبراطورية كبرى لأساس الكون كلّه..**

ثم قلتُ له:

- **أنا أعلم أن هذه التلال عليها حُراس تمنع دخول الموقع..**

ابتسم بوجهي قائلاً:

- **نعم يحرسها أبو لطيف فهو يعمل حارساً أمنياً لها، كان البارحة مع المدعوين للوليمة، فهو يحرسها فقط أثناء النهار أما في الليل فلا أحد يقترب من هذا التل، الكل يخافه ويخشاه، ففي هذه التلال أرواح وجن، وما أن تدخلها حتى يتلبس بك جني وقد يذهبُ بعقلك أو تصاب بمرض خطير، فالجن حين يتلبسُ بالشخص يقتله أو يؤذيه وربما يسيطر عليه.**

وبات يقصُ عليّ قصصاً يتداولها أهل القرية كلما اقتربوا من هذه التلال التي يخشونها أثناء المرور ليلاً بها، وهو يردد (دير بالك من مصيفران الشمس، اللي يمر منا تصير عنده دوسه)، ثم تواصل بحديثه معي مؤكداً خطورة المكان عند المغيب:

- **المكان خطرٌ جداً فعند مغيب الشمس حتى القادم لمنطقتنا يبتعد عن الطريق المؤدي للتل لئلا يتلبس به جني من الجن الموجود في مدينة أوما، أتذكرُ حادثة حدثت معي ذات يوم، كنتُ أسيرُ بمحاذاة التل وصدفة رأيت قلادةً ذهبية تلتمعُ على ضوء الشمس فرحتُ بلقيطتيّ هذه، فكنتُ كلما أقترب منها تبتعدُ عني، لم أدركْ هذا الشيء إلا بعد أن استغرقتُ أكثر من ساعتين فكلما دنوت منها وتكون على مقربة من يدي أراها تبتعد وكأنها سراب أو محض خيال، لكني أدركتُ أن ثمة نفراً من الجن استهوى أن يمارس لعبته القذرة معي أو يشعرني بالسذاجة التي أمتلكها.**

كنا نقترب من تل جوخا، وكان شخصٌ آخر يقترب منا..

- **من هذا؟..** أشرتُ باتجاه الشخص الذي يحمل سلاحاً رشاشاً.
- **إنه أبو لطيف..** رد رزاق.
- **أراكما هنا.. ماذا تفعلان؟..** سألنا أبو لطيف وهو يمدُ يدهُ اليمنى لي، ثم يمدها نحو رزاق.
- **أسعد جاء البارحة من بغداد ليرى تل جوخا كي يقدم بحثاً دراسياً في ذلك..** أجابه رزاق، ثم أردف:
- **أتمنى منك أن تساعده إذا حضر إلى هنا.**
- **يدلل أسعد..** أجاب مكشراً عن أسنانه الصفراء المنخورة المتآكلة من الأمام.

كنتُ أنتظر بشوقٍ أن أَصعد هذه التلال وفوجئتُ بصعودي عليها أنها تلال كبيرة وكثيرة وتحتوي على موقع أثريٍ من الأعلى شبه بسيط، أطلت النظر ووجدتُ حفراً متنوعة، هنا حفرة وهناك أخرى وأخرى وأخرى.. يا لهذه الحفر الكثيرة، وكيف أستطيع شمها كلها!!.

- **كم مساحةُ هذا التل؟..**

قلتها لأبي لطيف وهو يمسكُ بسيكارته ويمتصُ منها نفساً عميقاً قوياً كمن يمسكُ بمعشوقةٍ له بين يديه ولا يفلتها، لكنه لم يجبني على سؤالي فقط انشغل بنفث الدخان من فمه والتزم الصمت، وتجولتُ طويلاً بهذه المدينة السومرية التي لم تكن سوى حفرٍ متناثرة هنا وهناك، كان السراق يحاولون نهبها والبحث عن كنوزها المخزونة داخل الأرض، السؤال الذي أشغلني كثيراً لو كانت هناك آفة تحرس

الكنوز المدفونة لِمَ لم تقتص من هؤلاء؟! أسئلة جمة تثير فضولي جداً، واستثمرتُ تواجدي في المدينة أحاول أن أشم رائحة الثوم الكريهة من خلال بعض الفجوات أو الفتحات الموجودة في الأرض، لكنها كانت كثيرة جداً، وأخذتُ أتنقل بين الفجوات لكن من دون جدوى لم تنفذ إلى أنفي أي رائحة للثوم، كان رزاق لا يكل أو يمل من المشي معي وشعرتُ بالتعب حتى بتُّ لا أستطيع الوقوف على قدميّ.

- **علينا العودة..**

طلب رزاق ذلك مني وهو يرفع أطراف ثوبه من الأسفل إلى الأعلى ليكشف عن سرواله الأبيض لئلا يعيق حركته المستمرة.

وعدتُ أحملُ هماً برأسي، كيف سيكون عبور هذا الحاجز من المخطوطة وهي تجعلني أمام خيار لا بديل عنه وهو موعدٌ محدد يبدأ بالعدد 9.

- **دعنا نمر بطريقنا على قطيع الماشية..** قالها رزاق وهو ما زال محتفظاً بقوة قدميه.

كنا نسيرُ باتجاه الغرب من التلة الأثرية، لرزاق قطيعٌ كبير، كان يرافق القطيع أحد إخوته وثمة امرأة جنوبية ترتدي مئزراً حول خصرها وثوبًا ملوناً يغطي جسمها، وحجاباً أزرقَ يرفرفُ فوق رأسها كلما هبت عليه ريحٌ خفيفةٌ ونسمةٌ هادئةٌ، تخفي وجهها بنقابٍ أسود لم يظهر منها سوى خصلات شعر ناعمة منسحبة من أسفل الحجاب بارزة، وعينين تقذفان السحر منهما، هذا ما رأيتهُ وهي ترمقني من أخمص قدمي حتى قمة رأسي بطرف عينها بينما ينشغل هو بتكليم أخيه الأصغر، عدنا بعدها ذاهبين إلى البيت، وأنا أفكر بماريا وشعرها المنسدل على عينها وكأنها تحمل بعضاً من ملامحها، نعم رفَّ قلبي عليها لأنني تذكرتُ من خلالها ماريا.

كان المساء يحمل لوناً وطعماً مميزاً جداً، صحيح أني أفتقد وجه أمي وماريا وحاسوبي الذي يضم بين دفتيه آلاف الحكايا، لكن مجالس المساء تحمل نكهة الدواوين العربية الأصيلة وهي تحمل عبق الماضي الممزوج برائحة الحاضر، استمتعتُ كثيراً وأنا أسمع حكايات لطيفة وغريبة وأحداثاً أخرى بطولية تعبرُ عن أصالة الجنوب، كنتُ في كل يوم أحمل أوراقي لأوهم الآخرين بأني أكتب ماراً على أبي لطيف داخلاً مدينة أوما السومرية أنقبُ فيها عن خرم في الأرض تخرجُ منه رائحة الثوم لكن من دون جدوى، كان اليوم التاسع يقتربُ فشعرتُ باليأس وأناً أفتشُ عن خرم هذه الآفة، ومر اليوم التاسع من الشهرِ وشعرتُ بالإحباط، كنتُ كلما مررتُ عائداً باتجاه الغرب من التلة الأثرية أرمق حسناء الجنوب بنظرة، لم أكن أدرك أنها تخبئ في قلبها ميلاً تجاهي وحباً عميقاً لمجرد أنها رأت شاباً غريباً قادماً من بغداد، تعدهُ فارس أحلامها الذي جاء على حصانٍ أبيض ليخطفها ويضعها على ظهر الحصان ثم يحلقُ بها، تراءى لي كل هذا وأنا أراها تنظر ليَ من بعيد، كانت الأيام تمرُ وتجاوزتْ العشر ثم النصف من الشهر وكان إحباطي يزدادُ يوماً بعد آخر، واستسلمتُ تماماً لقدري وإنهاء حلم المدينة الخيالية المترامية الأطراف في هذا العالم الغريب، إلا أن ثمة إحساساً بداخلي منعني من اليأس والاستسلام مواصلاً ما جئت من أجله.

(47)

في اليوم السابع عشر من الشهر، كانت الريحُ تهبُ من جهة الشرق وكنتُ كالعادة أذهب بمفردي

للمدينة عند كل صباح ومن غير المتوقع أن يكون شقّ طويلٌ ناعمٌ من الجهة الشرقية للمدينة تحمل لي نسائم الهواء القادمة من ناحيتها رائحة كريهة قوية أشبه بالثوم، وسرتُ شاقاً طريقي بالاتجاه الشرقي حيث تحمل الريح نسائم كريهة، كنتُ كلما أتقدم أشمُ رائحة أقوى حتى وقفتُ على شقٍ طويل تفوحُ منه الرائحة ويتدفق كما الماء من ينبوع في نهرٍ جاف، واستلقيتُ على الأرض منبطحاً لأشم شيئاً يزكمُ الأنوف واستغربتُ على الرغم من وجود الشقوق والحفر العميقة في هذه المدينة، كيف لآفة أن تخرج من شق طولي، لكني تيقنتُ بأن الرائحة تخرج من المكان نفسه لأنها تصفع أنفي بثقلٍ كبير، وشعرتُ بالسعادة تغمرني وكررتها مرة وأخرى وثالثة ورابعة وتيقنتُ فعلاً بأن الرائحة تخرج من هذا الشق، ثم خرجتُ من المدينة باتجاه الغرب عكس تيار الهواء، ومن بعيد كانت الفتاة تنشغل برعي الماشية، لم تلتفتْ أو تنتبه لي، وزادني الفضول في الاقتراب والدنو من الماشية، كنتُ باقترابي أحاول أن أستعيد ذكرياتي الجميلة مع ماريا، والتفتتْ وهي تهشُ بعصاها على غنمها، كنتُ اقترب.. هكذا رأيتُ ماريا وهي تمسكُ بالعصا وتبتسمُ لي، كنتُ أشاهدها تزيلُ البرقعَ عن وجهها محاولة جذبي نحوها بجمالها لتكشف عن وجهٍ كالقمر وخصلة ناعمة تتعثر بالهواء تنسدل من تحت حجابها، لكني لبرهةٍ أحسستُ بشيءٍ أشبه بصفعة قوية على خدي وبقول أمي التي كانت تردده دوماً **(يا غريب كن أديب)**، وعلى الفور غيرتُ مسار اتجاهي متوجهاً إلى البيوت الطينية، أوسعتُ الخطى حثيثاً صوب الديوانية التي يجلس فيها الرجال، التفتُّ للخلف كنتُ أشاهد وجهها بعد أن تبددتْ الابتسامة وتناثرتْ في الهواء الطلق لتكشف عن وجهٍ عبوسٍ حزين كان ينتظر مني أن أبادله بابتسامة وحب.

كان أبو لطيف أياماً لا يصل بها للمدينة وأخرى يتواجد بها، وفي اليوم الثامن عشر اقتربتُ لأحدد مرة أخرى وبدقة المكان الذي اكتشفتهُ في اليوم السابق ووصلتُ للشق نفسه وشممتُ منه رائحة الثوم نفسها وتيقنتُ أنه المكان نفسه الذي أقصده، عقدتُ العزم على إنهاء مهمتي في صباح الغد، عدتُ للديوانية نفسها، واستمر كل شيء بعفويته وبساطته المعهودة، كانت حسناء الجنوب تعود مع إخوتها، تحاول التلصص عليّ بين الحين والأخر لترمقني بطرف عينها من خلال ملئها لكوز الماء الذي يقفُ على عمودين صغيرين مغروسين بجدارٍ طيني ومسقف بأعواد القصب ليشرب منه السابلة أو المارة في الطريق، كان رزاق يستعدُ لذبح شاة لي، فهم أهل كرم وضيافة، يقطعُ الشاة إلى أجزاء.

- **أريدُ منك فخذاً..**

طلبتُ منه وهو يمسكُ بيده سكيناً.

- **ما تفعلُ بالفخذ؟؟**

سألني مستغرباً من طلبي.

- **غداً سأقول لك، فقط لا تسألني الآن، خبئ لي فخذاً أريدهُ منك غداً صباحاً..**

أكدتُ طلبي له محاولاً كسب الوقت لإيجاد عذرٍ مناسب.

كنت فقط أتحجج لكني سأدبر العذر حالما ينتهي كل شيء أما إن لم أفلح باصطياد الآفة غداً، سأقع بورطة جديدة ماذا سأقول له في اليوم التاسع والعشرين من الشهر نفسه؟ هل سيذبحُ شاة ويعطيني فخذها؟ وإن لم يفعل؟ وبتُّ ليلتي أفكر حتى داهمني النعاس، وما صحوت إلا على صوته قائلاً:

- **(أگعد گول يا الله من الصبح، الشمس طلعت وأنت بعدك نايم)..**

وجلستُ أتمغط، أمددُ ساقي، نهضتُ محاولاً اللحاق بالوقت قبل أن يذهب اليوم سدى قبل تنفيذ مخطوطتي، كان رزاق يحمل بيده السمراء الإفطار.

- **اترك الإفطار وأتني بالفخذ لأذهب فأنا مستعجل.. ولا تنس أن تحضر معك لبن بقرتكم الصفراء..**

قلتها له وأنا أمسح وجهي بالمنشفة.

كان مستغرباً من طلباتي هذه، إلا أنه لم يسألني أبداً لأنهم لا يسألون ضيوفهم عن طلباتهم، أخذتُ أغراضي والفخذ الملفوف بكيسٍ من النايلون الشفاف ورحتُ أسابق الريح في الوصول لمدينة جوخا وأنا كلي أمل وترقب في تحقيق المبتغى السحري وحلمي السرمدي بلقاء من أحب حتى ولو في عالم الأحلام وعبر دنيا الخيال.

هل كنتُ أحلم .. من يدري... ربما!!

(48)

كان الجو هادئاً بلا رياح قوية أو خفيفة، بعض الغيوم تحجب نور الشمس عن الظهور، وما أن وصلت المدينة حتى عملتُ بتعاليم العم عباس شاه، أخرجتُ الفخذ صببتُ السمَّ عليه كلّه وتركته للدقائق العشر الأولى وأضفتُ خمساً من عندي ثم نثرتُ فوقه البهارات التي ملأت رائحتها المكان وصببتُ بعد هذا زيت الزيتون، تركتُ الفخذ بالقرب من الشق الطولي ورحتُ أخبئ نفسي بمكانٍ منخفض من الأرض أراقب الشق بعيداً عنه لمسافة، مرتْ دقائق وباتتْ الدقائق تتسلق الواحدة فوقَ الأخرى لتمرّ نصف ساعة، شعرتُ باليأس الكبير يحيط بي يخيمُ فوقي لكن وجه ماريا لم يفارقني، فحبها الوحيد هو من جعلني أتواصل وأشعر بأني ما زلتُ في الطريق الصحيح، كنتُ أراقب الوقت والشق معاً وبعد النصف بثلاث دقائق بزغ ضياءٌ من الشق بان لي كضوء البرق، وتصاعد دخانٌ أبيض يحمل رائحة الثوم، وشاهدتُ ما لم أصدقهُ من ذي قبل تكاثف الدخان ثم تجمع ليُكوِنَ شكلاً غريباً جداً، أردتُ التعرف عليه، لكنه فعلاً آفة لا يمكن التعرف عليها أبداً، بحياتي ما رأيت حيواناً غريباً كهذا ليس لضخامته، ليس كبيراً جداً، كان أكبر من الكلب لكنهُ مخيفٌ جداً، يحمل في شكله الغرابة والذهول كان يملك رأساً لتنين بقرنين معقوفين وعينين كبيرتين ولسان كلسان أفعى طويل كلما يزأر يُخرج من فمه ناراً، لا أبالغ إنْ قلت تمتدُ حتى أكثر من متر، ورقبة طويلة كلها حراشف، كحراشف السمكة وذيل طويل تبين أنه أفعى من نوع كوبرا تلتفتُ بجهات متعددة بل بكل الاتجاهات، لهُ قدمان كأقدام النمر أو الأسد شيئاً يشبه هذا، ورجلان يحويان في أسفلهما حوافر ليستا رجلي حصان أو حمار، ليس شيئاً من هذا قط، وكان يملك جناحين إذا طار بهما أصبحا طويلين يتجاوزان حتى المتر ونصفه، لكنه إن مشى راجلاً يضمهما إلى جانبيه بحيث لا يمكن رؤيتهما، وفوق ظهره سنامٌ أشبهُ بسنام الجمل، حامَ حول الفخذ وزأر زئيراً مخيفاً وصفق بجناحيه كان يرفرفُ بهما وكأنه كان محبوساً داخل الأرض أو مكبل الجناح، كان عصفُ الهواء يثيرُ زوبعة ترابية تخيمُ على المكان لم تجعلني أرى أي شيء، بقي التراب أشبه بعاصفة دوارة تحوم على شكل دوائر تتصاعد تدريجياً لتكبر في نهايتها وتتخذ شكلاً مخروطياً، وما استقرتْ إلا بعد ربع ساعة شاهدتُ الآفة تضطجعُ على الأرض، كنتُ أخشى الاقتراب منها، إلا أن سكونها جعلني أقترب ولاحظتُ غياب الفخذ فعلمتُ أنَّ الآفة التهمته لتسقط صريعة، واقتربتُ بهدوء، خطوة خطوة، حتى بتُ بالقرب منها، كان منظرها مخيفاً جداً يحمل الغرابة والخيال وعلى الفور قطعتُ من سنامها لحماً يميل للبياض، وأخرجتُ القدر وأشعلت ناراً تحت القدر من الحطب الموجود هناك ووضعتُ اللحم والمخطوطة في القدر وباتت النار تشتعل تحت القدر، وأخرجتُ الآنية الفخارية ووضعتُ اللبن بها تحضيراً لأي طارئ وتفحصتُ اللحم حتى وجدته نضج داخل القدر واختفت المخطوطة مهروسةً بالقدر ممزوجة به وقرأت الآية قبل الأكل (فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد)، ثم مضغتُ اللحم على مهل خَشيتُ أن أتذمر من

طعمه إنْ أكلته دفعة واحدة، لكني أحسستُ بمذاق طيب جداً ورائع لا مثيل له، وما أن بات اللحم يستقرُ بجوفي حتى رأيتُ ما لم أره في حياتي، شاهدتُ مدينة ولا بالحسبان أو الخيال، كنوزٌ وذهبٌ ومجوهرات تملأ المدينة كلّها، ممرات من المرمر الأخضر ورخامات بيضاء وعبارات تملأ المكان وأشياء تحتاجُ للقراءة على شكل مخطوطات مسمارية أشبه بالتي رأيتها في مخطوطات درس التاريخ، وعلمتُ أن الآفة لم تقتص من السراق الذين يحاولون سرقة الكنوز لأنهم بالأصل لم يتوصلوا للسر الذي يمكن أن يكشف لهم عن الكنوز المخبأة في باطن الأرض كلها لان ما كان ظاهراً ما هو إلا تمويه من الآفة المكلفة بحفظ الكنوز، وما ظهر إلا أشياءُ بسيطة يتوهم الكل بأنها المدينة الحقيقية، إلا أن الحقيقة غير ذلك، تختلفُ عما كان ظاهرياً، وانشغلتُ أبحث عن الصندوق الذي ينجيني وينهي كل مأساتي.. لكني فززتُ مذعوراً حينما سمعتُ كرار يصيح بصوتٍ عالٍ..

- **ذهبْ، ذهبْ..**

وهو يقفزُ فرحاً وحين اقتربتُ منه وجدته أكل ما تبقى من اللحم الممزوج بالمخطوطة الباقية بالقدر، وأسرعتُ على الفور بإعطائه اللبن الموجود بالآنية الفخارية.

- **خذ واشرب ربما أنت عطشان..**

متداركاً الأمر وهو يمسكُ بالآنية من عنقها بينما أنا أمسك بها من قعرها خوفاً عليها من الوقوع والانكسار، من حسن الحظ أنه كان يشعر بالعطش فاحتساها حتى القعر الأخير، وما أن أنهى شرب اللبن حتى تعلق بياضه فوق شفته، كان يمسح اللبن العالق بكمه، ثم قال باستغراب فاغراً فاه متعجباً منذهلاً كاشفاً عن أسنانه المتسوسة..

- **قبل قليل كنتُ أرى مدينة من الذهب والمجوهرات هنا أين ذهبتْ؟..**

أجبتهُ وهو يفرك عينيه ويعيدُ فركهما مرة أخرى مكرراً السؤال نفسه.

- **متوهمٌ أنت أو ربما تحلم..**

قلتها له لكنه لم يصدق.

- **(والله العظيم شفت ذهب)..**

أكد ذلك وهو يعض على أسنانه، واصطنعتُ ضحكة صفراء لئلا يشك بذلك.

- **متوهم حبيبي كرار..**

قلتها له واستسلم أخيراً لما أقنعته به بأن ما يراه مجرد وهم، وحاولتُ أن أغير مسار ذهوله فسألته:

- **من أرسلك خلفي؟ ولِمَ اليوم بالتحديد جئت إلى هنا؟..**

قلتها له وعلامات الغضب تزين وجهي.

- **لقد أرسلتني أختي شيماء تريد رؤيتك..**

أجابني وهو مازال يلتفتُ يميناً وشمالاً.

- **عُدْ إليها وسألحق بك..**

طلبتُ منه المغادرة محاولاً دفعهُ باتجاه الغرب.

ورحتُ أفتشُ عن الصندوق المذهب الأصفر، لكن لسوء حظي لا شمس فيلتمعُ عليها، ورحتُ أندب حظي، إلا أن يداً امتدت كي تساعدني لتزيح الغمام لبرهة وخلف تل يبعد مسافة شاهدتُ بريقاً مذهباً يتحد مع أشعة الشمس ورحتُ أركضُ متنقلاً عبر تلال الذهب الأصفر والطرق المرصوفة بالرخام

الأخضر، كان الشعاع الأصفر المتحد مع الشمس هو الدليل للصندوق.. وأخيراً الصندوق يتأرجح بين يدي وجرني الفضول لفتحه لكني تذكرتُ أنه لا يفتح بالطريقة العادية إلا بالقراءة عليه وما أن قرأتُ الآية (وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)، حتى انفتح لي، كانت في داخله الورقة والعظم الأصفر القديم للهدهد، لم أفتح الورقة وبَقِيَتْ على طويتها التي وجدتها عليها، أخذتُ الورقة والعظم، وفي منخفضٍ من الأرض بين التلال، أحرقتُ الورقة لأشعرَ بنسائم هوائية لذيذة تتخطفني عن اليمين والشمالَ ومن أمامي وخلفي وأغمضتُ عيني وسحبتُ نفساً عميقاً بارداً يملأ صدري، وما أن نفختُ الهواء دافعاً إياه خارجاً من صدري حتى شاهدتهم يقفون وهم يحيطون بي من الجهات كلّها، على كل جهةٍ زوجان اثنان، وجوههم متشابهة مع اختلاف بسيط في الضخامة والحجم، لهم أنوف مدورة تقع وسط وجوههم وعينان تقع اليمنى على الجانب الأيمن من الجبهة اليمنى واليسرى على الجبهة اليسرى من الجانب الأيسر بلا حواجب أو شعر في الوجه أو الرأس وفمٌ طولي يمتدُ من الأنف حتى الذقن ويدان طويلتان وأصابع تجذب النظر بقصرها، لم أشاهد لهما سوى يدين طويلتين ونتوءات صغيرة هي أصابعهم القصيرة مع اختلاف في الطول فمنهم القصير والآخر الطويل، يا لهذه المخلوقات الغريبة.

- **من منكم مازر؟..**

قلتها بوثوب وقوة لأبدّد الخوف الذي تملكني منذ الوهلة الأولى.. وتقدم أقصرهم وأضخمهم نحوي قائلاً:

- **أنا مازر وهذا قسورة الذي يقف إلى جانبي وطيكل ومحرز هما من يقفان خلفك وبرقان وشمهورش عن يمينك واللذان يقفان عن يسارك هما ميمون وابانوخ..**

تلفظ بهذا الحديث بلا ابتسامة أو ضحكة بلا ملامح لأنني تهتُ بتفاصيل وجهه المبعثرة.

- **هذا العظم الذي تريدونه..**

دافعاً عظم الهدهد القديم ذا اللون الأصفر إلى مازر وقدماي ترتجفان.

مد يدهُ نحوي وانشغلتُ بتفاصيل أصابعه القصيرة كيف سيمسك العظم بهم، لكنه فاجَأني بحركة غريبة جعلت العظم يستقر بين أصابعه.

- **شكراً لك لأنك حررتنا من سجننا في مدينة بابل في بئر هاروت وماروت وأنجيتنا من لعنة معبد ننماخ..**

أجابني شاكراً لي بلا ملامح باديةً على وجهه، ودفع قصاصة صغيرة تحمل عطراً ما شممتهُ بحياتي..

- **خذها واحتفظ بها، فبها أسم المدينة الأعظم..**

بيَّن مازر ذلك وهو يمد يدهُ نحوي واضعاً القصاصة بين أنامله القصيرة.

وما أن أصبحتْ القصاصة في يدي حتى تنفستُ الصعداء، (.........) اسم المدينة الأعظم، اسمٌ غريب، هذا ما جنيته بصبري وبفضل العم عباس شاه، كنت غارقاً بالاسم أنظر له، أشعر بالزهو والفرح، بفرحة غامرة تجمعني مع من أحب وأهوى، اسمٌ مكونٌ من ثمانية حروف، رفعتُ رأسي مخاطباً مازر، لكني ما رأيتُ أي شخص من هؤلاء، حتى المدينة المذهبة والمرمر الأخضر والرخام الأبيض وكأني دخلتُ مدينة جوخا للتو، نظرتُ مرة أخرى للقصاصة شممتُ العطر، هو العطر نفسه الذي كان به قبل قليل، والاسم نفسه المكتوب به أيضاً قبل قليل، لملمتُ حاجياتي كلها بالكيس الذي أتيتُ به وخرجتُ من تل جوخا متوجهاً نحو الغرب لمعرفة ما تريد مني شيماء حين بعثت مرسالها

الأصغر كرار نحوي.

أثناء عودتي تساءلت محدثاً نفسي، هل ما رأيته مجرد خيال، أو حلماً قد يكون سراباً خادعاً؟ وهل كانت رؤية صوفية زرعها العم عباس في عقلي المتعب؟ آه يا للعاطفة الجياشة التي أدخلتْ كل هذا الجنون إلى ثنايا قلبي العاشق الولهان؟..

وفي الطريق كررتُ سؤالي نفسه، هل كان حلماً ذاك الذي رأيتهُ في مدينة جوخا؟! ربما هي الحقيقة الغائبة عن أذهاننا جميعاً؟! وهي سبب ابتلاءاتنا؟ وهمستُ لنفسي كي أؤكد حقيقة طيفي وأنا أتمسكُ بأغراضي بكل قوة، وبإصرار غريب كمن لا يريد ولا يرغب بفقدان حقيقته التي تشعُ كالشمس! من يدري؟ لعلها فلسفة منطقها غريب، ومضامينها عجيبة، أدركتها متأخراً.

(49)

كانتْ شيماء تنتظر قدومي والوقت يقترب من انتصاف النهار، كنتُ فرحاً بإنجاز مهمتي لأنني سأسافر غداً، ومن بعيد رأيتها ترقب الطريق القادم من جهة التلة، كانتْ عينانا تقتربان من بعض، أنا كنتُ أرى بعينيها عيون ماريا وهي كانتْ تنظر لعينيّ بنظرة حبّ تسربت لها منذ أول وهلة.

- **السلام عليكم..**

ألقيت التحية عليها وهي تقترب مني..

- **وعليكم السلام..**

أجابتني وهي ترسم على وجهها ملامح اللهفة.

- **بعثتُ كرار خلفك لتأتي إلى هنا بعد أن تنجز عملك ومشروعك الكتابي داخل المدينة، لكنه عاد يهذي متصوراً انه يرى الكنوز المدفونة داخل الأرض، عاد يصرخ حالفاً بأغلظ الأيمان انه رأى ذهباً ومجوهرات...**

قالتها وهي تقهقهُ بضحكةٍ ملائكيةٍ أشبه بالابتسامةِ التي تزرعها ماريا على وجهها، لتردف:

- **ركبه (طنطل)..**

بينتها وهي لم تصدق بأن كرار رأى كل شَيْء، وضحكنا سوياً.

- **لا أعلم ما تسلل إلى قلبي مُذ رأيتكَ أول مرة..**

همستْ شيماء برفق لي وهي تُثبتُ طرف حجابها بدبوسٍ حديدي صغير، وأردفتْ:

- **لا أدري لكني رأيتكَ فارس أحلامي الذي سينتشلني من هذه الأرض ليرحل بي إلى مكان بعيد..**
- **احذري من عشقي، فأنا تنتظرني امرأة أخرى غيركِ..**

أوضحتُ لها محاولاً غلق الطريق بوجهها لئلا يذهب عقلها بعيداً، وأردفتُ محاولاً الهرب منها لئلا تتعلق حبائل قلبها بي.

- **عليّ الذهاب فرزاق ينتظرني الآن..**

كانتْ تنظرُ خلفي نظرة استياء ملؤها الألم، فكلما كنتُ أبتعدُ عنها أرى عينيها تتسمران باتجاهي، لا تكاد أن ترفع مدى بصرها وأنا أسيرُ مبتعداً عنها، شعرتُ بالمأساة التي ستعيشها هذه الفتاة الجنوبية الجميلة من بعدي كيف ستقضي وقتها من دوني؟ أيّ حب هذا الذي يدخل القلب بسرعة الضوء؟ هو الحبّ نفسه الذي غزاني أول مرة حين شاهدت صورة عابرة لماريا، كنتُ أعد خطواتي شاعراً بالأسى على هذه الفتاة الصغيرة، وما أن وصلتُ حتى استقبلني قائلاً:

- **الحمد لله على سلامتك، لقد رأينا زوبعة ترابية تخرج من تل جوخا وخفنا عليك منها..**
- **لا تخف فقد كانت بعيدةً عني..**

أكدتُ له ذلك وأغراضي تكبلُ يدي.

- **هيا تفضل وارتَحْ لأجلب لك الغداء..**

قالها وهو يفرش سفرةً أرضية يضع عليها أطباق الطعام.

على مائدة الأكل أكلتُ بشراهة كبيرة، كنتُ مرتاحاً جداً ومشتاقاً لرؤية بغداد والكاظمية وسوق الشورجة وأمي وأم فاضل والعم عباس شاه وكل أحبتي هناك، يا ربي! كم جميلة هذه المدينة التي لا ينفكّ السراق عن سرقة جدائلها واقتصاص ضفائرها الأنيقة، وبعد وجبة دسمة.

- **غداً سأعودُ إلى بغداد في الصباح الباكر..**

أخبرتهُ وأنا أمسك بيدي كوباً من الشاي الأحمر.

- **والله لقد اعتدنا عليك وكأنك جزء منا وبتنا لا نستطيعُ فراقك، لِمَ لا تبقى أياماً أخرى هنا..**

طلب مني وهو يُعيدُ سيكارته مرة أخرى إلى فمه محاولاً الغوص بنفسٍ عميقٍ منها.

- **جلستُ هنا بما فيه الكفاية ربما بعد فترة أمرُّ عليكم..**

قلتها له وأنا أشعر بالمحبة لحسن الكرم والضيافة الذي لقيته منهم.

في المساء اعتمر مكانه برجال المنطقة، فكانوا ينثرون عبق الحكايا الواحد تلو الآخر، لم تكن شيماء تعلم بقصة رحيلي صباحاً، وما أن أقدم الصباح يحمل هواءه البارد، حتى استعد رزاق محاولاً تشغيل سيارته القديمة، كنتُ أحمل أغراضي وأقف بالقرب منها منتظراً أن تعمل على أتم وجه لتوصلني إلى الگراج العام الذاهب لبغداد، لم أكن أعلم أن شيماء هي الأخرى كانت تقفُ خلف جدار طيني هرم تلصقُ جسدها به ناظرةً إليَّ بين الفينة والفينة، كان منظراً مؤلماً جداً وأنا أراها ترفرفُ كطير مذبوح، تارة تمدُّ رأسها وأخرى تخفيه لئلا يراها أهلها وهي تذرفُ دمعاً من عينيها البريئتين، رمقتها وأنا أستقل السيارة الخاوية، وكانت تبادلني الدموع بينما شعرتُ بحزنٍ عميق لما ستجنيه هذه الفتاة من بعدي بلوعة الحرمان وانكسار الأمل، لكنها مع مرور الوقت ستنسى حبها المفقود وهروب فارس أحلامها الذي دخل قلبها على حين غرة، كان يقود مركبته متوجها للگراج وسط جوٍ هادئٍ جداً وهو يشعل سيكارة خلف الأخرى مستمداً من نار الأولى، ناراً يشعلُ من خلالها الثانية، ربما استنفد علبة أو ثانية وهو ينفخ دخانه طوال الطريق، كانت المركبات تصطف بانتظام في گراج صغير، ودعتهُ متوجهاً صوب بغداد في طريقٍ معبد يختلف عن الطريق الذي جاءت به سيارته التويوتا، واجتازت المركبة تودع المناطق منطقة تلو أخرى.. قلعة سكر، الفجر، الحي، الكوت، حتى وصولها إلى قلب العاصمة بغداد.

(50)

لم أكن أعلم أن الابتعاد عن بغداد يخلق في قلبي اشتياقاً ولوعة كبيرة، فعلى الرغم من الألم والمرارة التي تجتاحانها، لكنها تبقى بغداد الحبّ والعطاء والأمل، في الكاظمية أتنفسُ هواء الاشتياق فأمرُّ بطريقي محصياً خطواتِ أقدامي من ساحة العروبة مروراً بشارع المفيد حتى زقاقنا الضيق، ثم أم فاضل ثم أمي التي كانت تشمني وهي تعانقني، وتبكي على ابنها الصغير الذي فارقها منذ أيام، كنتُ أشعر بالتعب من بُعدِ الطريق، وما أن تمددتُ بشكلٍ مستقيم على فراشي، حتى كانت دموعُ شيماء لا تفارقني وكأني أنا من تسبب بجرحها واقترف الذنب بحقها، وسرقني النوم لاشعورياً ونمتُ بلا وعي غافياً محلقاً في فضاء الحلم فكانت ماريا لا تنفكُّ عن مراودتي وإقحامها مخيلتي بجمالها الأخاذ، ساعات نومي كانت تتقلصُ بتقدم الوقت واتجاهِهِ نحو المساء، وما إن صحوتُ حتى ذهبتُ أتفحص حاسوبي الشخصي باحثاً عن رسائل معلقة ادخرتها لي ماريا منذ زمن حين عادت من السويد..

- **هل تعلم؟ إني أراك أمامي فعلاً**

نتبادل الشراب

لك كأسٌ ولي كأس

كاشفة عن صليب يحتضنهُ نهدي

كلما تشتهيه أغرس مخالبكَ به

لينفجر ويتقد الكون بالضياء

لقد أرهقني الصّد وكسرني الزمن

تراني أرسم ابتسامة فوق تلال مبسمي

ماذا ستفعل لو اقتربت؟

ما الذي يضمره قلبك نحوي..

ليتني أستطيعُ الوصول إليكَ..

باحثةً عن وجهكَ المتورد، كالبدر في تمامه..

متى تعود مواقيتنا لسابق عهدها، أشتاق البقاء معك حتى الصباح..

أعرف أن لك عينين كالأطفال لا تستطيع السهر بهما، لكنك تُقاتل من أجلي، تصارع للاحتفاظ بعينيك متفتحتين طوال الليل.

سأغفو وأنا أحدثك، من يحملني بين ذراعيه واضعاً إياي على سريري؟ من يغطيني؟

وحين لا تجدُ غطاءً.. كن لي الغطاء الذي يحويني، فأنا أملكُ إحساس أنثى مذهلة

هل تدرك أن بعضهم يحاول إشغالي ومضايقتي عمن أحب وأهوى

ليتك الآن تجاريني بالحديث لتسألني.. من أحب وأهوى؟

ومن غيرك أيها الحبيب ألوذُ بصمته

فأنا الآن أطير بجناحين نحوكَ

هل تشعر بالسعادة معي؟

لم لا تُجِبْ، لا تسكتْ، صمتكَ يقتلني!!

دعني أتلمس حرارة اللقاء

فهنا العناق يحلو

اشبكْ أصابعك بأصابعي

هيا.. اقترب مني

راقصني على وجه الماء، راقصني وانتشِ

سندور كلانا.. نراقص بعضنا البعض

وحينما أشعر بالماء ينسكب من شفتيكَ؛ سأغترف منه غرفة لأرتوي

مد يدكَ واستقبلني

سأخلع حذائي وأكون كالطفلة، أدوس فوق قدميك لتعلمني خطواتك

بل سأدوس على قلبكَ وأسمع نبضاته

لتعلمني أبجدية الحب التي لا تنتهي

ورحتُ أستنشق عبير حرفها المُغْدق بالاشتياق واللوعة، كانت تنتظرني خلف زجاج حاسوبها الشخصي، علمتُ بهذا بعد أن بعثتُ عبارات حبٍّ لها، أبادلها الاشتياق نفسه، وردتْ على الفورِ قائلةً:

- **أسعد يا حبيبي، أين كنتْ؟..**

ولم أفصح لها عن أي شيء وقلتُ في نفسي لن أعرض عليها اسم المدينة الأعظم إلا بعد أن أسرد للعم عباس كل شيء، وبقينا حتى الصباح كالبلابل نناغي بعضنا البعض.

في الصباح الذي يليه كنتُ متلهفاً للسوق ومتشوقاً للوصول إليه كي أقص للعم عباس شاه ما حصل معي من مغامرات وعجائب، وحين أفصحتُ له عما جرى، سألني:

- **بشرني هل انتهى كل شيء؟!!..** قالها بشوقٍ ولهفة لمعرفة ذلك
- **نعم.** أجبتهُ مؤكداً حديثي:
- **وأنا الآن أحمل القصاصة في جيبي بها اسم المدينة الأعظم، لكني لم أخبر ماريا البارحة إلا بعد أن أطلعك على التفاصيل..**

وهو يصغي لي بكل شغف عما جرى لي من أحداث!!

- **لا تبلغني به.. أصبح اسم المدينة الأعظم الآن بين يديك، احتفظا به لكما لا تبلغا أي شخص عن ذلك وقل لها هي الأخرى لا تفصح به وإلا سينتهي كلّ شيء..**

تحدث مبتسماً فرحاً بإنجازي، وواصل حديثهُ:

- **نعم. كم يدفعني الفضول لمعرفة هذا الاسم الذي تصعد به الأبطال للمدن الأخرى من هذا العالم، لكنك تستحق يا بني فهذا جزءٌ من صبرك وتعبك، استمتع بمن تحب في إيسكولاس، بمجرد أن تذكر هذا الاسم ستجدُ نفسكَ هناك، وهي الأخرى بمجرد ذكرها له ستجد نفسها أيضاً هناك، هناك استمتعا ببعض.**

بينها لي بكل وضوح.

(51)

في المساءِ فاتحتُ ماريا بكل شيء، كانت تضحكُ من قلبها ساخرةً مني، شعرتُ بالغضب بعض الشيء لكني كنتُ على يقين بأنها ستكون بين يدي بغضون دقائق من ترتيلها اسم المدينة الأعظم بين شفتيها، وبعثتُ لها الاسم برسالة قائلاً لها:

- **لنتفق أن نقوله سوياً ونرى من الصادق والكاذب أنا أم أنتِ..**
- **اسمٌ غريب وأحرف أجدها مبعثرة لا علاقة لها بالمفردة العربية، يا لغرابتها، وهل هذه الأحرف الفوضوية كفيلة بأن تجعلنا نلتقي بمدينة أنا وأنتْ..**

استغربتْ ماريا وهي تحاول ترتيب قلادتها التي تحمل صليباً مذهَّباً في رقبتها نازلاً حتى بداية نهدها.

- **لنجرب.. ماذا سنخسر؟ سنعدُ حتى الثلاثة ونلفظ الاسم سوياً..** خاطبتها.

وبتنا نعد سوياً واحد، اثنان، ثلاثة ولفظناه معاً، وما شعرنا إلا أننا بعالمٍ غريب ومدينة لا أستطيع وصفها كُتِبَ على بوابتها (إيسكولاس) ادخلوها بسلامٍ آمنين، جزءٌ من جمَّال الطبيعة يزين كل شيءٍ فيها، لا أدري في أي ركن من هذا العالم تقع مدينتي؟ كانت ماريا بالقرب مني وذُهلتُ وأنا أراها على غير عادتها لكني رأيتها قطعة من جمال وهي تحدقُ بي تحاول أن تتحسس جبهتي، وأنا أنشغل بنعومة أناملها تمرُ على جبيني.

- **هل هذا حقيقة..**

قلتها لماريا وهي تلامس جبهتي وتمرُ على شفاهي راسمةً بأناملها شفاهاً تشبه شفاهي تماماً.

- **بل أريد أن أسألك أنا، هل هذا الذي نعيشهُ ونراه حقيقة..**

بتعجبٍ أفصحتْ ماريا عن ذلك وأنا أتفحص وجهها وشفتيها ماراً بيدي على نحرها ثم عنقها حتى ألاعبَ الصليب الذي يختبئ خجلاً بين نهديها.. وأكرر مذهولاً:

- **هل لقاؤنا حقيقة..**

لم نصدق ما رأيناه، وغرقنا ننظر لبعضٍ بصمت متعجبين، حاولتُ أن أصف. لكني لم أجد وصفاً لما رأيته، كل شيء يصدمني ويصيبني بالذهول، وحين بدأتُ أمعنُ النظر جيداً بماريا أذهلني كل ما رأيتهُ، كانت تملك شيئاً دائرياً من ياقوت وفوقهما كرزتين على شكل لؤلؤتين، وجسداً يبرق كالرخام الأبيض، وشعراً ناعماً من خيوط الذهب وأسناناً من فضة، وأظفاراً من الزمرد، وعلى سرتها ياقوتة حمراء، وعينان تلمعان كزجاج موشور يتلون بألوان قوس قزح، يتغيران وفقاً للانعكاسات الضوئية المنبعثة من مدينة إيسكولاس، وفوق كل هذا تلةٌ من ماس تقعُ في جزئها الأسفل من جسدها الممشوق المغطى بسندس أخضر شفاف، ثمة شقٌ صغير يشعُ نوراً يضيء التلة الماسية، تتراقص الأضواء فوقها، أشعة النور لا تمكنني من رؤية كل شيء بحرية تامة، يا لهذه اللوحة التي أتقن الخالقُ رسمها، كانت هي الأخرى تحملق بي، وكانت تراني كما كنتُ أراها بتفاصيل ماسية تبرقُ وتلمع وكل شيءٍ فيها يختلف عما كان في الدنيا، لم تكنُ لنا أجنحة نطيرُ بها لكنا كنا نتنقل بلا تعب كالطائرة تفردُ يديها لا ترفرف أو تصفق بهما، هكذا كنا نطير بواسطة أيادينا نفردها ونحلق من مكان لآخر.

- **أسعد، علينا العودة إلى منازلنا لئلا يفتقدنا أهلنا فاللقاءات الجميلة حتماً ستتكرر، وستكون هذه المدينة هي مأوانا الذي نلجَأ إليه في كل ليلة بلا حواسيب ولا تعب ولا كتابة أو**

استخدام الكام..

بينت ماريا ذلك وهي تضعُ يدها على كتفي لتبدد صورة التصقت بمخيلتي من وحي الخيال والغرابة وأنا أراها كقطعةٍ من مجوهرات وأحجار كريمة تلتمع بنظري، لست أدري كيف تشكلتْ هذه الصورة بمخيلتي والتصقت بها كوشمٍ عالقٍ بجمجمتي، ربما الأحجار الملونة ولمعان الذهب والفضة هما من جعلاني أراها بهذه الهيئة.

- **نعم سنعود، هيا لنقرأ سوياً اسم المدينة الأعظم، وبتنا نعدُ للثلاثة..**

قلتها لها بعد أن فززتُ منتبهاً ليدها التي حطت على كتفي كفراشة بيضاء.

وما أن تلفظنا الاسم حتى وجدنا أنفسنا نجلس على حواسيبنا وكأننا ما زلنا ننظر لبعض من خلف شاشاتها.

- **ماريا دعينا ننظر لوقت آخر عبارة أرسلناها لبعض..**

محاولاً التعرف على الوقت المستغرق في المدينة.

وكان الوقتُ بيني وبينها المُؤَشَرُ بآخر رسالة مرسلة على حواسيبنا؛ نفس الوقت بالتحديد، أربع ساعاتٍ وعشر دقائق كنا فيها مع بعض، وبعثتُ رسالة عبر حاسوبي..

- **هل صدقتِ هذا أم ما زال الكذب والشك يملأ رأسكِ الجميل..**
- **لا بل لا أشك بكل هذا لكنه شبه معجزة..**

أجابتني وهي ترفع يدها عبر كاميرتها، ثم أردفتْ:

- **انظر لهذه الأصابع ما زالت تؤلمني من ضغطك عليها وأنت غير مصدق بكل ما رأيته هناك في إيسكولاس.**

(52)

عند انبلاج الفجر وفي صبيحة اليوم الجديد كان العم عباس شاه متشوقاً لمعرفة ما دار بيننا، ربما هكذا ظننتُ لعله يدري بما حدث، ويعرف سير الحكاية، ربما يريدُ امتحاني واختبار مدى إيماني وتصديقي لما جرى!!

نعم إنّه يحاول معرفة ما جرى وما حدث بيننا ونحن نحلق معاً صوب مدينة ايسكولاس أنا وماريا، بادرني بالقول:

- **كنتُ انتظرك منذ ليلة البارحة حتى الآن..**

تلفظ بذلك وهو يراني مقترباً نحوه، وأردف:

- **نحن نعرف الطرق كلّها لكني أحب أن أسمع منك ما رأيته داخل المدينة..**

وبتُّ أسرد له كل ما دار بيننا، كل الذي رأيته وشاهدته داخلها من مناظر تبهر الناظر، كل شيء فيها أشبه بواحة واسعة شاسعة خضراء زاهية كأنها الجنة بعينها، بل هي من دون شك، فكل بقعة تلتقي بها بمن تحب فبالتأكيد هي جنة لأنها مهدت للقاء الأحباب، ثم قلتُ:

- **ما كنتُ سعيداً قط قدر سعادتي ليلة البارحة، فسعادتي لا توصف وهي بين يدي أتحسس جسمها بأناملي وجهها، شفتيها، زنديها، حتى الصليب الذي أشبهُ برقاص ساعة كان يثيرني جداً وأنا أراه يتأرجح بين جبلين أبيضين، وتنهدتُ بحسرة شوق وتأوه عاشق يتذكر اللذة الغائبة ويستعيد نشوتها..**

خرجت الحروف من قلبي وهو ينصتُ لي بكل جوارحه.

كان ساجدٌ ممن انضم مؤخراً للعمل في السوق، يصيحُ بصوته منادياً إياي لتفريغ حمولة شاحنة محملة بأنواع السجاد الإيراني القادم من مدينة تبريز، وانشغلت ذاك اليوم بالعمل متنقلاً ما بين الشاحنات، ما انتبهتُ للوقت إلا بعد عودتي ووجدت دكان العم عباس مغلقاً، كان همي الشاغل الذي يشغل فكري وبالي هو قضاء ليلةٍ جديدة مع ماريا، وجاء المساء وحان وقت اللقاء الموعود في المدينة كما يرسمه المتصوفة بخيالاتهم الخصبة، وأحلام الزهاد، وعرفان أهل الدراية، والتقينا في المدينة، هي ما زالت تكرر النظر وتعيد اللمس وتتحسَّسني لتصدقَ بأن ما رأته البارحة لم يكن حلماً أو طيفاً عابراً مرَّ بالمنام، واقتربت مني تمسك يدي..

- **تثبتي أخاف أن تقعي، سأمسككِ، اجلسي على صدري، وضعي يدك على قلبي وتحسسي ماذا يقول؟!.. اجلسي حافية القدمين، بل حافية من كل شيء، دعيني أتحسسْ حرارة جلوسكِ على صدري..**

كنتُ أقولها وأنا أنظر إليها بشوقٍ ولهفة، كانتْ أناملُ شوقي تلتفُّ حول خاصرة بوحها، كنتُ أخطو لأتسلق قمم المسافات الشاهقة ما بين نحرها وصدرها.. كلما لثمتُ وجنتيها أحرقني لهيب شفتيها فأخرُ صريعاً مضرجاً بين يديها، ثم أردفتُ قائلاً:

- **لدي شعور غريب يساورني الليلة، حين أرقص أشعر بأشياءَ تنساب مني من غير أن أعلم بها..**

قلتها لها وهي تتمدد على حافة خضراء شديدة الخضرة تعلو جرف ماء جارٍ..

- **أشياء؟!.**

بتعجب قالتها وهي ترفعُ إحدى ساقيها فوق الأخرى لتكشف عن بياضهما الناصع.

- **نعم.. أشياءَ..** أجبتُ مبتسماً.
- **مثل ماذا مثلاً؟..**

سألتني بعد أن حركت كتلتها اللحمية الناصعة البياض من فوق خضرة الأرض، وأجبتها:

- **عطرٌ يخرجُ من جسمي وقبلةٌ تهرب من شفتي إلى شفتكِ، لن تعودي بسلام فأنتِ محاصرة، يداي تطوقانكِ سأتسلَّلُ لأعبر الحدود الجغرافية، لأهمس في أذن المسافاتِ أحرف اسمكِ، لكن لن أعود مخذولاً مهزوماً.. منكس الرأس، سأعود منتصراً رافعاً رايتي.**
- **أبعد عيونك عني..** طلبت ذلك مني وهي تغمز لي وتراني أنظر لها بعينين وقحتين صلفتين.
- **لا لن أبعدهما، فعيوني تلتهمُ كل شيءٍ فيكِ، ويداي تعصرانكِ بشدة..** قلتها لها ممسكاً يدها.
- **أنت تؤلمني..** همستْ بأذني محاولةً إثارتي
- **أشعر بقوة تجعلني أتمسكُ فيكِ، تمتعي بالألم، هيا اصرخي.. فلصراخك نغمة موسيقية تثيرني جداً**
- **أخافُ الموتَ اختناقاً وأنتَ تطوقني.**

- **سأمنحكِ الهواء من فمي.. لا تخافي.**
- **لا تفعل هذا..** قالتها وهي تلاعب شعرها.
- **لا تخافي لن تموتي، اصرخي تحت ذراعي، سأمنحك الروح من فمي، استقبليني، استسلمي، هيا تمددي، وسأفك ذراعيّ اللتين تطوقانك وإلا سأستمر بمحاصرتكِ.**
- **اِنحنِ لأطبعَ أولى قبلاتي على شفتيكَ، أدلو بحممِ شفاه البوح على قميصكَ الأبيض، أشعل فتيل الشوق لتتسلل وتعبر مفاتيح إبداعكَ.**
- **آاااه يا لهذا اللقاء، لن أترككِ إذن، سأخنقك.**
- **لن تفعل.**
- **بل سأفعل.**
- **تخنقني؟..** سألتْ وهي تتحسسُ حرارة يدي.
- **حرارتكِ تقتلني، إني أصبحتُ عبثياً، عشوائياً، إنَّكِ تقتلينني.**
- **إني أغرق..** أومأت لي وهي تمددُ قدميها بالماء
- **هيا امنحيني قبلة الحياة، أريد ارتشاف رضابك على مهل، ستخرج روحي من فمي، أنا الآن من يستسلم لك، ها أنا الآن أتمدّد، أنا رهينتك، فافعلي ما يحلو لك.**
- **سأتلو عليك تعويذة الحنين لتعود عن ضلالك، تستغفر لحظات كنتَ فيها من الآثمين، ستندم على كل حرف كتبتهُ قبلي.**
- **نعم يا سيدتي.. ومن يغفر للمهووسين، للآثمين، للمذنبين، للعاشقين، أنا الآن رهن إشارتكِ، ربما سأفعل ما يفعله المجانين، سأمزق كل ثيابي.**
- **يا لك من مجنون!**
- **نعم. جننتُ على يديكِ.**
- **بل عبثاً تحاول إخفاء جنونكَ.**
- **نعم. إني أخفي جنوني بقلبي، فلدي جنون غريب.**
- **لكني عرفتُ أنك قادر على رسم صورة مختلفة عن الجنون.**

وتواصلتْ بحديثها مستغربة من ذلك بل كما وصفته جنوناً لذيذاً من نوع آخر، وهي تغرقني وتمطرني بأجوائها الرومانسية العجيبة، بحياتي ما رأيت امرأة مثلها، فبها خصلة غريبة حين تتفوه أبقى صامتاً أمام فمها أنظر لشفتيها وهما يرتلان أطراف الحديث، تبتسم بوجهي ابتسامة شفافة بلون الزهر وهي تقول: (شبيگ تباوع على حلگي.. مشايف!!).. وأرددُ خلفها مباشرةً: (ماتگليلي وين شايف).. ثم تردفُ قائلةً:

- **أسعد.. لم أكن بهذا الجنون من ذي قبل.**

وبتُّ أغني أغنيتي (تلك التي على أعتاب شفتيها يسجد القلب، لذاك القابع خلف الضلوع)..

- **اهدأ وكف عن الرقص يا أسعد..**

ردَّدتها وهي تهزُّ مؤخرتها بدءاً للرقص.

- **ضعي يدكِ بيدي دعينا نرقص سوياً.**

- **سأضعُ قبلة على الخافقِ بين الضلوع، وحين يطير سأجعل قلبي معه يطير، سأذهبُ للاختباءِ منكِ.**

- **سأذهب للطبيب لأعرف ما سبب الارتجاف، هل أنا جبانٌ لهذا الحد؟ لدرجة تخيفني امرأة، ما عهدت نفسي هكذا من ذي قبل، شدي وثاقي.**

- **لكني لست سوى وهم سيتبدد مع خيوط الفجر الأولى.**

- **كلا لستِ وهماً وأنتِ الآن بين يدي، وباستطاعتي أن أفعل ما لم يفعله أي إنسان بك هههههه..**

وأردفتُ:

- **أريدُ قليلاً من عطركِ لأحتضنه وأنام، لكني أريد العطر الحقيقي، لا المزيف منه، اقتربي مني، ها أنا الآن أمد يدي لكِ.**

- **إلى أين؟**

- **إلي أيّ مكان تحبينه من هذه المدينة المضاءة بالجمال والخضرة والماء والهدوء، لا غرفة نصف مضاءة، لا شموع، كل شيء هنا لنا وحدنا لا ثالث معنا.**

- **تعالَ معي..**

أمرتني وهي تنتصب واقفة بطولها الممشوق.

- **إلى أين؟..**

أوقفتها وأنا أتشبثُ بطرف ثوبها الأبيض الشفاف.

- **سنذهب نحو الجبل، لنراقب النجوم عن قرب، وحين تغفو النجوم وتنام سأغني لك أغنية، فأيّ الأغاني تحبها؟.**

- **أحب فيروز، وصوتها.**

- **(سألوني الناس عنك يا حبيبي..) هل تحب هذه؟!.**

- **نعم أحبها حباً جما، بل أعشقها لدرجة الذوبان.**

وأردفتُ قائلاً لها:

- **هل تعلمين يا ماريا بأني لن استبدلك بكنوز الدنيا كلّها..**

ثم قلتُ لها:

- **سنمشي بهذا الطريق ونمضي..**

وأشرت لها بإصبعي نحو طريق مستقيم تحفّه الأشجار والأزهار عن اليمين والشمال، طريق أقرب للخيال من الحقيقة، لا يوصف أبداً، نسير به كلانا متنقلين وسط المدينة.

- **كفّ عن النظر لي!! فأنتَ تشتتُ انتباهي عن الإثارة وأنا أحلّق كفراشة هنا في ايسكولاس.**

- **لا أستطيع أن أكفّ ناظريّ عن التلذّذ بالنظر إليك، هل تعلمين إن يدي الآن تقترب من شيء فيك؟**

- **ما هو؟..**

سألتْ مستغفلة.

- **الآن يدي تتلمسهُ بالقرب منه، ألا تشعرين بالحرارة، فيدي تمتد إلى ف خ ذ ك، أراني أسكر حدّ الثمالة، أشعر أنك كالنبيذ الأحمر يتسلل إلى جوفي، لا تخافي من يدي لا تهتمي لها، اتركيها تعبث بكل شيء.**
- **كفى سأرحل الآن وأترككَ.**
- **كلا لا ترحلي سأكفّ عن العبث.**

يا لها من أنثى غريبة دوماً ما تحاول أنْ تستفزني بعباراتها المثيرة والجميلة، لأول مرة في تاريخ حياتي أخرج عن المألوف وأتجاسر على فخذ أنثى راغباً بلمسه، متقرباً ومتودداً لها، ثم قالتْ:

- **ما دمتَ هكذا لن أذهب، تعال نجلس هنا بالقرب من شلال الماء..**

وأشارت بيدها إلى شلالٍ يكدس الماء ببركةٍ خضراء تحفها صخور من ياقوت وزمرد، يتصاعدُ من البركة دخان أبيض خفيف، للشلالِ صوت ليس كهدير الماء بل أشبه بسمفونية موسيقية هادئة تضفي على الجو راحة وطمأنينة، ثم قلتُ معانداً لها:

- **لا بل سنجلس تحت تلك الشجرة.**
- **أنا رهن إشارتك يا حبيبي، لكن شلال الماء يختزل جمال العالم بقطراته المتساقطة، هل ننزل أسفل هذا الشلال نلاعب الماء بأقدامنا.. سنراقب المياه التي تنحدر من أعلى القمم لتستقر تحت أقدامنا.**
- **نعم سنفعل.**
- **إذن مدي قدميكِ، واتركي بياضهما يتغلغل إلى خيالي وفكري وروحي.**
- **اخلع حذاءك الآن.**
- **نعم إني اخلع، وأنتِ اخلعي.**
- **فعلتُ ذلك.**
- **سأرفع بنطالي، ارفعي ثوبكِ أنتِ.**
- **عدني أولاً أن لا ترمي الماء عليّ.**
- **سنلاعب الماء بقدمينا فقط لا تخافي أعدكِ بذلك.**
- **لا أحب ابتلال ملابسي..**

همستْ بغنجٍ وهي تلوك الحروف بدلال رافعةً ثوبها فوق ركبتيها بخمسة أصابع مجتمعة.

- **لكني سأفكر بأن أغرقكِ بهذه المياه العذبة التي تشبه زلال جسدكِ.**
- **سأمرض إن فعلتْ، عليك أن تكف عن العبث.**
- **لن تمرضي وإن مرضتِ سنمرضُ سوياً، هيا لاعبي الماء بقدميكِ.**
- **انظر هناك..**

قالتها محاولة إشغالي عن قدميها.

- **هل تعلمين أن قدميكِ ناعمتان.**

- **وكيف عرفت كل هذا؟.**
- **إني أتحسسهما تحت الماء.**
- **سبحان من خلق فأبدع..**

قالتها وهي ترفع ساقيها.

- **إني أشاكس من تحت الماء.. لا تضربيني.**
- **مجنون أنتَ، لكني أحب الجنون فيكَ، كف عن المشاكسة وإلا رفعتُ قدميّ من الماء، أو سأرحل وحدي.**

هل كان وضوءاً نغسل به أدران الدنيا وأوساخ العالم عن جسدينا كي ننغمر بضياء الخلاص قرب سماء يسوع أو ابن الله كما تحب ماريا تسميته وعند كونية محمد حبيب الله، لست أدري هل سيصدق الناس ما سأقوله أم سيقولون إني أهذي، هل أحياناً يكون الخيال قريباً من الواقع أم هذا شيءٌ من المحال، أنا أدركُ تماماً أن لا أحد سيصدق قولي سوى العم عباس شاه لأنني منذ البداية أنا نفسي لم أكن أصدقُ ما قاله إلا بعد أن وصلت لهذه المرحلة، هذه اللحظات التي أقضيها هي من أجمل لحظات حياتي، وأردفتُ قائلاً:

- **ستعودين لي حتماً، ستشعرين بوحشة الطريق تتلقفك، فلا أحد هنا سوانا في هذه المدينة الخضراء المشعة بالهدوء.**
- **ما الذي يؤكد لك كل هذا؟..**

سألتني وهي تزمُ شفتيها.

- **هذا عالمي الذي تعبتُ من أجل الوصول له، عالمي الذي رأيتهُ بعينيكِ من انبهارٍ واندهاش ولوعةٍ وغنج ودلع.**
- **أرغبُ باحتساءِ كوبٍ من الشاي أو النسكافيه في هذه الأجواء الجميلة الساحرة، هل ستبادلني الاحتساء؟.**
- **لكني أحب أن اشرب من نفس الكوب الذي تشربينه أنتِ، أريد من كوبٍ تطوّه شفاهكِ، اتركي لي عليه أحمر الشفاه.**
- **هل يستهويك ذلك؟..**

سألتْ وهي تدلك الشفة السفلي بالعليا وتعضُ عليهما بأسنانها.

- **دعيني أغمض عيني وأقترب من هذا اللون الأحمر المزروع على حافة الكوب، فأحمر الشفاه يقتلني.**
- **وماذا بعد؟..**

قالتها بمكرٍ محاولة استقطابي إلى أشياء كثر.

- **حين تلتصق شفاهي بمكان التصاق شفاهك أشعر بالذوبان والتيهان، فأنتِ مثيرة، مذهلة، جميلة.**
- **لكني مجرد امرأة، وكل النساء تتشابه بما تحمله من إثارة ومكامن للذة.**
- **ليست كل امرأة أنثى، لا تتشابه النساء أبداً، إني أتنفس عطرك الآن، أشمك شم عاشق ولهان.**

- **أضعُ عطراً من أرقى العطور الفرنسية (باريسين ايف سان لوران)..**

قالتها وهي ترفع ثوبها من جهة صدرها مقتربةً مني لأشمه.

- **لا أحب العطور المصطنعة، بل أحب عطركِ الذي يفوح من جسمكِ، فهو العطر الوحيد الذي يميزكِ من بين نساء الكوْن كلها.**
- **بل عطر الشوق ينبعث من نظراتي..**

تأوهت بها وهي تقلبُ عينيها

- **يا له من عطر جميل، يا لهذا الشوق القاتل..**

همستُ لها وأنا أسحب نفساً عميقاً محاولاً سحب عطر جسمها واستدراجهُ لأنفي.

- **هل تريد تفاحة؟ انظر لهذه الشجرة، كيف يتدلى منها التفاح..**

وأشارتْ إلى شجرةٍ يتدلى منها تفاح يلتمع كأضواءٍ منيرة أو كنجمةٍ مضيئةٍ في سماء مظلمة معتمة.

- **لكني أخشى أن نأكلها ونخسر ايسكولاس للأبد ونكون من الظالمين، لكن لا يهم بما أنّك تشتهين التفاح اقضميها الآن وأعطيني أقضم خلفك.**
- **لنفعل إذاً.**
- **لِمَ لا نعضها سوياً.**
- **هل نحاول؟!!.**
- **لكني أخشى أن تسول لي نفسي فأعض الشفتين.**
- **لا لا اترك التفاحة لا أريد الخروج من ها هنا..**

قالتها متظاهرةً غامزةً بعينها اليسرى لي.

- **إذاً اتركيني أنشغل بالعيون.**
- **عليك البقاء بعيدا لأبقى.**
- **هل تخشين مني؟**
- **أخشى مشاكساتك المجنونة.**
- **لكني لست وحشاً كاسراً بل رجل يملك العالم بأنامله ويضفي السحر على خصر أنثى.**
- **في حضوركَ تتبدل معالم السعادة، لكن الغياب متاهة لا يستهويني الضياع بين ممراتها.**
- **لن تضيعي أو تتوهي، ثقي بي وتشبثي بقميصي أو بخصري أو بأناملي، تشبثي بأيّ مكان تحبين التشبث به.**
- **راقصني الآن.**
- **مدي يدك.**
- **أسمِعني حين تراقصني كلمات ليست كالكلمات العادية.**
- **سأسمعكِ الشهد، هيا مدي يدك، ودعيني أراقصك.**
- **يرفعني من تحت ذراعي يزرعني في إحدى الغيمات، خذني هيا خذني..**

ترنمتْ بها محاولةَ الغناء

- **تعالي واقتربي سأضع يديَّ تحت إبطيك وأرفعكِ نحو السماء، أقذفك للأعلى لتسقطي كنجمة على صدري.**

- **هل تشعر بارتجاف أناملي..**

تأوهتْ مصطنعة الارتجاف بخبثٍ ولؤم.

- **نعم، أشعر بكل هذا..**

قلتها لها متصنعاً عدم معرفتي بمحاولتها المخادعة.

- **خائفةٌ حدّ الصمت، أشعر بالبرد، هل تسمع دقات قلبي، لستُ أدري من البرد أم الخوف!!**

- **لا تخافي، سأضمكِ إلى صدري ستشعرين بالحرارة الآن، لن تبردي، فحرارة قلبي المشتعلة بحبكِ ستكون موقداً يبثّ الدفء ليبدد البرد عنكِ، هيا تعالي واقتربي أريد الالتصاق بك حدَّ الجنون.**

ورحتُ أراقصها بخبلٍ كبير وبجنون عظيم، بحياتي ما رقصتُ قط، حتى إني كنتُ أضحك على الذين يرقصون وأصفهم بالعبثيين، لكني تأكدتُ أنَّ الروح إن طربت لهواها رقصت وغنت، وعشتُ معها لحظات جميلة، كانت تجيد الرقص بعذوبة ساحرة، تلفني بيديها كمغزلٍ بيد عجوز تبرمه بحرفية كبيرة ورحتُ أدور حول نفسي، إن استمريتُ على هذا المنوال سأكون راقصاً من الطراز الجيد، ثم أردفتْ:

- **ابتعد قليلا أريد أن أتنفس.**

- **لكني أريد أن أمنحك الدفء، ها هي أنفاسي بالقرب من أنفاسك، تنفسي، هيا، فما عصرتك على صدري إلا لأبدد البرد عنكِ.**

- **أريد العودة..**

قالتها متظاهرةً.

- **لا لن تعودي..**

أجبتها وأنا أتمسكُ بخصرها العذب.

- **لكن أنفاسكَ تحرقني، وثمة لهب يخرج من صدركَ يقتلني.**

- **لن أفلتكِ من بين أناملي.**

- **علينا العودة، كفى.**

- **إلى أين؟**

- **لمدينة ليون وأنت اذهب للكاظمية.**

- **بل دعينا نبقَ قليلاً سأسابقك نحو تلك الصخرة، هيا لنركض..**

أردتُ أن أبدد فكرة الذهاب والرحيل ومفارقتها، وبتنا نعد سوياً أنا وماريا واحد، اثنان.. وقلتُ أنا ثلاثة صارخاً هيا قبلها وركضتُ وصاحتْ خلفي هذا غش وخداع..

- **دعني أسبقك وإلا لن أصعد معك بعد اليوم..** قالتها مازحة.

- **أخشى أن أتشبث بثوبكِ عمداً بحجة الوقوع أو السهو من الخلف..**

قلتها مشاكساً لها وأردفتُ:

- **اتركيني أغلبك فأنا مشاكس عنيد.**
- **هل جننت هكذا من قبل؟.. قالتها مندهشة!**
- **كلا، لكني الآن بقمة جنوني، هل تعرفين أنّني أشعر الآن وكأني أحتسي خمرا، مثيرة أنتِ كالفراشة حين تطير، لن يطاوعني قلبي على غلبها.**

كان المشهد باذخاً يذكرني بأفلام الرومانسية القديمة، ذاك الذي جمعنا معاً، ونحن نسبح أو نطير سويةً ما بين النجمات في بحور السماوات، أو في ظلال سفوح الجبال المرمرية والتلال الزمردية، وغيوم السماء البنفسجية، ألوان زاهية براقة تدهش الرائي وتسرق البصر..، ثم قالتْ وهي تراني أسرح بعيداً عنها..

- **صِفني!!**
- **أخشى أن أصفكِ فتتهميني بالجنون.**
- **لا تفعل إذاً، لأنني أعلم بأنك في الوصف مجنون.**
- **أخشى أن أذهب بعيداً في الوصفِ فتهربي مني، لكني سأكتفي بعصرِ أناملكِ.**
- **احذر من أن تضغط عليها بقسوة، فضغط أصابعكَ يوجعني.**
- **لا شيء أفرغُ به قوتي غير أناملك فتحملي.**
- **لكن لا يستهويني العنف، فأنا رقيقة لأبعد حدّ.**
- **تحمليني قليلاً، فهناكَ أماكن تجعل الرجل أخف من القطن إن مرَّ عليها سيهدأ كل شيء، إني أتنفس هواءً سرمدياً كلَّما نظرتُ لوجهكِ، يا لهذا الترف على ركبتيك، إني أتحسَّس نعومتهما.**
- **اِحكِ لي حكاية مثيرة، أحب سماع الحكايات منك!! كحكايةِ حبٍ مثلاً أو حكاية السندريلا، هل مررت بحكاية حبٍ قبلي!!**

يا لها من فتاة!!.. لم أكن مخطئاً منذ البداية فحين رأيت وجهها صورة عابرة عبر هذا العالم الإلكتروني الأزرق، انساب شيءٌ ما لقلبي، صوتٌ كان يجلجلُ في داخلي، وحين رفَّ القلب لها، تيقنتُ أنها تملك سحراً حقيقياً يكمن في روحها.

(53)

وبتُ أسردُ لها قصة عشقٍ قديمة:

ربما هي حكاية حب أو نزوة شبابية في مرحلة وفترة المراهقة، لكني أتذكر هديل الناعمة الصغيرة وهي ترتدي تنورتها الرصاصية القصيرة وقميصها الأبيض لتكشف عن ساقين ناعمتين وصدرٍ صغير يبرز بهدوء ونتوءين كحبتي كرز ظاهرين بارزين أسفل قميصها وشعرها الملون بخصلاتٍ شقراء، بلا سابق إنذار أو محبة مخطط لها، كانت ترمقني كلما نلتقي بالطريق ذاته، هي عائدة من مدرستها وأنا ذاهب لمدرستي في المرحلة المتوسطة، لم أنتبه لذلك إلا حين استوقفني صديقي سامر

الذي كان يرافقني دوماً بطريقي للمدرسة حين بين لي وهو ينظر لوجهي:

- **هل تلاحظ ما ألاحظه أنا؟..**

كنتُ لا أعلم بما يريد قوله، وسألته عن سبب الملاحظة التي لاحظها هو من دوني..

- **الفتاة التي عبرتنا قبل قليل، في كل يوم حين نتقابل بالطريق ذاته ترمقك بنظرة حب من رأسك حتى قدميك..**

وأردف:

- **يا لك من محظوظ!، هي جميلة جداً.**

واستغربتُ من قوله لعدم ملاحظتي وانتباهي، وفي اليوم التالي كنتُ منتبهاً لها، لكنها لم تمر بالطريق نفسه بل على الأحرى لم نشاهدها، كنتُ لحوحاً جداً عليه وأنا أنبههُ في كل لحظة مستفسراً عنها، لكني كنتُ كلما أسأله يؤكد لي: بتُّ أشك بأنك محظوظ، وفي اليوم التالي كان سامر يمسك بيدي قائلاً:

- **انظر تلك الفتاة التي تسير كطائر حبٍ ملون..**

وأشار بيده نحو هديل.

كانتْ تسيرُ وعيناها تتسمران بي وأصابني الغرور وأنا أبادلها النظرات، نظرةً بنظرة، كان يلكزني بخاصرتي لكني لم أنتبه لكل حركاته الصبيانية، ومرَّ عامٌ واثنان وثلاثة، كان الحبُ يكبرُ معنا خطوة بخطوة وكبرنا كلانا وتغيرت ملامحها نحو الحلاوة والجمال، لكن للأسف مجتمعاتنا الشرقية تعدُ الحب شيئاً من المحرمات التي يعاقب عليها المجتمع، وما أن علم أهلها بحبي لها، حتى قام أخوها الأكبر سعد بإرغامها على ترك المدرسة وتزويجها من ابن عمها الذي يسكن كركوك، وتفارقنا هي شقت طريقها رغماً عنها بأحضان رجل جديد وأنا بتُ أبكي لشدة تعلقي بها، رحلتْ وما عدتُ أراها، كنتُ متيقناً بأنها هي الأخرى كانتْ تبكي لفراقي، وبعد ثلاثة أعوام أخرى، كبرتُ وتخرجتُ من المرحلة الإعدادية وفي باب الدروازة في الكاظمية، ثمة امرأة ارتسمَت على تفاصيل وجهها ملامح الإرهاق والتعب وطفل خلفها يتشبثُ بعباءتها ويبكي، كان راغباً بشراء قطع الحلوى التي يسيل لها لعاب الصغار، لم تكن تملك نقوداً بمحفظتها، لكنها كانتْ توهمه بأنها ستشتري له، كان الطفل يصرخُ ببراءة الأطفال المعهودة، كنتُ أنظر لوجه طفلها البائس وتجمعت برأسي كلّ رواية (البؤساء)، كانت بي رغبة للبكاء، ما كنتُ أعلم أنها هي الأخرى كانتْ تنظر لي، اقتربتْ هي وصغيرها نحوي وهو يولول ويبكي.

- **(أنت أسعد صح!!)..** سألت باندهاش.

وأجبتها على الفور مستغرباً من سؤالها..

- **(نعم أنا هو).**

ثم قالت:

- **الله يا أسعد والله زمان، غادرتنا أيام الحب وبتّ لا تعرفني..**

ولم تكن محطة حب في حياتي سواها، وأجبتها على الفور مندهشاً..

- **هل أنت هديل؟!!.**

- **نعم أنا هي..**

أجابتني بعد أن ترقرق الدمع بعينها، ثم فاضت مقلتاها، وبات شريان الدمع يحفر أخدوداً حاراً على

وجنتيها يرسم بجريانه خارطة الأسى والألم، كان صغيرها يجرها من أطراف عباءتها صوب الحلوى هي تبكي وهو الآخر يبكي، لكني كنتُ قوياً لدرجة أنّي حاولت حبس دموعي إلا أني ما استطعت وعلى الفور تدفقتْ من عيني.

- **آآآه يا هديل أين جمالك الساحر؟.**
- **ثلاثة أعوام من العذاب والقهر قضيتها معه يا أسعد..**

كانت تقولها وتبكي.

- **كفرٌ وإجرام أن يذوب جمالك بثلاثة أعوام وبهذه السرعة، هي المأساة بعينها يا هديل!!.**
- **لقد ظلمني أخي بتزويجي ابن عمي وإرغامي على ترك دراستي، كنتُ حبيسة بيتٍ يمتلئ بالقهر والألم والحزن، أيّ سنين تلك التي تمر بسرعة...**

كانت ماريا تتثاءب وهي تستمع لي وقاطعتني قائلة:

- **كف يا أسعد كفى لا أريد أن أستمع لقد كنت تخونني بحبكَ مع أخرى غيري..**

قالتها وهي تنتفض واقفة على قدميها.

- **لا لم أخنكِ قط.**

أجبتها بحدة، ثم بينتُ لها..

- **هذا قبل أعوام بعيدة، لقد تلاشت هديل من فكري ومخيلتي وانتهى كل شيء، وعاهدت نفسي على عدم الدخول لميدان الحب لما فيه من ألم وحنين يُذيب النفس والروح، لكني فقدتُ كل حواسي حين نظرتُ لك، وها أنا أسيركِ الآن.**

كانتْ ماريا تبتسمُ وهي تسمعُ مني هذا الحديث الذي شدها كثيراً وهي تراني أتحدثُ إليها متوسلاً بها كي تصفح عني لما مضى من سرٍّ كان في داخلي، ثم همستْ لي قائلة:

- **أريد النوم.. لقد أتعبني اللقاء.**
- **دعينا ننم هنا تحت ضوء القمر أو هناك تحت ظل تلك الشجرة، المهم أن أرى عيونك الناعسة وهي تغفو بين يديّ..**

قلتها وعيناي تنغرسان بتفاصيل جسدها كلّه.

قاطعتني قائلة:

- **لا.. يكفي هذا.. بل دعنا نعُدْ من حيث أتينا.**

وبناءً على رغبتها.. اتفقنا على لفظ اسم المدينة الأعظم لنعود مرة أخرى إلى عالمنا.. ولم أكن أتصور أننا استغرقنا خمس ساعات من غير أن نشعر بالوقت وكأنه لحظة أو أقل من لحظةٍ مرت وأنا بين يديها، شعرتُ بهذا حين وجدتُ نفسي بالقرب من حاسوبي وأنا أحصي الزمن منذ صعودنا لإيسكولاس وحتى عودتنا، لا زمان بها أو وقت يحدد تفاصيلها، لا ليل أو نهار، هي مدينة تختلف عن كل المدن، فقط دليلي لها هو اسم المدينة الأعظم الذي ما أن أتلفظ به حتى أجد نفسي بها، أو أعيد التلفظ به حتى أجد نفسي مرة أخرى بين يدي حاسوبي.

(54)

بعد وصولي لمدينة إيسكولاس بات العم عباس لا يسألني عن مشاهداتي وقضاء أوقاتي مع ماريا لأنهُ تعرفَ على كل شيء منذ اليوم الأول لدخولي إلى المدينة، مر عامٌ بالكامل كنا فيه أنا وهي لا يستطيبُ لنا المنام على فراشنا إلا بعد أن نلتقي بهذه المدينة المضاءة بالمسرات والحب والجمال نتمازح نضحك يداعب بعضنا البعض، أحياناً تسرقنا متعة اللقاء فنتأخر بالعودة لمنازلنا، وأحياناً أخرى لا نتأخر، كانتْ تضحك تارة كلما انساب لها هدوء المدينة، وتارة أخرى تجدها عابسة كلما تذكرتْ ما حصل لبيت خالها في الموصل، كانت ماريا تحدثني عن معاناة المسيح بعد دخول داعش لمدينة الموصل وإحراق كل الكنائس متهمينهم بالصليبيين والنصارى الذين لا بد من قتلهم أو إعطاء جزية لبقائهم على قيد الحياة، كانتْ تروي لي قصة خالها شمعون الفار مع أفراد عائلته من قبضة داعش والقادمين إلى مدينة ليون ليسكنوا معهم في البيت نفسه بعد موافقة السلطات الفرنسية على منح كل مسيحيي العراق حق اللجوء، كان شمعون يروي قصة الاستخفاف بالنفس البشرية والقتل بلا أدنى رحمة، كان يبكي لأنه ترك ذكريات طفولته وصباه هناك في كنيسة الآباء الدومنيكان التي يعرفها كلّ أهل الموصل بكنيسة الساعة، وأردفتْ تقول: كان خالي يقول: لا يمكنني أن أصف كيف حافظتُ على صغاري وأمهم وأنا أرى الرصاص يتلقفني من كل صوب مسددين رصاصاتهم العمياء صوب صدور الناس، لا أتذكر سوى شيءٍ واحد فقط بقي عالقاً حتى الآن في ذهني هو أنّي كُنتُ كالدجاجة التي تحوم على صغارها مرفرفة بجناحيها مخبئة كتاكيتها من هول خطر كان يتلقفهم ويتصيدهم.

في صباح اليوم التالي وفي باب المعظم كان بائع الصحف يصرخ ويصيح وهو ينوه عن أهم الأحداث السياسية التي تتسيَّد قمم الأخبار المنشورة في الصحف والتي تحمل عناوين بارزة، كنتُ وقتها أقترب من تجمع الناس بالقرب من البائع وهو يبيعُ عليهم صحيفة من الصحف العراقية التي كَتَبَتْ عنواناً مهماً في أعلى صفحتها بالخط الأحمر (اقرأ في الصفحة الثالثة سرّ سقوط الموصل)، كنتُ أنا الآخر أزاحم القراء لاقتناء الصحيفة لأعرف ما السرّ من وراء سقوط محافظة كبرى بيد عصابات صغيرة تحاول الإطاحة بحضارة ضخمة في سهل نينوى، كنتُ مشغولاً بالقراءة غير منتبهٍ لطريقي وأنا أحاول الوصول لنهاية الخبر لأعرف السر الذي كان البائع يصرخ بصوته الأجش جاذباً الكل نحوه، كنتُ غارقاً بالخبر لا أبالي للطريق وما انتبهتُ إلا على صوتِ سيارةٍ أوقفها سائقها بقوة بالقرب مني كان الحد الفاصل بينها وبيني ربما ثلاثة أصابع أو أقل من ذلك، تطاير قلبي هلعاً وخوفاً وأنا أراها تحاول دهسي على الإسفلت الحار، أخرج السائقُ رأسه من زجاج سيارته وصاح بصوته العالي..

- **(فتحوا عيونكم يا حمير انتبهوا لطريقكم من تعبروا الشارع)..**

كان شعر رأسه أشد بياضاً من الثلج، وصمتُ ولم أتفوه بأي كلمة، ثم أردف قائلاً:

- **(أكو واحد يقرأ جريدة بالشارع، على أساس مثقف، گلك حمال.. لا يا حيوان)..**

وهززتُ رأسي ومضيتُ من دون أن أنطق بأيّ حرف أو أن أتفوه بأيّ كلمة، وما أن وصلت، حتى رأيتُ الكل يجتمع حول محمود، واستغربت من تواجده في السوق لأنه شق طريقه عسكرياً منذ سنوات ولم يأتِ إلى السوق نهائياً، كنتُ أقفُ مع الواقفين حوله وهو يروي قصتهُ بعد عودتهِ مرة أخرى للعمل بمهنة الحمالة وتفريغ حمولات الشاحنات الكبرى القادمة من المنافذ الجنوبية حصراً بعد أن أغلقت كل المنافذ الشمالية بتواجد داعش فيها وهو يسردُ قصةَ نجاتهِ من إحدى المجازر، كان يتحدثُ بحسرة وألم وهو يرى حشداً كبيراً من الشباب يقتادهم بعض المارقين في مأساة كبرى من مآسي العصر وهي قصة تخاذل الضباط الكبار بتركِهِم هناك بلا أوامر عسكرية وإعطاء أوامر

بالانسحاب وترك الموصل بناءً على ما جاء من القيادة العليا، كان الكل يسيرُ كخيطٍ طويل له بداية ولا نهاية له باتجاه مدينة بغداد.

تنهد والكلمة تحشرجتْ في بلعومه حتى بلع ريقه ثم أردف قائلاً:

قبل الوصول لمدينة تكريت رأينا جماعة من مطلقي اللحى يقفون على أماكن متباعدة وهم ينثرون الرصاص على العائدين بلا رحمة أو شفقة، وتناثر الجمعُ هرباً بأماكن شتى كانت همرات عسكرية هي المغنم لهم من قطاعات الجيش التي حصلوا عليها تنطلق بسرعة نحو الفارين مطلقةً الرصاص وبقوة على الجميع، كنتُ أنا أحد الهاربين، وكان البعض الآخر يركض خلفي، كنتُ أركض بسرعة ربما الخوف لم يجعلني أستسلم بسهولة للتعب الذي تملكني بل ركضتُ بلا وعي أبداً، كانت الرصاصات اللاهثةُ خلفنا تقتنصُ الفارين من جحيم الموت الذي وزعه علينا الداعشيون بالتساوي، الفارون يقلون تدريجيا ولم ننجُ سوى أربعة، كنتُ أركض وأنظرُ للخلف بعد أن لمحتُ ثلاثة فقط يركضون بعدي ويقلون تدريجياً بسبب الرصاص الكثيف المندفع نحونا وفكرتُ بالوقوع والتمثيل لأنني لن أنجو أن بقيتُ أركض، كانت (الهمر) بعيدةً عنا لكنا تساقطنا كالباقين واحداً تلو الآخر، أنا مثلتُ دور الممثل البارع بأن ألقيتُ جسدي على الأرض لأكون ميتاً حالي حال الميتين، توقف السائق وهو يرانا نتساقط على الأرض لكنه رشقنا بزخة رصاصات أطلقها من فوهة مدفعه الرشاش صوبنا كالمطر الصاخب في ليلة شتائية شديدة البرودة لتخترق الباقين، أما أنا فلربما أراد لي الله أن أبقى على قيد الحياة، كنتُ كجيمس بوند في أداء دور البطل الميت، وما أن سمعتُ صوت المحرك يبتعد والهدوء يعم المكان، حتى أدرتُ رأسي على مهلٍ لأرى الهمر العسكرية تبتعد بعيداً عنا، وما تحركتُ إلا بعد أن غابتْ عن الأبصار، نهضتُ من مكاني وتوجهتُ إلى الساقطين خلفي من الفارين من جحيم الرصاص حسبتهم هم الآخرين يجيدون دور التمثيل مثلي لكني رأيتهم يغرقون بدمائهم التي توقفت عن النزف، وركضتُ وحدي بالصحراء لا أدري إلى أين أذهب، فكان الفضل يعود لإيهاب صاحب الشاحنة الصفراء التي تنقل لنا البضاعة من مدينة أربيل والساكن بمدينة تكريت لولاه ما كنتُ الآن أقص عليكم هذه القصص.

قالها ثم بكى بكاءً شديداً وكأنه كان يشعر بحجم المأساة وهو يودع عنوةً الكثير من الأرواح التي تساقطت خلفه، فاراً من ملك الموت باحثاً عن المنقذ الذي كان يرددُ اسمه بقلبه لتخليصه منهم ثم تواصل بحديثه قائلاً:

اتصلت به مستفسراً عن الطريق القريب السالك له، فكنتُ أتنقل بجداول المياه عابراً المزارع سابحاً في البرك الطينية لئلا يراني أحد، كنتُ أرتجفُ من شدة الخوف، وما شعرتُ بالخوف أكثر إلا حين رأيتُ أحدهم يمسكُ فوق رأسي سلاحاً رشاشاً..

- **قف وإلا قتلتك..**

قالها الرجل الماسك بالرشاشة، والتصق وجهي بالطين بعد أن شعرتُ بالموت قريباً مني، ثم أردف:

- **من أنت؟..**
- **أنا رجل مسكين ساقه القدر هرباً من الموت.**

أجبته وجسمي ينتفض من الخوف وروحي يتملكها الهلع، ما كنتُ أدرك أن الرجل الذي كنتُ أخشاه يحمل في قلبه رحمة ملائكية.

- **انهض لا تخف انهض..** طلب مني وهو يضع سلاحه جانباً.
- **أريد الذهاب إلى بغداد فأنا رجلٌ كنت أبحثُ عن عمل في مدينة تكريت وصادفتُ هذه المشكلة..**

بخوف أجبته بعد أن امتزجت صفرة وجهي مع الوحل المتراكم على أنفي وخدي وجبهتي، ولم أفصح له عن أنني رجل عسكري لئلا يسيء معاملتي.

- **عليك باستبدال ملابسك بأخرى نظيفة لئلا يشك بك أحد، فإن ظفر بك أحدهم وعلم أنك غريب عن هذه المدينة سيقتلك.**

قالها الرجل الواقف على جرف الساقية النهرية المليئة بالماء والطين، ثم أردفَ:

- **سأعطيك ملابس جديدة وأدلك على الطريق، ولن أستطيع إبقاءك عندي، فإنْ علم الدواعش بأنني آويتك سيقتلونني وإياك، كل ما أستطيع فعله لك هو تغيير ملابسك بأخرى مناسبة وإرشادك على الطريق الآمن..**

أنهى كلماته معي وهو يمد يده نحوي لانتشالي من سواد الطين.

واستبدلتُ ملابسي عنده بعد أن أزحتُ ستار الطين ولبستُ دشداشة بيضاء ويشماغاً أحمر وسلكتُ الطريق تارة أركض وأخرى أمشي، كنتُ أرتجف خوفاً وأنا أسير في طرقات فارغة من أهلها، في الاتصال الأخير مع إيهاب الساكن في ناحية العلم بمدينة تكريت قال لي: عليك بأن تصل لفندق يبعد بمسافة قصيرة عن علوة الخضار أقم فيه يومين، سيتصل بك شخصٌ، سأتفق معه على إنقاذك، كنتُ جاهداً بالوصول للعلوة التي أرشدني إلى طريقها الرجل الملائكي، وواصلتُ المسير يرافقني ملك الموت، كان مبتسماً وهو يتوعدني بالاصطياد في أي لحظة، وما أحسستُ وأنا أسير إلا ثمة سيارة كبيرة للشرطة تسير خلفي، شعرتُ بالأمان نوعاً ما وأنا أراها تتجه صوبي لكنهم حين تجاوزوني مسرعين لمحت السائق بزي غريب ولحية طويلة وكذا الجالسُ إلى جواره يشبههُ تماماً، أما الواقف على المدفع الرشاش الضخم المتكئ على هامة السيارة من فوق كان منظرهُ مخيفاً جداً وهو يرتدي زياً أفغانياً ويطلقُ العنان للحيته الكثة، عبراني بعد أن لمحتهم، كنتُ لا أبالي لكن الخوف كان يأكل جسدي ويبطئُ من حركة قدميّ تدريجياً، وحين ابتعدا قليلاً شعرتُ بشيء من الأمان لكنهم حين توقفوا على بعد أمتار مني حتى استداروا عائدين نحوي، قال الواقفُ بلسانٍ عربي غريب:

- **من تكون يا هذا..**

والتزمتُ الصمت، ثم كررها مرة أخرى وانعقد لساني بفمي وما أجدتُ الحديث، شاهدتُ ملك الموت يربتُ على كتفي وهو يبتسمُ لي.

- **تحدث أيها الغبي ألا تجيدُ الحديث..**

قالها الواقف على المدفع الرشاش بغضب بعد أن تطاير الشرر من عينيه.

كانتْ الحروف تخرج من جوفي على لساني مقطعة كإشارة متذبذبة، وجه فوهة المدفع نحوي قائلاً:

- **تحدث وإلا هشمت رأسك..**

وتجمدتُ كقطعة جليد لا أجيد الحراك أبداً، كان ملك الموت يضعُ يده بيدي، انطلقتْ من فوهةِ مدفعهِ الكبير رصاصات صوبي أرعبنني ومزقن صمت المكان، صرختُ بوجوههم ذعراً بكلمات لم يفهمها أيّ مِنْهُم معبراً عن خوفي، وقال الجالس بجوار السائق: إنه رجل أخرس، وهنا أسعفتني فطنتي بأن أكون جيمس بوند من جديد لأمثل دور الأخرس.

- **إلى أين تذهب بهذا الجو المشحون بالقتل..** قالها الواقف فوق.

وأشرتُ له بيدي كالأخرس بأنني أريد الذهاب لعلوة الخضار باحثاً عن أكلٍ لصغاري، ثم قال:

- **هيا اصعد إلى جواري سأساعدك للوصول لأقرب مكان هناك في المدينة..**

فامتنعتُ صارخاً.

- **(لَگ ما تخاف من عندي يا زلمه أنت بأمانة الله)..** قالها العربي وهو يبتسم بوجهي.

كنتُ اقترب لاشعورياً كالشاة حين تستسلم للذئب، أمسكتُ بالسيارة من الخلف محاولاً الصعود بها لكن يديّ لم تقويا على إعانتي، فسقطتُ على الأرض، تبسم العربي الواقف في الأَعْلَى قائلاً:

- **هات إيدك خليني ساعدك..**

كان الموت يبتسم صاعداً معي وانطلقنا حتى وصلتُ قريباً من الفندق القريب من العلوة، أردتُ النزول لكن قدميّ تجمدتا، سقطت من الأعلى إلى الأسفل، حاولت الوقوف ما استطعت، زحفتُ حتى وصلتُ الرصيف وجلستُ ألتقطُ أنفاسي وما انتبهتُ إلا حين وجدتني أجلس مع مجموعة من الناس كانت تنظر لحفلة إعدام جماعي في المكان نفسه واصلتُ الزحف قليلاً مبتعداً محاولاً النهوض مرة أخرى لئلا يشك بأمري أحد ونهضتُ بساقين مرتعشتين حتى وصلت الفندق، أقمت به يوماً واحداً على أملِ اتصالِ المنقذ الذي سيكلفه إيهاب بإنقاذي، وما شعرتُ إلا وأصوات تملأ الفندق وصياح الله أكبر وإطلاق رصاص وضجيج فعلمتُ أنهم دخلوا للفندق بحثاً عن الغرباء، أغلقتُ الباب من الداخل، صاح أحدهم.. هنا يوجد شخص يختبئ أغلق باب الغرفة عليه، تجمعوا صرخوا افتح وإلا قتلناك، لم أستجب لدعوتهم، ثمة فجوة كانت بالجدار وحين نظرتُ من خلالها وجدتها تبعدُ مسافة أربع أمتار فأيقنت أن البقاء والاستسلام للموت أرحم من أن أسقط منها وأنكسر لأموت تدريجياً، وانطلق الرصاص بكثافة نحو الباب محاولين كسر القفل واستنفدوا ما يقارب مخزَنين من مخازن رشاشاتهم لكن الباب لم يُفتح، وقال أحدهم بعد أن رأى الفجوة الجدارية من الخلف لقد هرب من هذه الفجوة، وهدأ الفندق بالتمام بعد أن كان الضجيج يقتل الفندق، بعدها بعث لي إيهاب رسالة على هاتفي كاتباً فيها: اتصل على هذا الرقم سيقوم بإخراجك من تكريت إلى جهة آمنة، وعلى الفور بعثتُ برسالةٍ إلى الرقم المرسل لي، وأعاد إرسال الرسالة صاحب الرقم الجديد مدوناً ومجيباً: سأنتظرك غداً عند الثامنة صباحاً، سأقف فقط عشر دقائق وبعدها سأنجو بنفسي إن استطعت أن تصل في الوقت المحدد فسننطلق سوياً وإن تأخرت بعد الدقائق العشر بنصف دقيقة فلن تجدني هناك، كان الليل يمرُ كئيباً موحشاً، كنتُ أشبه بطفل صغير يجلس في صالة السينما ينظر لفيلم رعب حقيقي في ظل ضوء معتم، كنتُ أعدُ الثواني ثانية بعد أخرى، لم أستطع النوم ليلتها لشدة خوفي لم أذق طعم الأكل، بل كان الموت رفيقي الذي لا يفارقني في كل لحظة، وما أن بدأت خيوط الصباح بالانفراج حتى بدأت أراقب الطريق من الفجوة، راقبتُ طريق العلوة وبابها على أمل وجود سيارة تنتظرني لتنقذني، قبل الثامنة بدقيقتين شاهدتُ سيارةً تقف بباب العلوة، أسرعتُ، فتحتُ الباب الداخلي للغرفة، كان حارسان مصريان يعملان بالفندق تفاجآ عند رؤيتي أنزل من الغرفة بعد أن اقتاد المسلحون النزلاء كلهم ليقتلوهم بباب الفندق.

- **هيا افتحا لي الباب وعلى الفور..** صرختُ بهما.

كانا هما الآخران يرتعشان خوفاً ظناً منهم أنني أعمل مع المسلحين، لكنهما استغربا من تواجدي على الرغم من عدم وجود أي شخصٍ بالفندق، قام أحدهم وفتح لي الباب ثم أغلقه خلفي، كان نزلاء الفندق يرقدون ببابه بلا حراك يتربعون على برِكٍ حمراء يابسة، كان مشهداً مأساوياً وأنا أقفز من فوق الجثث الساكنة الهادئة، كانت الشوارع فارغة تماماً، ومن الزقاق القريب الملاصق للفندق ركضت صوب السيارة الواقفة بباب العلوة، كان هو الآخر ينتظرني بعد أن أخبرني:

- **دقيقة واحدة تفصلني عنك، وعندها لما وجدتني هنا..**

أطلق من صدره زفرة حرى ثم قال مكملاً حديثه:

- **ثمة سيطرات كثيرة لداعش ومسلحين على الطريق هل أنت مستعدٌ لها؟!..**
- **دعنا نتوكل على الله..** قلتها مقاطعاً حديثه.

وأردتُ فقط الابتعاد عن هذا المكان الموبوء بالموت والخوف، وفي أولى السيطرات الواقفة على الطريق بالقرب من مدينة العلم بعد خروجنا من تكريت، ثمة مسلحون يتجمعون نظر إلينا أحدهم حملق فينا أعاد النظرة مرة أخرى في ظل سكوتنا وسكوننا وقال:

- **أذهبوا..**

وكذا عبرنا أربع سيطرات أخرى، كانوا فقط يمرون علينا بأبصارهم ويخلون سبيلنا وشعرتُ بالأمان نوعاً ما مبدداً خوفي الذي تملكني قبل أيام، لكنا قبل الوصول لمدينة الزركه القريبة من مدينة الدوز شبه الآمنة، ثمة مسلحون يوقفون زحف السيارات الهاربة للدوز ورأيت من بعيد أن الناس يقسموهم إلى قسمين، لم أفهم القسم الناجي العائد من هؤلاء النازلين ماذا كانوا يسألونهم، والباقون كانوا يقتادونهم نحو وادٍ في الضفة الأخرى، الذاهب للوادي لا يعودُ أبداً، فقط كنا نسمع صوت إطلاق للرصاصات، وحين وصل الموت لنا، قال أحدهم هيا ترجلوا من السيارة أنتما الاثنان وحين نزلنا، بات المسلح يرشدنا للطريق، ضعا يديكما فوق رأسيكما، توجها للأمام، لا تلتفتا، اجلسا، وكان الموت هنا رفيقنا من دون أدنى شك، بعد أن أعد رشاشته، وانطلقت الرصاصة من المخزن لتستقر بالسبطانة جاهزةً لاختراق رؤوسنا، قال صاحبي الذي رافقني طوال الطريق ونحن نجثو على ركبتينا..

- **تشاهد يا فتى، فالموت قادم لا محيص منه وأعذرني عند ربك لأنني لم أستطع أن أنجو بك من هؤلاء الأوغاد..**

بمرارة أطلق هذه الكلمات من فمه وهو يرمقني بطرف عينه واضعاً يديه خلف رأسه.

كنا نتشاهدُ سوياً منتظرين لحظة الموت والوداع، لكن من جمال القدر أن يمنحك الله فرصة جديدة للولوج بهذه الحياة مرة أخرى، هاتف لاسلكي رج جيب المسلح وبقوة، تحدث المسلح مع المتصل، ابتعد قليلاً، كان الصوت يبتعد تدريجياً للوراء تاركنا في العراء، ننتظر لحظة الإعدام والموت، والتفت صاحبي للخلف قائلاً:

- **هم يبتعدون عنا مسافة جيدة.**

وكان صوت طائرة قادمة من بعيد، وكأن أحدهم قال لهم بأن طائرة تحاول رصدهم، التفت نحوي السائق قائلاً:

- **سأركض بقوة وعليك أن تركض أسرع مني فإن ركبت قبلك سأتركك وأفرُ بنفسي..**

وركضنا كلانا بسرعة نحو السيارة فارين من ساحة الموت ووصلتُ قبله، كان هو الآخر يقودُها بسرعة جنونية هرباً من السيطرة، كنا نبتعد عن المسلحين، بينما هي تحاول الطيران بنا من شدة سرعتها، الرصاصات التي انطلقت خلفنا هي الأخرى اخترقت السيارة من الخلف لكنها كانت أقوى من ذلك فصمدت على الرغم من تأثرها بالرصاص المرصع لخلفيتها.

في الدوز كنا نبيتُ عند أصدقاء السائق بعد أن رحبوا بنا، كان شعوري بالأمان لا يوصف، إلا حين التفتَ نحوي صاحب الدار وأخبرني:

- **بني نحن لا نطردك أبداً بل بقاؤك هنا فيه خطورة عليك، لكنك أن أحببت البقاء لن نمنحك لهم سنموت كلنا قبلك..**

ودمعتْ عيناي لهذا الحديث، فقال السائق عمر المرافق لي:

- **ستكون كركوك آمن من الدوز لأنها ما زالت بيد الحكومة، غداً سنتوجه لهناك.**

على مداخل كركوك كان عمر يودعني عائداً قائلاً:

- **هنا ستكون بأمان بهذه المدينة..** لَوَحَ بيده خلفي مودعاً إيايّ.

في هذه اللحظة حاولتُ التشبث بأيّ شخص ينقذني من جحيم الموت تذكرتُ إحسان الشاب الكركوكلي، السائق الذي كنا نكرههُ كلنا حينما يأتي بحمل شاحنته للشورجة، فاتصلتُ به عله يكون عوناً لي بهذه المدينة، إلا أن السيطرة التي كانتْ تقفُ بمدخل المدينة لم تسمح لي بالدخول لأنني غريب وأحمل هوية عربية، ابتعدتُ قليلاً عن السيطرة، ثمة سيارة أخرى تحمل علماً لكردستان يرفرف فوقها وأشرتُ بيدي نحو السيارة التي كُتِبَ عليها قوات الأسايش، وافتعلتُ أكذوبة للدخول للمدينة التي يحرس مدخلها حرس البيشمركه الكردي، معللاً دخولي بسرقةِ مركبتي في مدينة تكريت ومحاولة البحث عنها في كركوك، ودخلت معهم للمدينة من غير تفتيش، بعد أن تحدث معهم السائق باللغة الكردية، وكان مشكوراً إحسان بتهريبي من مدينة كركوك عبر الطرق الآمنة وصولاً إلى بغداد، لم تصدق أمي وهي تتحسس جسدي بأنني على قيد الحياة، كانت دموعها تنزل بغزارة وهي تحتضنني بيديها المرتعشتين.

كان محمود يتحدثُ وجمعٌ غفير من أصحاب المحال يدورون حوله على شكل دائرة وهم ينصتون له بلا مقاطعة فقد عرفه الجميع بثرثرته التي لا تنتهي أبداً فكان متواصلاً لا يكلّ أو يمل من تتبع الأحداث، ثم قال العم عباس شاه:

- **ما زال السوق يحتفظ بثرثراتك يا محمود..** قالها وهو يربتُ على كتفه.
- **ارفع يدك عن ظهري يا عم فأنت تذكرني بملك الموت وهو يربتُ على كتفي مبتسماً قائلاً: لا تخف أنا معك.. وكأنك الآن تشعرني بالموت.. لقد اقشعر جلدي من هذا التربيت..**

قالها وهو يمسك يد العم عباس مبعدها عن كتفه.

يا له من سوق.. هذا الذي يحمل بين طياته آلاف القصص والحكايا.... من بعيد صاح ساجد هيا تعالوا ثمة عملٌ ينتظركم، نهضنا أنا ومحمود نعيد أمجاد الماضي في نقل بضائع السوق عبر مشاجرات الأصحاب التي لا تنتهي، للماضي نكهة حتى وإن كان يحمل بين طياته المرارة والأسى..

(55)

بعد أيامٍ ترك كل من صالح وعلاء بسطاتهم البسيطة التي لا يمكن أن تغدق عليهم العطاء لصغرها فالشورًجة للتجار حصراً لمن يملك الأموال، لا للفقراء لا للمساكين، وباتت تشكيلتنا تعود لسابق عهدها واكتمل العدد برجوع سامي الذي نجا هو الآخر من عملية مداهمة نفذها رجال الأمن، بعد أن تأكدوا أن هذا البار والمرقص الذي يعمل فيه هو وكرٌ لتنفيذ عمليات إرهابية بمساعدة نوال السيدة الأولى في الحانة والرئيس معتز الرجل المتنفذ في الدولة..

- **لم أكن أدرك أن نوال كانت بريئة وعفيفة فضلاً عن جمالها ورقتها وعذوبتها التي كانت**

تزينها وهي تسرد لي قصتها وأنا أملأ كأسها الرابع من الخمر لتفصح عن أسرارها من غير أن تعلم...

قالها سامي وهو ينظر لنا سائلين عن سبب عودته للسوق، وتواصل يسردُ حديثه قاصاً علينا حكاية نوال كلها..

كنتُ فتاة صغيرة أرغمها والداها على قبول الزواج من ابن عمها الذي يكبرها بخمسة أعوام، كان ضابطاً في الجيش العراقي في فترة الحرب العراقية الإيرانية وكنتُ طالبة في جامعة بغداد، كانت تتحدث بلغة السكارى وهي تميل برأسها وتتلعثم بالحديث.. ثم أردفتْ: كان أرشد قريباً جداً من ابن الرئيس وهو يرتاد الجامعات بحثاً له عن الجميلات اللائي يتواجدن بها لتقديمها وجبة دسمة على مائدته الجنسية، ليفتض بكارتها بلا احترام أو تقييد للأعراف والتقاليد، لكن أرشد استغل نفوذه وسطوته وأرغمني أن أكون عشيقته بدلاً من أن يأخذني كهدية لسيده الذي يبحث عن الحسناوات في الجامعات والمعاهد العراقية، كنتُ خائفة مذعورة لسطوة هؤلاء لأنهم كانوا لا يتوانون عن قتل أي إنسان، وتحججتُ بأنّي متزوجة من ضابط في الجيش العراقي، كان هذا الحديث في غرفة معاون عميد الجامعة الذي يفرغ هو الآخر غرفته رغماً عنه ليرسلوا خلف الطالبات بالأسماء بعد أن يرمقوها بأعينهم باحثين عن الجذابات الجميلات، إما القتل أو الإصغاء لسرير أرشد السادي، وأصغيتُ لسريره كارهةً إياه، كان سادياً لدرجة لا توصف، له أظافر طويلة يتعمد تربيتها وهو يضاجعني غارساً إياها بدفتي اللتين تعلو فردتيّ، كانت نوال لا تعي ما تقول ولا تدرك أنها تفصح لي عن سرّ دفين لا يعلم به أي شخص سواي وأنا أصبّ لها من زجاجة الويسكي على مكعبات الثلج التي تذوب بحرارة المشروب.

- **اُنظر..**

قالتها وهي ترفع قميصها الأصفر من الأسفل لتكشف عن ملذات أرشد الذي كان يغرسها بدفتيها المتوردتين وهو يرسم بأظفاره خارطة النشوة التي تتصاعد والتي لا تنطفئ إلا برؤيته للدم يسيل على فردتيها المتكورتين المليئتين بالحيوية والجَمال، كان صراخها يمنحه الشهوة وهي تتصاعد بجسمه محولاً ألمها للذة لا توصف يعيشها هو، كانت تكشف لي ما تبقى من خيوط بيضاء عفا عليها الزمن لتكون شاهداً على ساديتهم، وتواصلتْ بحديثها قائلةً:

- **علاقتي قويت به جداً بعد أن فُقِدَ زوجي في الحرب وتلاشي وانقطعتْ كلّ أخباره..**

كانتْ تقولها وهي ترتشفُ من كأسها القعر الأخير من الشراب.

وبعد سقوط النظام في العراق اختفى أرشد وطاولات الخمر والسكائر الفارهة حتى موائد الملذات على سرائر اللذة ذهبتْ مع أرشد الذي رحل هارباً من العراق، بعد دخول القوات الأمريكية، كنتُ أنا خائفة أيضاً، أغلق باب بيتي وأنزوي، عشتُ أياماً عصيبة أشعر بالخوف أيام الهرج والمرج، انتشار الأمريكان بالشوارع كان يخيفني جداً، قررتُ الفرار بعدها للأردن للنفاذ بجلدي.

في الأردن شعرتُ بالغربة وأنا أتجول فيها بمفردي، كنتُ تائهة بلا مأوى ألوذ به، كان الليل ينشر هدوءه في كل مكان، لم أكن أشعر أنني بحاجةٍ لممارسة السادية هُناك، لكني شعرتُ بهذا حين مررتُ بزقاق ضيق مظلم وأنا أسير به بمفردي، لم أكن أدرك أن ثمة مخموراً يصادفني بالطرف الآخر من الزقاق وهو يغلق الطريق بتمايل جسده ليسقط بكتلته اللحمية فوقي ممسكاً بي، كنتُ أحسب أنه ينوي تفتيشي وهو يلصق جسدي للجدار رافعاً يدي نحو الأعلى، كان وجهي للجدار لا أرى ماذا يفعل لكني أحسست بحرارة يده وهو يفك أزرار بنطالي داساً قطعةً لحميةً في المكان نفسه الذي كان يستخدمه أرشد، كنتُ أتنهد وهو يمارس شذوذه معي في الزقاق المظلم، وأدركتُ وقتها أنه لا مفرَ من هذه

البلدة إلا بالعمل بصالات الرقص أو أماكن العهر، وسألتُ عن مكانٍ يؤويني وعهري فأرشدوني إلى منطقة الزرقاء.

- **سارة وسعيد هما سيدا هذا المكان اذهبي واتفقي معهما للبقاء هنا مقابل نصف ما تتقاضينه من ليلة مبيت مع زبون بائس..**

قالتها إحداهن بعد أن سألتها عن المسؤول الذي يدير هذا المكان، لكني تفاجأت وأنا أدخل المكان العامر بالمومسات والأجساد العارية، أن سعيداً هو زوجي الضابط المفقود أيام الحرب العراقية الإيرانية، تفاجأ كلانا ونحن ننظر لبعضنا نظرة استغراب ودهشة.

- **أنتَ أحمد..** قُلتها غير مصدقة لما رأيت!!.
- **أنتِ نوال..** قالها وهو ينهض من كرسيه الجالس عليه محملقاً بعيني ووجهي.
- **ما قصتكَ؟..** صفعته بسؤالي.
- **بل أنتِ ما قصتكِ؟..** رد باندهاش وهو ينتصب واقفاً.
- **لماذا تتجمعون حول سامي؟..**

قاطع شيخ حكمت سامي وهو يمسك بمسبحته السوداء، ثم أردف:

- **أراكم تتجمدون كقطعة جليد لا تحرك ساكناً، هيا انهضوا فثمة عمل ينتظركم..**

كان الكل منشغلاً بما يسردهُ سامي وهو ينتقل من مكان إلى آخر بحكاياه مثيراً فينا الدهشة والغرابة والتشويق.

- **لا لن نبرح هذا المكان حتى تكمل لنا قصة أحمد أو سعيد ونوال وقصة قدومك أنت بالتحديد التي أعادتك هنا للسوق مرة أخرى.**

قالها الجميع لسامي وهم ينصتون تاركين أعمالهم فاغرين أفواههم ينتظرون منه إكمال قصته.

- **هيا انهضوا..**

كررها شيخ حكمت وهو يصدر صوتاً متوالياً لقرقعة مسبحته واقفاً فوق رؤوسنا ناظراً بعينيه مِن الأعلى وهو يرانا نجلس كحلقة دائرية بالقرب من دكان العم عباس شاه، وامتنع الكل عن العمل قبل أن نسمع حديث سامي وهو يسرد علينا بأسلوبه المشوق الحكاية، رحل ممتعضاً وهو يتمتم غاضباً منا لعدم استجابتنا له بعد أن بقيت بضاعته معلقة بالشاحنة القادمة من الموانئ الجنوبية.

- **هيا أكمل حديثك..**

طلب منه الجميع وهم ينظرون خلف شبح حكمت وهو يبتعد عنهم مولولاً يجر خلفه لعناته التي يطلقها بلا انقطاع.

ثم أكمل سامي من النقطة التي توقف عندها، ليرد أحمد المفقود على سؤال زوجته نوال..

لقد جاء شخص لي بملابس مدنية أنيقة طالباً إيّاي، بينما كان القصف يقطر كالمطر في الجبهات الأمامية وبعد كثافة الجثث التي سقطت في نهر جاسم بين الطرفين المتصارعين..

- **امسك..**

قالها صاحب البذلة الأنيقة، واضعاً بيدي حزمة أوراق، وأردف:

- **هذا جوازك فيه كل معلوماتك الجديدة اسمك الآن هو (سعيد لطيف جاسم) وهوية الأحوال**

المدنية الجديدة مطابقة لمعلومات الجواز، وعليك أن تنسى من اللحظة اسم (أحمد راسم مجيد)..

ثم تواصل صاحب البذلة الأنيقة قائلاً:

- **ستسافر الآن للأردن ولن تعود للعراق أبداً لأن الاسم الجديد مؤشر في منفذ طريبيل الحدودي بعدم الدخول مرة أخرى، وفي حال عودتك سيكون مصيرك الإعدام.**

هذا ما جاء بناءً على طلب الأستاذ، أرغمتُ على الخروج من العراق وترك أهلي وناسي رغماً عن أنفي وبتُّ أعمل بهذا المكان والزواج من سارة بناءً على أوامرهم وبقيتُ ها هنا لأكون سمساراً لأجساد العاريات..

وأفصحت له نوال عن قصتها التي قالت وهي تستغرب من المؤامرة التي دبرها لهما أرشد المتنفذ بالسلطة آنذاك..

لقد طرق بابي عسكري ليقدم لي شهادة وفاة لك قائلاً:

- **كان أحمد بطلاً شجاعاً، سقط صاروخان على موضعه ليتناثر لحمه ويمتزج بالتراب ولم نعثر له على أي جثّة..**
- **ثم ماذا؟..**

قالها الكل بشغف لمواصلة القصة، حتى قاطع علاء الجميع قائلاً موجهاً خطابه لسامي:

- **اختصر لا تطل علينا نريد النهاية هكذا أنت تُؤخرنا..**

وثار الكل بوجه علاء..

- **دعه يتحدث لا تقاطعه..** صرخ الجميع بلسانٍ واحد..
- **إن كنت لا تجيد الاستماع فعليك الرحيل.**

وخرس علاء رغماً عنه منصتاً لحديث سامي:

لقد بقيت نوال هناك لفترة من الزمن وما أن استقر الوضع بالعراق حتى عادت هنا لتكون على مقربةٍ من رجل في الدولة العراقية الجديدة، وعملا معاً لإشغال هذا المكان الذي كنت أعمل به، كانت نوال هي المدبر والمخطط لإثارة بلبلة وحصول شرخ في الأمن العراقي من خلال جعل هذا البار وكراً لتجنيد الإرهابيين المدعومين بالمال والسلاح فضلاً عن عملية تهريب بعض الفتيات الصغيرات وبيعهن لزوجها السابق أحمد.

في هذا البار عُقِدت صفقات لبيع وشراء أرواح الفقراء والمساكين، لم نكن ندرك أن ثمة عناصر استخباراتية ترقب المكان لأنَّ الغطاء الأمني كان موفراً لنا من رجل الدولة الذي يعمل بالبرلمان.

يا لوقاحتهم هم يقتلون البسطاء الفقراء من أبناء الشعب بحجة حمايتهم لكنهم في الخفاء والدهاليز المظلمة يتحدثون عن العراق بكل سوء من أفواههم المخمورة المصابة بعفن الخَمْر، كان يوماً أسود عليهم وقوات مكافحة الشغب والأمن الوطني تطوق المكان لتلقي القبض على كل المتواجدين في الداخل، من حسن حظي أنني خرجت قبل وصولهم بخمس دقائق فقط، كنتُ أنتظر صاحب الشواية ليشوي لي نَفَر كباب بعد أن شعرت بالجوع، إحساسي بالجوع هو ما أنقذني ولولاه لكنت أنا أحد المتهمين، أُغْلِقَ البار بعد أن أُخرج الجميع مقيدين بالسلاسل الحديدية، كنت أنا أراقب كل شيء من بعيد، كان شعوري بالشبع يساوي عندي كل شيء..

كان علاء ينتظر نهاية القصة بفارغ الصبر، وهو يردد بين فينة وأخرى..

- **(لو أعرف أشوگت أيخلص حجّي، صارت قصة عنتر)..**

وحين يرمقه الجميع بنظرة غضب يسكت..

كان شيخ حكمت ينادي للمرة السابعة بين الحين والآخر:

- **(أنتم تشتغلون لو لا)..**

ونهضنا كلنا مكتملي العدد باستثناء سمير الذي ما زال يعمل مع سردار وبولص.

(56)

لم يبقَ سوى سمير الذي تحول إلى شاب من الجنس الثالث والذي تغيرت كل معالم وجهه وجسده ليصبح رجلاً شاذاً بكل تفاصيله المثيرة الأقرب بها للأنثى من الرجل والذي لم يفرطا به كل من سردار وبولص بل تشبثا به لأنهم عشقاه أكثر من عشقهم للإناث..

وعاد سامي وصالح مرة أخرى للعراك والمشاجرة ونحن نغرق بتفريغ الحمولة القادمة من الموانئ الجنوبية، كان عراكاً لذيذاً شعرتُ بحلاوته المفقودة منذ زمن بعيد منذ أن التقينا أول وهلة في سوق الشورجة، يا لهذه الأيام الجميلة التي تمرّ سريعاً، تدور بنا كالرحى، كما فرقتنا عادت لتجمعنا تحت خيمة الحب مرة أخرى.

- **هيا اتركا الصراع وعودا لننجز عملنا..**

طلبتُ منهما وأنا أحمل فوق ظهري أثقالاً ثقيلة محاولاً إنجاز العمل بأسرع وقت، ومن بعيد صاح سائق الشاحنة وهو يرتشف رشفةً من كوبه الساخن أمام بائع الشاي في نهاية الطريق المؤدي إلى أحد المخازن الكبيرة في الشورجة..

- **ألا تكفوا عن الشجار سأتأخر وبعد ساعات قليلة ستمتلئ الشوارع بالمركبات وسألعن حظي يا أولاد الكلاب..**

صرخ بنا السائق بعد أن برزت على ملامح وجهه علامات الغضب وبعد أن تطاير الشررُ بعينه.

كنتُ في كل ليلة لا أتوانى عن ملاقاة ماريا في مملكتي ومدينتي الجميلة وجنتي التي بتُ لا أفارقها في إيسكولاس الحب والجمال، لـ إيسكولاس ثمانية أبواب، وبعد كل باب ترى العجب العجاب من الطرق الساحرة التي تذهل الناظر حال رؤيتها، أما أنا وماريا فكنا نتنقل بين الأبواب الثمانية، وعند كل باب عمود رخامي كُتِبَ عليه نبوءة، كل النبوءات التي مررتُ عليها لم أكترث لها ربما لم تشدَّ انتباهي باستثناء الأخيرة المنقوشة على العمود الرخامي الثامن التي تكشف عن الفترة الزمنية لعام 20!م، كنتُ أقرأ والذهول يربك أفكاري والدهشة تحيط بي لما قرأته، وشغلتني هذه النبوءة كثيراً حتى عن الالتفات لماريا وقتها، فكنتُ كلّما أحاول أن أصرحَ ثمة شيء يمنعني من التصريح بها، لذا احتفظتُ بالسر لوحدي لئلا أقلب كيان هذا العالم القائم على أساس الرتابة في الأيام وتقدمها.. هل ستعود عشتار لعالمها السفلي وهي تمنح الآلهة أرشيجيكال صولجانها وتاجها وإسوارتها لتفك أسر حبيبها دموزي؟ أفكر وأنا أقف أمام هذه النبوءة هل سنعود إلى الخصب والانعتاق والانبعاث مرة

أخرى، أم سنتجه كلنا إلى العالم السفلي من دون أن نعي حقيقتنا المرة، ورحتُ أضرب أخماساً بأسداس متى تنقذنا عشتار من ظلمات هذا العالم وتفك أسرنا..

وباتت ماريا تطرح أسئلة محيرة لي، سؤالاً خلف آخر، قائلةً:

أسعد، هل تلاحظ هذه الأبواب وكتاباتها والأعمدة الرخامية ونبوءاتها الموجودة هنا في ايسكولاس، إذن لماذا يتصارع الناس؟ لماذا يقتل بعضهم بعضا؟ من أجل من؟ هل تدرك أن كل هذه الأسئلة تدور برأسي مذ أن حط خالي شمعون ضيفاً علينا في ليون وهو يروي لنا القتل والدمار والخراب الذي حل بنا هناك في الموصل، إلى أي انحطاط وصل إليه الجنس البشري!!.. هل الجنة لهؤلاء حقاً، للذين يجزون رقاب الناس بغير شفقة أو رحمة؟! أليس الله هو الرحمة بعينها، على أيّ أساس يفسُّر هؤلاء رحمة الله، لقد بتُّ أشمئز من الجنس البشري قاطبة..

وتواصلت ماريا بطرح أسئلة في غاية الغرابة والدهشة وأنا أنصت لها، وهي تنظر بعين مختلفة تماماً مستغرباً من نظراتها لي، لتردف قائلةً:

- **هل نستحق كلّ هذا نحن أبناء المسيح؟!!..**

وللوهلة الأولى أرى ماريا وهي تبكي بإيسكولاس.

- **هيا نعُدْ لا أريد البقاء هنا، أشعر بالملل من كل شيء، أتمنى أن أختفي عن هذا العالم عن كل شيء، بتُ أكره نفسي.. نعم أكرهها..**

قالتها وهي تضع رأسها بحجري باكية كطفل صغير، ثم رفعتْ رأسها وهي تنظر لي، كان وجهها عبارة عن قطعة حمراء مبللة بالدمع، وعيناها أشدّ حمرة من وجهها، كان آخر سؤال سألته ماريا لي قائلة وهي تمسح الدموع عن وجهها..

- **هل يستحق العراق كل هذا؟!! هيا فلنعدْ..**

كنا نحصي العد للثلاثة لنلفظ اسم المدينة الأعظم، وما أن وجدنا أنفسنا بالقرب من حواسيبنا حتى أحببت الاطمئنان عليها قبل أن تخلد للنوم، وعبر كاميرتها رأيتها تفرك عينيها وهي تمسحُ ما تبقى لها من دمع متجمع فوق رموشها.

- **روحي نامي وارتاحي..**

همستُ لها محاولاً تبديد الحزن عنها ومودعاً إياها.

كانت أمي تستفسر عن عدم وجودي بعد أن صاحت أكثر من مرة عليّ.

- **نعم يا أمي..** أجبتها وأنا أنزل السلالم لباحة الدار.
- **يمه وين رحت ما شفتك بغرفتك..** سألتني وهي تتمدد على فراشها البسيط.
- **يمه كنت أشم اشوية هوى فوگ السطح..** بررتُ لها غيابي.
- **بس ابني أنا صعدت للسطح ما شفتك..** استدركت بعد أن فتحت عينها صوبي مستهجنة عذري.
- **ابني كل تصرفاتك صايرة غريبة، أنتَ ما موجود بكل مكان بالبيت.. دورت عليك بس ما شفتك نهائياً ولعلمك مو أول مرة هاي أكثر من مرة..**

قالتها أمي وهي تحاول أن تكشف شيئاً من سري.

وضحكتُ قائلاً:

- **يمه كنتُ في إيسكولاس..**

وضحكتْ هي من قلبها قائلةً:

- **والله يمه أخاف عليك تنجن..** ثم ضحكتْ وضحكتُ معها من قلبي أنا الآخر، وأردفتْ:
- **ابني روح نام الله يهديك..** قالتها وهي تضع يدها أسفل خدها لتستلقي على جانبها الأيمن من فراشها..

وتسلقتُ السلالم وتمددتُ على فراشي واستسلمتُ كعادتي للنوم.

(57)

في ليلةٍ أشبهُ بتلك الليلة كنتُ أنتظرها وفتحتُ كاميرتي لكنها لم تدخل وشعرتُ بالضيق وأنا أنتظر من دون جدوى وانتصف الليل، وصاح ديك أم محمد وتبعه بعدها بدقائق المؤذن وتمددتُ على فراشي ونمت، وفي المساء الذي يليه كنتُ كعادتي أنتظرُها باعثاً لها برسائلي محاولاً استدراجها لعالم إيسكولاس، وانتصف الليل وانحدر نحو الصباح لكن من دون جدوى، وفي الليلة الثالثة والرابعة كان لا شيء يميز الليالي سوى صورة لماريا بقيتْ عالقة بمخيلتي ولا شيء يؤنس وحشتي غير صوت ديك أم محمد وهو يصيح بصوته، كان يصرخُ والناس نيام وتمنيتُ وقتها أن أصرخ مثله لكن بلا ردٍ أبداً يأتيني منها..

ومرت شهورٌ تلو أخرى كنتُ أصعد عند كل مساء لمدينتي علني ألقاها، بعد أن أناجيها باعثاً لها بكلماتي التي كانت تستأنس بها، لكني حين أشعر بالضجر من عدم اكتراثها لي، أفتش عن خطواتنا اللائي خطوناها سوياً، بصماتنا، ضحكاتنا، تلك المدينة التي تذهل الناظر حين تراها أصبحت لا تساوي أي شَيْء، كل شيء في الكون لا يساوي لحظة تمرد من عين ماريا، لم أكن أعلم أنها باتت جزءاً مني، أقفز، أركض، كمخبولٍ لا يعرف ما يفعل، هجرتُ إيسكولاس وما عدتُ أصعد لها بعد غيابها لأنها باتت موحشة جداً من دونها، وأصبح كل شيء بنظري شبه معتم، وبتُّ حبيس أربعة جدران لا أكلم أحداً، لا أرى سوى أمي التي تتوسل بي عند كل مساء أن أخرج من قوقعتي.... وبتُ أكتبُ لها رسائل حزن عوضاً عن الغرام الذي كان يزين لقاءنا، وأرسلتُ لها حروفي التي كنتُ أبللها بالدمع وأنا أكتبُ على الورقة البيضاء..

لي طفلةُ مدللة

كانت كل شيءٍ بالنسبةِ لي

هي روحي وقلبي وعقلي

كانت ترقصُ أمامي

كحمامةٍ بيضاء

بثوبها الأبيض الشفاف

تضحك.. تفرح.. تمرح

في وجهها كل البراءة

وعلى شفتيها المتوردتين

تلتجئ السماء

ويحط الضياء

لكنها اختفت عند آخر

ابتسامة حبّ

زرعتُها لها على طريق وجنتيها

طفلتي حبيبتي عودي

فقد اشتقت إليكِ

كنتُ أبعثُ لها في كلّ يوم رسالة جديدة، وكنتُ أحتفظ بالرسائل المرسلة بأوراق خاصة أسميتها مذكرات (رجل عاجز عن الحب) وآخر رسالة كتبتها لها كانتْ تحمل رقم ثمانية وثمانون..

لستُ سيداً ولا ولياً

لستُ درويشاً

يتخذُ من كهوف الأرض

مكاناً للتصوف والعبادة

لستُ قديساً

لا كاهناً ولا راهبا

لستُ إماما

لستُ أيّ شيءٍ من هذا

إني عبدٌ لله بسيط فقير

إني أعرض عليكم روحي

فمن يشتري؟..

مقابل لحظة تمرد من عينيها

وبعدها توقفتُ عن المراسلة وانزويت لوحدي سائلاً نفسي عنها، متوسلاً بالقدر أن يعيد اللحظات القديمة التي كنتُ أصارع الخيال من أجلها... أين أنتِ يا ماريا؟ ليتكِ الآن تسمعين صراخي، ليتك الآن تسمعين همسي وبكائي، ليتك الآن تسمعين كيف أرتل اسمك بصلاتي، إني أحبك بجنون لدرجة بتّ لا أقوى حتى على مضغ طعامي من بعدكِ، فأنتِ كل شيء بالنسبة لي حتى هوائي الذي أتنفسه، بل روحي التي تسكن جسدي، وقبلتي التي كلّما أشتاق للحظةِ دعاء فلا أجد سواكِ ألتجئ إليه عند شدتي عند همي وغمي عند كربتي كنتِ بالنسبة لي كل شيء.

آآه يا ماريا ما كنتُ أتصورُ أن ساعات الفراق مؤلمة لهذه الدرجة، أي ذنب اقترفته حتى تغيبي هكذا، مرّ زمن طويل على فراقها.. ابتعدتْ عني وبات خيالي فقط يرسمها كما يحلو له، كانتْ تداعب

بأجنحتها الأمواج المتلاطمة وأنا أرى البحر يجتمع في عينيها، يا لوجهكِ الذي تلتمع عليه أشعة الشمس، ها أنت تقفين واثبةً كشلالٍ ينفجر الماء من حولك وأنت تسكبين بين يديك ماء البحر كله، في فم الريح يتبعثر قلبي وتحترق كل أشواقي وما من شيءٍ يُعيدُ لي رونقي سوى عينيك، فوالله لو طلبتِ الشمس لتجشمت العناء كي أضعها تحت قدميكِ، أي جنون يتملكني الآن وأنا أحتسي صمتي وأنزوي..

وفي يوم من الأيام حدث ما لم يكن بالحسبان، ما لم أتوقعه وأنا أفتشُ في صفحتها، كنت أقرأ وأبكي، أبكي بشدة، كنتُ أبكي بلغة الأطفال الصغار، أمي كانتْ تحضنني وتبكي هي الأخرى لا تعرف ما سرّ بكائي، وأنا كنتُ كلما أرى شاشة حاسوبي أنتفض باكياً صارخاً غارقاً بدموعي، لأنني لم أصدق وقتها ما رأيت.